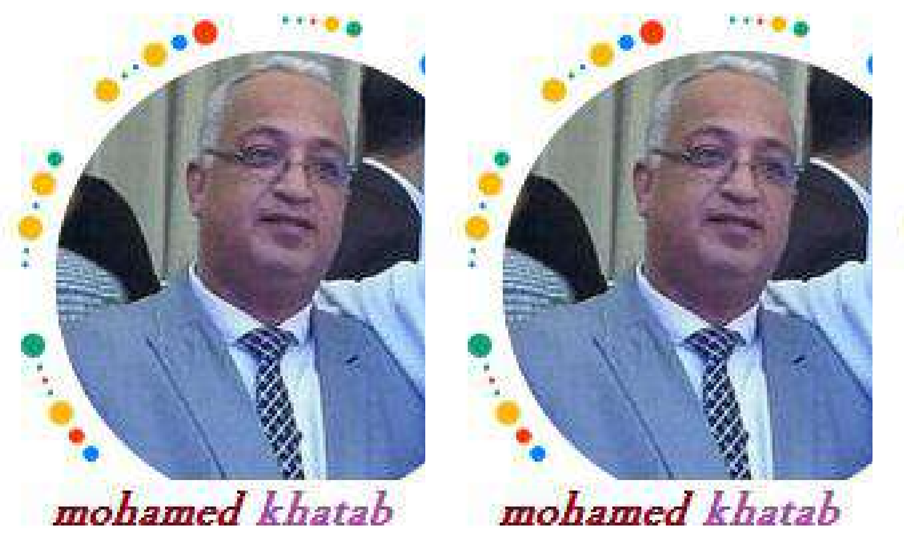
عوارف المعارف

للسهروردي

1


mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين. نحمده - سبحانه وتعالى - حمدا كثيرا طيبا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل رحمة وهداية للناس اجمعين. وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

اما بعد

فإن كتاب: "عوارف المعارف" للإمام السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ من الكتب الجليلة التي جاءت في التصوف..

وعوارف المعارف. دافع أصيل للمعارف الصوفية، ومعرفة من كل الوجوه. لا يستغنى عنه عالم متبحر، ولا باحث متلهف، ولا طالب علم، ولا داعية يبذل ما في وسعه ليبلغ الحق إلى الناس.

وقد يكون واضحاً : أن التصوف الإسلامي باعتباره علماً كسائر العلوم الإسلامية، لا بد له من تعريف يميزه عن غيره.

ولما كانت مدارس التصوف متعددة، فاختلافهم فيه ليس اختلاف التغاير في المفهوم، ولكنه الاختلاف في الإحاطة بأطراف الحقيقة.

فمنهم من يجمع منها طرفا واحدا، ومنهم من يجمع أكثر من طرف. ومنهم من يشير إشارة، أو يلوح تلويحاً.

ومنهم من يرنوا إلى الغاية. ومنهم من يتحدث عن الوسيلة. كل حسب وقته وحاله وحسب المناسبة التي ورد الحديث في شأنها، والتركيز على ناحية من نواحي التصوف تبعاً لذلك.

فهو راجع إلى منازل أصحاب السلوك في معارج السلوك. فكل واحد منهم ترجم إحساسه في مقامه. وهو لا يعارض أبدا مقام سواه. فالحقيقة واحدة، وهي كالبستان الجامع. كل سالك وقف تحت شجرة منه، فوصفها.

ولم يقل إنه ليس بالبستان شجرة سواها. ومهما اختلفت التعريفات فإنها تلتقى عن رتبة من التزكي والتقوى عن طريق الهجرة إلى الله.

يقول أبو القاسم القشيري: "وتكلم الناس في التصوف، ما معناه؟ وفي الصوفي: من هو؟ فكل عبر بما وقع له".

ويتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الخلقي.

وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية أنفسهم، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين.

والجانب الخلقي يسيطر على كثير من التعاريف التي جاءت في التصوف.

يقول أبو بكر الكتاني المتوفى سنة ٢٣٣ هـ: "التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء".

ويقول أبو محمد الحريرى المتوفي سنة ٣١١ هـ: "التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني" .

ويذكر أبو الحسين النوري أن: "التصوف ليس رسماً، ولا علماً ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق بعلم أو رسم".

فهذه التعريفات - كما ترى - وغيرها كثير، تنطق بمعنى الأخلاق، ويتردد فيها معنى الصفاء. فعماد التصوف تصفية القلب من أوضار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق سبحانه وتعالى.

ومن هذا المنطلق اتجه كثير من الصوفية في تعريفهم للتصوف إلى ملاحظة الجانب الخلقي إدراكاً لأهمية تحقيق ذلك الجانب.

والتعريفات التي لا تذكر فيها ألفاظ الأخلاق نصاً تئول في نهاية الأمر إلى الناحية الخلقية إن لم تكن بعناصرها كلها، فبالعناصر الغالبة فيها، ومن هنا بيان لوجهة نظر الكثير في اعتبار الأخلاق وجهاً أساسياً من وجوه التصوف، بل لا تتحقق حقيقة التصوف بغير وجودها، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية.

وفي هذا المقام يقول ابن عربي: إن حرص الصوفية بالمجاهدة للوصول إلى مكارم الأخلاق، لأن بها تتطهر النفوس من أدوائها، وتتخلص من أمراضها.

ولذلك كان التخلص من شكل الأخلاق المذمومة فرضاً عند الصوفية، لأن الأخلاق المذمومة شكلاً كالنجاسة التي تحول بين النفوس وصفائها.

وقد أقر التصوف بهذه الصفة، واحد من أكبر مفكري السلف، وهو الإمام ابن قيم الجوزية، فأنت تراه يقول: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق".

وايضاً يقول ابو حفص الحداد: "التصوف كله آداب لكل وقت أدب، ولكل حالة ادب، ولكل مقام ادب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول"

وحسن ادب الظاهر عنوان حسن ادب الباطن لأن النبي ﷺ قال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه".

ويقول الهجويري: فاعلم ان زينة وحلية جميع الأمور الدينية والدنيوية، متعلقة بالآداب، ولكل مقام من مقامات أصناف الخلق أدب. والكافر والمسلم، والموحد والملحد، والسني والمبتدع، متفقون على أن حسن الأدب في المعاملات طيب، ولا يثبت اي رسم في العالم بدون استعمال الأدب.

والأدب في الناس: حفظ المروءة، وفي الدين: حفظ السنة. وفي المحبة: حفظ الحرمة. وهذه الثلاثة مرتبطة ببعضها البعض، لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعاً للسنة، وكل من لا يحفظ السنة لا يرعى الحرمة.

وحفظ الأدب في المعاملة يحصل من تعظيم المطلوب في القلب، وتعظيم الحق وشعائره في التقوى، ومن يدنس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة، لا يكن له اي نصيب في طريق التصوف، ولا يمنع السكر، والغلبة الطالب من حفظ الآداب باي حال. لأن الأدب يكون لهم عادة، والعادة تكون قرين الطبيعة، وسقوط الطبائع عن الحيوان في اي حال محال ما دامت الحياة قائمة.

فطالما كانت اشخاصهم قائمة فإنهم في كل الأحوال، تجرى عليهم آداب المتابعة احياناً بالتكلف، واحياناً بدون تكلف.

فحين يكون حالهم الصحو. فإنهم يحفظون الآداب بالتكلف. وعندما يكون حالهم السكر. فإن الحق تعالى يحفظ الأدب عليهم وتارك الأدب لا يكون باية صفة ولياً لأن المودة عند الآداب، وحسن الآداب صفة الأحباب.

فالتصوف ادب واخلاق، في جميع الأوقات، وفي سائر الأحوال والمقامات. فمن لم يتحقق بآدابه وأخلاقه باء بالخسران.

يقول الجنيد: "الصوفي كالأرض، يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح".

ويقول أبو تراب النخشبي: "الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء".

فالتصوف باعتباره آداباً تراعى في كل لحظة وطرفة، وحركة وسكنة، تنعكس على نفس صاحبها. فتطبعها بطابعها الأخلاقي العام. بحيث يصبح صفاء في نفسه، وعالم صفاء فيمن يحيط به. إنه رحب الصدر، يسع الجميع برحابة صدره على اي أخلاق كانوا من البر أو الفجور. وهو معطاء من ذات نفسه. فهو لا يمنع بره وخيره ونوره من حوله. يشع هدىً وصلاحاً. وهو لا يبالي من نصيب بخيره من الناس أبرارا كانوا أم فجارا. لأن بره يُطغي ويغطي فيعمل في تحويل الناس عن غيهم وفجورهم.

ومن لم يستجب منهم فليس ذلك إليه. وإنما هو إليهم، وهذا متفق مع قول عائشة رضي الله عنها حين قيل لها: أخبرينا عن خلق النبي ﷺ ؟ فقالت: اقرأ من القرآن قول الله تعالى: : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩]

ومن هنا كان المتصوف لا يركن إلى حسن الخلق فحسب، بل إنه لا يقنع إلا بما هو أحسن.

ولعل كل هذه الأمور، توضح للباحثين والدارسين، مدى الجهد في السلوك، للتخلق بالأخلاق الطيبة. وقد سئل محمد بن علي القصاب أستاذ الجنيد، عن التصوف، ما هو؟ فقال: "أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام". أي أن التصوف من أهم أسسه العامة: التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي حث عليها الإسلام.

وأخيرا فالتصوف عبارة عن أخلاق، والأخلاق عنصر لا بد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية، حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف. فإذا خلا وقت من أوقات الصوفي، من هذا العنصر الأخلاقي كان ذلك ضعفاً في سلوكه، وخروجاً من مقتضى الطريق الصوفي الذي يلزمه.

وهذه الأخلاق ليست عملاً ظاهرا فحسب تتزين بالجوارح، وتتصور فيه الأعمال، ولكنه مسألة قلبية، تظهر آثارها على الجوارح والأعمال. وهذا سبب صعوبتها ومشقتها، والداعي لاستمرار اليقظة والجهد في معالجتها.

ويذكر العلماء: أن الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف، شائع في الشرق، وفي الغرب، وهو أيضاً شائع في الزمن القديم، وفي الزمن الحديث. ومع

ذلك، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيرا دقيقاً، على ان هؤلاء الذين ذكروا التعاريف الأخلاقية للتصوف، ذكروا هم انفسهم تعاريف أخرى.

وذلك -على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم: لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه.

على انه من الطبيعي: أن تكون الأخلاق الكريمة، اساساً من اسس التصوف، وأن تكون الأخلاق في اسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف. ومن الطبيعي ايضاً أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس والثمرة.

فالأخلاق إذن ملازمة للتصوف والصوفي، ملازمة تامة، لا تتخلى عنه، ولا يتخلى عنها. ولكنه ليس معنى ذلك أنها هي التصوف.

والباحث في التصوف ومعانيه يجد أن هناك اتجاه أكثر شيوعاً من تعريف التصوف بالأخلاق: وهو تعريف التصوف بالزهد. وحينما يسمع كثير من الناس كلمة التصوف يفهم منها معنى "الزهد" ولا يفهم من كلمة "صوفي" إلا الزاهد في الدنيا. ويعد الصوفي التعلق بالدنيا راس كل خطيئة، وترك الدنيا ينبوعاً لكل خير. والزهاد ثلاث طبقات.

الطبقة الأولى: المبتدئون. وهم اولئك الزهاد الذين قصرت يدهم عن الدنيا، وخلا قلبهم من طمع الدنيا مثل أيديهم. سئل الجنيد: ما الزهد؟ فقال: خلو اليد من ملك الدنيا، وخلو القلب من الطمع.

الطبقة الثانية: وهم المتحققون في الزهد الذين هم مصداق قول رويم بن احمد حيث يقول: "الزهد هو ترك حظوظ النفس من كل ما في الدنيا" ذلك لأن في الزهد لذة نفسية.

بمعنى ان الزهد يسبب راحة الخاطر، واستراحة الضمير. كما يجلب المدح، وإعجاب الناس بالنسبة للزاهد، ويجعله عزيزا محترماً في نظرهم. فالزهد الواقعي بحسب ما يراه رويم يتحقق عندما يترك القلب كل لذة.

الطبقة الثالثة: طبقة الزهاد الخواص. الذين رموا كل شيء وراءهم ظهرياً، قال ذو النون المصري: الزهاد ملوك الآخرة، والعرفاء هم ملوك الزهاد.

وقال ايضاً: آية حب الله. هي أن يترك العبد كل ما يشغله عنه تعالى حتى يبقى هو شغل الله فقط.

وقال سفيان الثوري: الزاهد هو الذي يحقق الزهد بفعله في الدنيا، والمتزهد من كان زهده بلسانه.

وقال أيضاً: ليس الزهد في الدنيا ارتداء الخرقة، وأكل خبز الشعير، ولكنه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل.

وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا، ولو كان عنده الآلاف والملايين. بيد أن الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شيء آخر، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً أن يكون التصوف هو الزهد.

ولخلط الناس بين الزهد، والعابد، والصوفي، حاول ابن سينا أن يفرق بينهم وبين أهداف كل منهم، يقول في كتابه: "الإشارات".

١- المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم "الزاهد".

٢- المواظب على فعل العبادات، من القيام والصيام ونحوهما. يخص باسم "العابد".

٣- المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت، مستديماً لشروق نور الحق في سره، يخص باسم "العارف".

والعارف عند ابن سينا هو الصوفي. ويتحدث ابن سينا - كما يذكر غيره- أن الزاهد قد يكون عابداً، والعابد قد يكون زاهداً، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد، ولا يكون بعبادته وزهده معاً، صوفياً، ولكن الصوفي لا محالة "زاهد عابد".

وهناك تعريفات كثيرة جاءت عن علماء الصوفية، يحسن أن نذكر بعضاً منها.

قال أبو سعيد الخراز المتوفي سنة ٢٦٨هـ "الصوفي من صفى ربه قلبه، فامتلأ قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله".

وقال الجنيد البغدادي المتوفي سنة ٢٩٧هـ: "التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به"..

وقال أبو بكر الكتاني المتوفي سنة ٣٢٢ هـ: "التصوف صفاء ومشاهدة".

وقال جعفر الخلدي المتوفي سنة ٣٤٨هـ: "التصوف طرح النفس في العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية".

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، يجدها الباحث منثورة في كتب التصوف.. وهي على كثرتها تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية.

والباحث في تعريفات التصوف الإسلامي يجد أنها تقوم على ما يلي:

١- تعريفات تتحدث عن البداية، ويقصد بها ما تحس النفس بفطرتها إلى أن هناك حقيقة تتوق إليها الروح، وتطلب السير إليها غير أن هذا لا يتأتى إلا لمن أوتي حظاً كبيراً من العزم وصدق التوبة.

٢- وهناك تعريفات تتحدث عن المجاهدات، ويقصد بها الجانب العملي في المجاهدة المرتبطة بالشريعة.

٣- وهناك تعريفات تتحدث عن المذاقات، ويقصد بها ثمرة المجاهدات المرجوة. إلا أن جميع التعريفات التي تتصل بالأخلاق والمقامات والأحوال تعتبر جماع التربية الخلقية الصوفية.

وذلك لأن إصلاح الباطن عند الصوفية يتوقف على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: معرفة النفس ونوازعها ورغباتها.

الأمر الثاني: تطهير القلب، وتصفية الروح من الرذائل، وذلك عن طريق المجاهدات.

الأمر الثالث: التحلي بالفضائل والمكارم الخلقية، ومن شأن هذه الأخلاق والمقامات، أن تجعل من الصوفي إنساناً مشغول القلب بالله، مطيلاً للجلوس بين يديه، متنعماً بعز الطاعة له، شاعراً بالثقة والأمن واليقين في رحابه.

والأخلاق عند الصوفية، تصفية النفس، وتجملها بكل المكارم والفضائل الخلقية، وتزكيتها، بحيث تصبح النفس في جميع تصرفاتها، وفقاً لمراد الله تعالى.

من هنا كان كتاب "عوارف المعارف" زاخراً بالمعارف التي ترشد إلى كل ما يفيد فمن لم يقرأ كتاب عوارف المعارف للسهروردى فقد جهل كثيراً من علم التصوف وأحوال أهل الطريق..

نسأل الله أن ينفع به.

الأستاذ الدكتور	المستشار
أحمد عبد الرحيم السايح	توفيق على وهبه

مقدمة المؤلف

الحمد لله العظيم شأنه ، القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه ، الباهر حجته وبرهانه، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال، والمتردى بالعظمة فى الآباد والآزال، لا يصوره وهم وخيال، ولا يحصره حد ومثال، ذى العز الدائم السرمدى، والملك القائم اليدمومى، والقدرة الممتنع إدراك كنهها، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها،

نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع، ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان، والزم فصيحات الالسن وصف الحصر فى حلبة البيان، واحرقت سبحات وجهه الكريم اجنحة طائر الفهم، وسدت تعززا وجلالا مسالك الوهم، واطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا، ولم يجد من فرط الهيبة فى فضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر كليلا، والعقل عليلا، ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلا.

فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه، وتعذر على العقول تحديده وتكييفه، ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة، ومرائى قلوبهم بنور القدس مجلوة.

فتهيأت لقبول الإمداد القدسية، واستعدت لورود الأنوار العلوية، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جلاسا، واقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراسا، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها، وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها، وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت، وامتدت إلى المعالى أعناقها، وطمحت إلى اللامع العلوى احداقها، واتخذت من الملأ الأعلى مسامرا ومحاورا، ومن النور الأغر الأقصى مزاورا ومجاورا.

أجساد أرضية بقلوب سماوية، وأشباح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة، مذاهبهم فى العبودية مشهورة، واعلامهم فى أقطار الأرض منشورة، يقول الجاهل بهم فقدوا وما فقدوا، ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا، وعلا مقامهم فلم يملكوا، كائنين بالجثمان، بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان، لأرواحهم حول العرش تطواف، ولقلوبهم من خزائن البر اسعاف، يتنعمون بالخدمة فى الدياجر، ويتلذذون من وهج الطلب بظما الهواجر.

تسلوا بالصلوات عن الشهوات، وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجان، وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان.

لا يزال فى كل عصر منهم علماء، بالحق دعاة للخلق، منحوا بحسن المتابعة رتبة الدعوة، وعلوا للمتقين قدوة، فلا يزال تظهر فى الخلق آثارهم، وتزهر فى الآفاق أنوارهم.

من اقتدى بهم اهتدى، ومن أنكرهم ضل واعتدى.

فلله الحمد على ما هيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد، والصلاة على نبيه ورسوله محمد، وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد.

ثم إن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ، ومحبتى لهم علما بشرف حالهم، وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة، المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة، حدانى أن أذب عن هذه العصابة بهذه الصبابة، وأؤلف أبوابا فى الحقائق والآداب، معرفة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم، وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقيعة فيهم وطعن، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم.

ومما حضرنى فيه من النية، أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم، والإشارة إلى أحوالهم، وقد ورد "من كثر سواد قوم فهو منهم" وأرجو من الله الكريم صحة النية فيه، وتخليصها من شوائب النفس.

وكل ما فتح الله تعالى على فيه ، منح من الله الكريم وعوارف، وأجل المنح عوارف المعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا . والله المعين .

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى، مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم، وآدابهم وأخلاقهم، وغرائب مواجيدهم، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم، ودقيق إشاراتهم، ولطيف إصطلاحاتهم.

فعلومهم كلها أنباء عن وجدان، واعتزاء إلى عرفان، وذوق تحقق بصدق الحال، ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال، لأنها مواهب ربانية، ومناهج حقانية، استنزلها صفاء السرائر، وخلوص الضمائر، فاستعصت بكنهها على الإشارة، وطفحت على العبارة، وتهادتها الأرواح بدلالة التسام والائتلاف، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم.

وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطة منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

بدا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحي التابعين، فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين، والعارفين بحقائق علوم الدين.

والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول، والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول
فى ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردى إملاء من لفظه فى شوال سنة ستين وخمسمائة، قال انبانا الشريف نور الهدى ابو طالب الحسين بن محمد الزينبى، قال اخبرتنا كريمة بنت احمد بن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى، قالت أخبرنا ابو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى، قال أنبأنا ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى، قال أخبرنا ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، قال حدثنا ابو كريب، قال حدثنا ابو أسامة عن بريد عن ابى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل اتى قوماً فقال يا قومى إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق".

وقال ﷺ : "مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به".

قال الشيخ : أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أصفى القلوب وأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا مثل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى، ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ .

ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذات، أى الغدران جمع اخاذة، وهو المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء. فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت، وقلوبهم صفت فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات.

قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات، لأن قلوبهم كانت واعية، فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم.

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى، قال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى، قال أنبأنا أبو إسحاق بن محمد، قال حدثنا أبى، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى، قال: حدثنا على بن على، قال: حدثنا أو حمزة الثمالى، قال: حدثنى عبد الله بن الحسن، قال: حين نزلت هذه الآية: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [1] قال رسول الله ﷺ لعلي: «سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي»، قال علي: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لى أن أنسى.

قال أبو بكر الواسطى : آذان وعت عن الله تعالى أسراره.

وقال أيضاً : واعية فى معادنها ، ليس فيها غير ما شهدته شيء، فهى الخالية عما سواه، فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل.

فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا

---

(١) سورة الحاقة، الآية ١٢.

شواغل الدنيا بتحقيق الزهد، انفتحت مسام بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا. فعلماء التفسير، وأئمة الحديث، وفقهاء الإسلام، أحاطوا علماً بالكتاب والسنة، واستنبطوا منها الأحكام، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص، وحمى الله بهم الدين.

وعرف علماء التفسير وجه التفسير، وعلم التأويل، ومذاهب العرب فى اللغة، وغرائب النحو والتصريف، وأصول القصص، واختلاف وجوه القراءة، وصنفوا فى ذلك الكتب، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة.

وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل، ليتبين الصحيح من السقيم، ويتميز المعوج من المستقيم، فيتحفظ بطريقتهم طريق الرواية والسند حفظاً للسنة.

وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام، والتفريع فى المسائل، ومعرفة التعليل، ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص.

وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، وعلم الخلاف، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل. وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين، وكان من علمهم علم الفرائض، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة، إلى غير ذلك، فتمهدت الشريعة، وتأيدت ، واستقام الدين الحنيفى، وتفرع وتأصل الهدى النبوى المصطفوى، فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ والعشب، بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم.

قال الله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[1].

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأودية القلوب .

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

قال أبو بكر الواسطى ﷺ : خلق الله تعالى درة صافية، فلاحظها بعين الجلال، فذابت حياء منه، فسالت، فقال (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها.

وقال ابن عطاء: (أنزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد، وذلك إذا سال السيل فى الأودية، لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه، لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة (انزل من السماء ماء) يعنى قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعنى فى القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها فى الأزل: (فأما الزبد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) تذهب البواطل وتبقى الحقائق.

وقال بعضهم: (انزل من السماء ماء) أنواع الكرامات، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث، والفقه بقدرها، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا، المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها. فمن كان فى باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه ، وطلب المناصب والرفعة، سال وادى قلبه بقدره، فأخذ من العلم طرفاً صالحاً ولم يحط بحقائق العلوم، ومن زهد فى الدنيا اتسع وادى قلبه، فسالت فيه مياه العلوم، واجتمعت وصارت أخاذات.

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء، فقال : وهل رايت فقيهاً قط، إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا.

فالصوفية أخذوا حظاً من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوارثة، فهم مع سائر العلماء فى علومهم، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة، هى علوم الوراثة، وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ...﴾(١).

فصار الإنذار مستفادا من الفقه، والإنذار إحياء المنذر بماء العلم، والإحياء بالعلم رتبة الفقه في الدين، فصار الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها، وهو علم العالم الزاهد في الدنيا، المتقي، الذي يبلغ رتبة الإنذار بعلمه.

فمورد العلم والهدى رسول الله ﷺ أولاً، ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى، فارتوى بذلك ظاهرا وباطنا، فظهر من ارتواء ظاهره الدين، والدين هو الانقياد والخضوع، مشتق من الدون، فكل شيء اتضع فهو دون، فالدين أن يضع الإنسان نفسه لربه.

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾(٢).

فبالتفرق في الدين يستولى الذبول على الجوارح، وتذهب عنها نضارة العلم، والنضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد في النفس والمال، مستفاد من ارتواء القلب، والقلب في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر، فصار قلب رسول الله ﷺ بالعلم والهدي بحرا مواجاً، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها، ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة، فلما استتمت نضارة وامتلأت رياً بعثه الله تعالى إلى الخلق، فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم، واستقبل

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.
(٢) سورة الشورى، الآية ١٣.

جداول الفهوم، وجرى من بحره في كل جدول قسط ونصيب، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه».

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء، قال حدثنا سعيد بن حفص، قال حدثنا أبو طالب الزيني، قال أخبرتنا ريمة بنت أحمد بن محمد المروزية، قالت أخبرنا أبو الهيثم، قال أخبرنا الفربري، قال أخبرنا البخاري، قال حدثنا ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: سمعت معاوية خطيباً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي».

قال الشيخ: إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب، فأبصر الحق والباطل، وتبين له الرشد من الغي.

ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابي «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»، قال الأعرابي: حسبي حسبي، فقال رسول الله ﷺ: «فقه الرجل».

وروى عبد الله بن عباس: أفضل العبادة الفقه في الدين.

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب، فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ ﴾[1] فلما فقهوا علموا، ولما علموا عملوا، ولما عملوا عرفوا، ولما عرفوا اهتدوا، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة، وأكثر انقياداً لمعالم الدين، وأوفر حظاً من نور اليقين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب، والمعرفة تميز تلك الجملة، والهدى وجدان القلوب ذلك، فالنبي ﷺ لما قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم» أخبر أن وجد القلب النبوي العلم، وكان هادياً مهدياً، وعلمه صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبي البشر ﷺ حيث علم الأسماء كلها، والأسماء سمة الأشياء، فكرمه الله تعالى بالعلم.

وقال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1].

فآدم لما ركب من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة، والرأفة واللطف، والحب والبغض، والفرح والغم، والرضا والغضب، والكياسة. ثم اقتضاه استعمال كل ذلك، وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذي وهب له.

فالنبي ﷺ بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة.

وقيل: لما خاطب الله السموات والأرض بقوله: «أتينا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة، ومن السماء ما يحاذيها.

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة.

فقال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد ﷺ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض، فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين، والكائنات تبع له. وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[2]، وفي رواية «بين الروح والجسد» وقيل لذلك سمي أمياً، لأن مكة أم القرى، وذرته أم الخليقة وتربة الشخص مدفنه، فكان يقتضي أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها، ولكن قيل الماء لما تموج رمى

---

(١) سورة العلق، الآية ٥.

(٢) أي قدر الله نبوته كما قدر الأشياء كلها.

الزبد إلى النواحي فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، وكان رسول الله ﷺ مكيا مدنيا، حنينه إلى مكة، وتربته بالمدينة[١].

والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله ﷺ هو ما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾[٢] ورد في الحديث أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر، استخرج الذر من مسام شعر آدم، فخرج الذر كخروج العرق.

وقيل: كان المسح من بعض الملائكة، فأضاف الفعل إلى المسبب.

وقيل: معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة، وكان ذلك ببطن نعمان، واد بجنب عرفة بين مكة والطائف. فلما خاطب الذر وأجابوا ببلى كتب العهد في ورق أبيض، واشهد عليه الملائكة، والقم الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله ﷺ هي المحببة من الأرض، والعلم والهدى فيه معجونان، فبعث بالعلم والهدى موروثا له وموهوبا[٣].

---

(١) هنا تعسف في التاويل لا مبرر له فلم يخلق من الطين، إلا آدم عليه السلام فالخلق على أربعة اصناف:

أ- من الطين لقوله جل وعز: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ [سورة السجدة آية: ٧] وهو آدم عليه السلام.

ب - من أب بدون أم وهي حواء خلقت من آدم عليها السلام لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [سورة النساء آية: ١].

جـ - من أم بلا أب وهو المسيح عليه السلام لقوله جل وعلا: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [سورة التحريم آية: ١٢]. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٤٥]

د- من رجل وامراة وهم سائر البشر ومنهم الأنبياء لقوله جل وعز: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [سورة النساء آية: ١] أي من آدم وحواء ثم من جاءوا بعدهم وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٣) علم الرسول ﷺ من الله سبحانه وتعالى إما بطريق الوحي أو الإلهام.

وقيل: لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت، حتى بعث الله تعالى عزرائيل، فقبض قبضة من الأرض، وكان ابليس قد وطئ الأرض بقدميه، فصار بعض الأرض بين قدميه، وبعض الأرض بين موضع أقدامه، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس، فصارت مأوى الشر[1]، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء.

وكانت ذرة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل، لم يمسها قدم إبليس، فلم يصبه حظ الجهل، بل صار منزوع الجهل، موفرا حظه من العلم، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم، وانتقل من قلبه إلى القلوب، ومن نفسه إلى النفوس، فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة، ووقع التأليف بالتعارف الأول.

فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة، كان أوفر حظا من قبول ما جاء به، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة، فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات، فعلموا وعملوا، كالأخاذ الذي يسقى منه ويزرع منه، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكامَ أساس التقوى.

ولما تزكت النفوس، أنجلت مرايا قلوبهم، بما صقلها من التقوى، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها. فلما زهدوا في الدنيا، انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة.

---

(١) هذه أمور غيبية لم يشهدها أحد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [سورة الكهف آية: ٥١]. فليس هناك دليل بسند مثل هذه الحكايات. وما ذنب الإنسان الذى خلقه الله مما مس قدم الشيطان حتى تكون نفسه مأوى للشر.

واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية في هذا الكتاب، هو حال المقرب، والصوفي هو المقرب، وليس في القرآن اسم الصوفي، واسم الصوفي ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك في بابه.

ولا يعرف في طرفي بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هذا الاسم لأهل القرب، وإنما يعرف للمترسمين وكم من الرجال المقربين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر لا يسمون صوفية، لأنهم لا يتزيون بزي الصوفية، ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نعني بالصوفية المقربين.

فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طريق المقربين، وعلومهم علوم أحوال المقربين، ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار هو متصوف ما لم يتحقق بحالهم، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً، ومن عداهما ممن تميز بزي ونسب إليهم فهو متشبه، وفوق كل ذي علم عليم.

الباب الثاني
في تخصص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجي ب السهروردي إملاء، قال انا ابو منصور المقرى، قال انا الإمام الحافظ ابو بكر الخطيب، قال انا ابو عمرو الهاشمي، قال انا ابو على اللؤلؤى، قال انا ابو داود السجستاني، قال حدثنا مسدد، قال حدثنا يحيى، عن شعبه، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب، عن عبد الرحمن بن ابان، عن ابيه، عن زيد بن ثابت، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر امرا سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرُب حامل فقه إلى من هو افقه منه، ورُب حامل فقه وليس بفقيه».

اساس كل خير حسن الاستماع.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ... ﴾[1].

يقول بعضهم: علامة الخير في السماع ان يسمع العبد بغناء اوصافه ونعوته ويسمعه بحق من حق.

وقال بعضهم: لو علمهم اهلاً للسماع لفتح آذانهم للاستماع. فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع.

فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم، راوا كل آية من كلامه تعالى بحرا من ابحر العلم، بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه، وجليه وخفيه، وباباً من ابواب الجنة، باعتبار ما تنبه أو تدعو إليه من العمل.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٣.

وراوا كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق به عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، من عند الله تعالى، يتعين الاستماع إليه، فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع، وراوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت.

وراوا أن الوساوس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء، وقتام يتراكم من نفث الشيطان، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى، بمثابة الحطب الذي تزداد النار به تأججاً، ويزداد القلب به تحرجاً، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها.

فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها، وفترت نيرانها، وقل دخانها، شهدت بواطنهم وقلوبهم ومصادر العلوم، فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم، فلما شهدوا سمعوا. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1].

قال الشبلي رحمه الله: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين.

قال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان:

قلب قد احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا.

وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة، حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة.

فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة، وشؤم هذه الأشغال الفانية التي أقعدتك عن الطاعة.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض.

---

(١) سورة ق، الآية ٣٧.

قال الحسين بن منصور:[1] لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب وأنشد:

انعى إليك قلوباً طالما هطلت سحائب الوحي فيها ابحر الحكم

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له وانقطع له عما سواه.

وقال الواسطي: اي لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس، لمن كان له قلب اي في الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ... ﴾[2].

وقال ايضاً: المشاهدة تذهل، والحجبة تفهم، لأن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له وخشع.

وهذا الذي قاله الواسطي صحيح في حق اقوام. وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين، وهم ارباب التمكين، يجمع لهم بين المشاهدة والفهم. فموضع الفهم محل المحادثة والمكالمة، وهو سمع القلب، وموضوع المشاهدة بصر القلب. وللسمع حكة وفائدة، وللبصر حكمة وفائدة. فمن هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره، ومن هو في حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه في بصره، لتملكه ناصية الحال، ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد المقال، لأن الفهم لفهم مورد الإلهام والسماع.

والإلهام والسماع يستدعيان وعاء وجودياً، وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانياً للتمكن في مقام الصحو، وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقار البقاء.

---

(١) الحلاج.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

وقال ابن سمعون: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وآدب القلب، وهي ثلاثة أشياء:

فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة، فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب.

ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثي الأدب.

والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلاً، فقد وجد كل الأدب.

وقال محمد بن علي الباقر: موت القلب من شهوات النفس، فكلما رفض شهوة نال من الحياة بقسطها، فالسماع للأحياء لا للأموات. قال الله تعالى: : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ... ﴾[1].

قال سهل بن عبد الله: القلب رقيق تؤثر فيه الخطوات المذمومة، وأثر القليل عليه كثير. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[2]، فالقلب عمال لا يفتر، والنفس يقظانه لا ترقد، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس.

فكل شيء سد باب الاستماع فمن حركة النفس، وفي حركتها يطرق الشيطان. وقد ورد: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات.

وقال الخسين: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع.

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٠.

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٦.

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال، فزع وارتعد، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى، والتفريد له، حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس، فلا يشتغل بغيره، ولا يركن إلى سواه، فقلب الصوفي مجرد عن الاكوان، ألقى سمعه، وشهد بصره.

فسمع المسموعات، وابصر المبصرات، وشاهد المشهودات، لتخلصه إلى الله تعالى، واجتماعه بين يدي الله. والأشياء كلها عند الله، وهو عنده، فسمع وشاهد، فأبصر وسمع جملها، ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود. والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل.

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال: إن الباذر خرج ببذره فملأ منه كفة، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه، ووقع منه شيء على الصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يسير وندى قليل فنبت، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم تجد مساغاً تتنفذ فيه فيبس.

وقع منه شيء في ارض طيبة فيها شوك فنبت، فلما ارتفع خنقه الشوك فافسده واختلط به، ووقع منه شيء على ارض طيبه ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح.

فمثل الباذر مثل الحكيم، ومثل البذر كمثل صوب الكلام، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه.

ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه.

ومثل الذي وقع في أرض طيبه فيها شوك، مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل، فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة، كالزرع يختنق بالشوك.

ومثل الذي وقع في أرض طيبه مثل المستمع الذي ينوي عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه.

وهذا الذي جانب الهوى انتهج سبيل الهدى هو الصوفي، لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه، واستلذاذ الهوى هو الذي يخنق النبت كالشوك، وقلب الصوفي نازله حلاوة الحب الصافي، والحب الصافي تعلق الروح بالحضرة الإلهية، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس.

وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لكونها لا ترتقي عن حد النفس، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لأنها متأصلة في الروح، فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة في أرض النفس، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ يتشربها بالروح والقلب والنفس، ويفديها بكليته ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه	أظن الماء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله، وتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقولون:

إن تأملتكم فكلي عيون	أو تذكرتكم فكلي قلوب

قـال الله تعـالى: ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١].

قال بعضهم: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، والجزء الذي في سائر المؤمنين احد وعشرون سهما، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه، وهو شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم.

قيل: في هذه الآية فضيلة رسول الله ﷺ، اي الأحسن ما يأتي به، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين، ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال كلها، وكان معه احسن الخطاب، وله السبق في جميع المقامات. الا تراه ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون» يعني الآخرون وجودا، السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾[٢].

قال الجنيد: تنسموا روح ما دعاهم إليه، فأسرعوا إلى محو العلائق الشغلة، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر، وتجرعوا مرارة المكابدة، وصدقوا الله في المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصائب، وعرفوا قدر ما يطلبون، وسجنوا هممهم عن التفلت إلى مذكور سوى وليهم، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: حيا بما تصفيها عن كل معلول لفظا وفعلا.

---

(١) سورة الزمر، الآيات ١٧ - ١٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

وقال بعضهم: استجيبوا لله بسرائركم، وللرسول بظواهركم، فحياة النفوس بمتابعة الرسول ﷺ، وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه: أولها إجابة التوحيد، والثاني إجابة التحقيق، والثالث إجابة التسليم، والرابع إجابة التقريب. فالاستجابة على قدر السماع، والسماع من حيث التفهم، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم، ووجوه الفهم لا تنحصر، لأن وجوه الكلام لا تنحصر.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[1] فالله تعالى في كل كلمة من القرآن كلماته التي ينفد دون نفاذها، فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد، وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلي.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي، قال: أنبأنا الرئيس أبو علي بن نبهان، قال: أنا الحسن بن شاذان، قال: أنا دعلج بن أحمد، قال: أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوي، قال: أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام، قال: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»، فقال: فقلت يا أبا سعيد ما المطلع؟ قال: يطلع قوم يعملون به. قال أبو عبيد: أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله ابن مسعود، قال أبو عبيد، حدثنى حجاج، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، قال: ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أو لها قوم سيعملون بها. فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه، فيكون المطلع الفهم يفتح الله تعالى على كل قلب بما يرزق من النور.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

واختلف الناس في معنى الظهر والبطن.

قال قوم: الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله.

وقيل: الظهر صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم، فظاهر ذلك إخبار عنهم، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الامة.

وقيل: ظاهره تنزيله الذي يجب الإيمان به، وباطنه وجوب العمل به.

وقيل: ظهره تلاوته كما انزل. قال الله تعالى: ﴿ ...وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾[1].

وبطنه التدبر والتفكير فيه. قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقيل: قوله لكل حرف حد، اي في التلاوة لا يجاوز المصحف الذي هو الإمام، وفي التفسير لا يجاوز المسموع المنقول.

وفرق بين التفسير والتأويل. فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التي نزلت فيها، وهذا محظور على الناس كافة القول إلا بالسماع والأثر. وأما التأويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة. فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى.

قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة.

فما أعجب قول عبد الله بن مسعود: ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها.

---

(١) سورة المزمل: الآية ٤.

(٢) سورة ص: الآية ٢٩.

وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصفي موارد الكلام، وبفهم دقيق معانيه وغامض اسراره من قلبه.

فللصوفي بكمال الزهد في الدنيا، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى، مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب. فمن العلم علم، ومن العلم عمل، والعلم والعمل يتناوبان فيه.

وهذا العمل آنفاً إنما هو عمل القلوب، وعمل القلوب غير عمل القالب، وأعمال القلوب للطفها وصداقتها مشاكلة للعلوم، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية، وتأدبات قلبية، ومسامرات سرية.

وكلما اتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم، واطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد. ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية، ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها، لأنها مستودع وصف من أوصافه، ونعت من نعوته، فيتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها، ويصير له مراء منبئة عن عظيم الجلال.

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضي الله عنه انه قال: لقد يجلي الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون، فيكون كل آية مطلع من هذا الوجه، فالحد حد الكلام، والمطلع الترقي عن حد الكلام إلى شهود المتكلم.

وقد نقل عن جعفر الصادق ايضاً انه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها.

فالصوفي لما لاح له نور ناصية التوحيد، والقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صار بين يدي الله حاضراً شهيداً يرى لسانه او لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام

حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأني أنا الله. فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله، صار سمعه بصره، وبصره سمعه، وعلمه عمله، وعمله علمه، وعاد آخره أوله، وأوله آخره. ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الذر بقوله.

ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجاة من عذاب الآخرة أن يكون في ذلك كله متادباً بآداب حسن الاستماع، لأنه نوع من ذلك.

وكما أن القلب استعد بحسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه فيكون آخذا بالمطالعة من كل شيء أحسنه.

ومن الأدب في المطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل فتستروح بالمطالعة كما تتراوح بمجالسة الناس ومكالمتهم.

فليتفقد المتفطن نفسه في ذلك، ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته، ويراعي الإفراط فيه، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر عليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسناً، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله، زيادة على ما يتبين من صورة العلم، فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم.

والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾[1] أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

فإن كان المسمع هو الله تعالى يسمع تارة بواسطة اللسان، وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع، ليتفقد العبد حاله في ذلك، ويتعلم علمه وادبه، فإنه باب كبير من أبواب الخير، وعمله صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة.



(١) سورة فاطر، الآية ٣٢.

الباب الثالث
في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة
إلى أنموذج منها

حدثنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردي رحمه الله، قال انبانا ابو عبد الرحمن الصوفي، قال: أنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أنا ابو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، قال: انا ابو عمران السمرقندي، قال: أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم، عن ابيه قال: سال رجل النبي ﷺ عن الشر فقال: «لا تسالوني عن الشر وسلوني عن الخير، يقولها ثلاثاً، ثم قال: إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء».

فالعلماء أدلاء الأمة، وعمد الدين، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية، ونقباء ديوان الإسلام، ومعادن حكم الكتاب والسنة، وأمناء الله تعالى في خلقه وأطباء العباد، وجهابذة الملة الحنفية، وحملة عظيم الأمانة. فهم أحق الخلق بحقائق التقوى، وأحوج العباد إلى الزهد في الدنيا، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم، ففسادهم فساد متعمد، وصلاحهم صلاح متعد.

قال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم، وأعلم الناس من علم بما يعلم، وافضل الناس أخشعهم لله تعالى.

وهذا قول صحيح، يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعمله فليس بعالم، فلا يغرك تشدقه واستطالته، وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل وليس بعالم، إلا ان يتوب الله عليه ببركة العلم، فإن العلم في الإسلام لا يضيع اهله، ويرجى عود العالم ببركة العلم.

والعلم فريضة وفضيلة، فالفريضة ما لا بد للإنسان من معرفته، ليقوم بواجب حق الدين. والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه

فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة. وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة، وما هو مستفاد منهما، أو معين على فهمهما، أو مستند إليهما كائناً ما كان، فهو رذيلة وليس بفضيلة، يزداد الإنسان به هواناً ورذيلة في الدنيا والآخرة.

فالعلم الذي هو فريضة لا يسع الإنسان جهله، على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب، قال: أنا الحافظ أبو القاسم المستملي، قال: أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، قال: أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهاني، قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي، قال: حدثنا جعفر بن عامر العسكري، قال: حدثنا الحسن بن عطية، قال: حدثنا أبو عاتكة، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة.

قال بعضهم: هو طلب علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال، لأن الإخلاص مأمور به، كما أن العمل مأمور به. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ ...﴾[1] .

فالإخلاص مأمور به. وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مباني الإخلاص المأمور به، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً.

وقال بعضهم: معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة، لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، فلا يصح الفعل إلا بصحتها، فصار علم ذلك فرضاً حتى يصح الفعل من العبد لله.

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

وقال بعضهم: هو طلب علم الوقت.

وقال سهل بن عبد الله: هو طلب علم الحال، يعني حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته.

وقيل: هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة. وقد ورد طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة.

وقيل: هو طلب علم الباطن، وهو ما يزداد به العبد يقيناً. وهذا العلم هو الذي يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين، والزهاد المقربين، الذين جعلهم الله تعالى من جنوده، يسوق الطالبين إليهم، ويقويهم بطريقتهم، ويرشدهم بهم، فهم وارث علم النبي عليه السلام، ومنهم يتعلم علم اليقين.

وقال بعضهم: هو علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه.

وقال بعضهم: هو أن يكون العبد يريد عملاً يجهل ما لله عليه في ذلك، فلا يجوز له أن يعمل برأيه، إذ هو جاهل فيما له وعليه في ذلك، فيراجع عالماً يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل.

وقال بعضهم: طلب علم التوحيد فرض، فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال، ومن قائل يقول إن طريقه النقل.

وقال بعضهم: إن كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد في الإسلام، ولا يحيك في صدره شيء فهم سالم، فإن حاك في صدره شيء أو توسوس بشيء يقدح في العقيدة، أو ابتلي بشبهة لا تؤمن غائلتها أن

تجره إلى بدعة أو ضلالة، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه، ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله: هو علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، لأنها افترضت على المسلمين، وإذا كان عملها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً. وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك، لأن أولها الشهادتان، والإخلاص داخل في ذلك، لأن ذلك من ضرورة الإسلام. وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام.

وحيث أخبر رسول الله ﷺ: أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسع مسلماً جهله، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله لأنه قد لا يعلم علم الخواطر، وعلم الحال، وعلم الحلال بجميع وجوهه، وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء. ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله.

وميلي في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر، وإلى قول من قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه. وهذا لعمري فرض على المسلم علمه، وهكذا الذي قاله الشيخ أبو طالب. وعندي في ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض، والله أعلم، فأقول:

العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم، علم الأمر والنهي، والمأمور ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه، والمنهي ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه. والمأمورات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهي عنه عند وجود الحادثة.

فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام، وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهي فيه فعلمه عند

تجدده فرض، لا يسع مسلما على الإطلاق أن يجهله. وهذا الحد أعم من الوجوه التي سبقت والله أعلم.

ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمروا عن ساق الجد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهي، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى. فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله ﷺ حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾[1] فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها.

قال بعضهم: من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة، بالتثبيت ببرهان عظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ ﴾[2] ثم حفظ في وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب، والمخاطب على بساط الأنس محمد ﷺ، وبعد ذلك خوطب بقوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾ ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التي أمر بها.

قيل لأبي حفص: أي الأعمال أفضل؟

قال: الاستقامة، لأن النبي ﷺ يقول: «استقيموا ولن تحصوا».

وقال جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾ أي افتقر إلى الله بصحة العزم.

ورأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ في المنام قال: قلت يا رسول الله روي عنك أنك قلت شيبتني سورة هود وأخواتها، فقال نعم، قال: فقلت له: ما الذي شيبك منها، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال لا، ولكن قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢.

(٢) سورة الأسراء، الآية ٧٤.

فكما أن النبي ﷺ بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب، وطولب بحقائق الاستقامة، فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون، منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب، ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة، ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك.

ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهماً لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه، فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً. الحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى. وقد يكون بعض عباده يكاشف بصرف اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب.

ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقيناً، فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه، وتقتضي الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته، فكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدره، فإن فيه آفة وهو العجب، فأغنى عن رؤية شيء من ذلك.

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة. ثم إذا وقع في طريقة شيء من ذلك جاز وحسن، وإن لم يقع فلا يبالى ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة. فليعلم هذا لأنه اصل كبير للطالبين.

فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة، رزقوا سائر العلوم التي اشار إليها المتقدمون كما ذكرنا، وزعموا انها فرض، فمن ذلك علم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر.

وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها.

وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم، وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية اقومهم بمعرفة النفس، وعلم معرفة اقسام الدنيا، ووجود دقائق الهوى، وخفايا شهوات النفس وشرهها وشرها، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولاً وفعلاً، ولبساً وخلعاً، وأكلاً ونوماً.

ومعرفة حقائق التوبة، وعلم خفي الذنوب، ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار، ومطالبة النفس بترك ما لا يعني، ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية، ثم بحصر خواطر الفضول، ثم علم المراقبة، وعلم ما يقدح في المراقبة، وعلم المحاسبة والرعاية، وعلم حقائق التوكل، وذنوب المتوكل في توكله، وما يقدح في التوكل وما لا يقدح، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان.

وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا، وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته وما لا يقدح في حقيقته، ومعرفة الزهد في الزهد، ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الزهد، وعلم الإنابة والالتجاء، ومعرفة اوقات الدعاء،

ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء، وعلم المحبة، والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة.

وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة، كما أنكروا الرضا. وقالوا: ليس إلا الصبر وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات، والفرق بين محبة القلب، ومحبة الروح، ومحبة العقل ومحبة النفس، والفرق بين مقام المحب والمحبوب، والمريد والمراد، ثم علوم المشاهدات، كعلم الهيبة والأنس، والقبض والبسط، والفرق بين القبض والهم والبسط والنشاط، وعلم الفناء والبقاء، وتفاوت أحوال الفناء، والاستتار والتجلي، والجمع والفرق، واللوامع والطوالع، والبوادي والصحو والسكر، إلى غير ذلك، لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها في مجلدات، ولكن العمر قصير، والوقت عزيز، ولولا سهم الغفلة، لضاق الوقت عن هذا القدر أيضاً.

وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لا حجة علينا. وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون، وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون، وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف، فمن ذاقه عرفه.

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى، وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس، فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة، حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف، وسهر الليل، والصبر على الغربة والأسفار، وتعذر الملاذ والشهوات.

وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى. قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] جعل العلم ميراث التقوى.

وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك. فعلم فضل علم علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب، وأولوا الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا.

قال بعض الفقهاء: إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف إلى الزهاد، لأنهم أعقل الخلق.

قال سهل بن عبد الله التسترى: للعلم ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، واول كل اسم منه ترك الدنيا.

حدثنا الشيخ الصالح ابو الفتح محمد بن عبد الباقي، قال: انا ابو الفضل أحمد بن أحمد، قال انا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، قال حدثنا محمد بن أحمد بن محمد، قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشي، قال حدثنا ابو عقيل الوصافي، قال انا عبد الله الخواص، وكان من أصحاب حاتم، قال: دخلت مع ابي عبد الرحمن حاتم الأصم الرى ومعه ثلثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج، وعليهم الصوف والزرمانقات، ليس معهم جراب ولا طعام.

فدخلنا الرى على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين، فاضافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم: يا أبا عبد الرحمن آلك حاجة فإني أريد ان أعود فقيهاً لنا هو عليل؟ فقال حاتم: إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، فأنا أيضاً أجئ معك. وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الرى، فقال: سر بنا يا أبا عبد الرحمن.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

فجاءوا إلى الباب فإذا باب مشرف حسن، فبقي حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذا الحال؟ ثم أذن لهم فدخلوا، فإذا دار قوراء، وإذ بزة ومنعة وستور وجمع، فبقي حاتم متفكرا، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه، فإذا بفرش وطيئة، وإذا هو راقد عليها، وعند رأسه غلام وبيده مذبة.

فقعد الرازى يسائله وحاتم قائم، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد، فقال لا أقد، فقال له ابن مقاتل، لعل لك حاجه ؟ قال : نعم ، قال : وما هى؟ قال : مسالة أسالك عنها، قال : سلنى، قال: فقم فاستو جالساً حتى أسالكها، فأمر غلمانه فأسندوه، فقال له حاتم: علمك هذا من أين جئت به؟ قال: الثقات حدثوني به، قال: عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال : وأصحاب رسول الله ﷺ عمن ؟ قال : عن رسول الله ﷺ. قال : رسول الله من أين جاء به ؟ قال: عن جبرائيل.

قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عن الله ، وأداه إلى رسول الله ، وأداه رسول الله إلى أصحابه، وأداه أصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك؟ هل سمعت فى العلم من كان فى داره أميرا ومنعته أكثر، كانت له المنزلة عند الله أكثر؟ قال: لا. قال : فكيف سمعت؟ قال: من زهد فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، وأحب المساكين، وقدم لآخرته، كان له عند الله المنزلة أكثر.

قال حاتم : فأنت بمن اقتديت، بالنبى وأصحابه الصالحين، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شرا منه. وخرج من عنده .

فازداد ابن مقاتل مرضاً. فبلغ أهل الرى ما جرى بينه وبين ابن مقاتل، فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن بقزوين عالم أكبر شأناً من هذا، وأشاروا به إلى الطنافسي. قال فسار إليه معتمدا فدخل عليه، فقال: رحمك الله أنا رجل

اعجمي، احب ان تعلمنى أول مبتدى دينى ومفتاح صلاتى كيف اتوضأ للصلاة، قال نعم وكرامة.

يا غلام هات إناء فيه ماء، فاتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هكذا فتوضأ، فقعد فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً، حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل اربعاً، فقال له الطنافسي: يا هذا أسرفت، فقال له حاتم فى ماذا ؟ قال: غسلت ذراعيك اربعاً، قال حاتم: يا سبحان الله أنا فى كف ماء اسرفت وانت فى هذا الجمع كله لم تسرف؟ فعلم الطنافسى انه أراده بذلك ولم يرد منه التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً.

وكتب تجار الرى وقزوين ما جرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسي، فلما دخل بغداد اجتمع إليه اهل بغداد، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن انت رجل الكن اعجمى ليس يكلمك احد إلا وقطعته، قال : معى ثلاث خصال بهن اظهر على خصمي، قالوا: اى شيء هى ؟ قال: افرح إذا اصاب خصمى، واحزن إذا اخطأ، واحفظ نفسى الا اجهل عليه.

فبلغ ذلك احمد بن حنبل ، فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أعقله. فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا؟ قال حاتم: يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال، قال : اى شيء هى يا أبا عبد الرحمن؟ قال: تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً، فإذا كان هذا سلمت. ثم سار إلى المدينة.

قال الله تعالى : ﴿ ...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴾[1] ذكر بكلمة إنما، فينتفى العلم عمن لا يخشى الله، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ينتفى دخول غير البغدادى الدار. فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى انصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

قال ابو يزيد رحمه الله يوماً لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح اجهد أن اقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه. قيل ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى فجاءتنى وحشة تلك الكلمة فمنعتنى عن ذلك، واعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشىء من صفاته. فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً فى العلم.

قال الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ما عرفهم، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب، فنطقوا بالحكم.

وقال بعضهم: الراسخ من اطلع على محل المراد من الخطاب.

وقال الخراز: هم الذين كملوا فى جميع العلوم وعرفوها، واطلعوا على همم الخلائق كلهم اجمعين.

وهذا القول من أبى سعيد لا يعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها، فإن عمر بن الخطاب ﷺ كان من الراسخين فى ا لعلم ووقف فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[1]، وقال ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف.

ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من ابى بكر رضى الله تعالى عنه وإنما عنى بذلك ابو سعيد ما يفسر اول كلامه بآخره وهو قوله : اطلعوا على همم الخلائق كلهم، لأن المتقى حق التقوى، والزاهد حق الزهادة فى الدنيا. صفا باطنه، وانجلت مرآه قلبه، ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم، واصولها .

---

(١) سورة عبس، الآية ٣١.

فيعلم منتهى اقدام العلماء في علومهم، وفائدة كل علم، والعلوم الجزئية متجزئة في النفوس بالتعليم والممارسة، فلا يغنيه عامة الكلي أن يراجع في الجزئي أهله الذين هم أو عيته، فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئي وأشتغلت به، وانقطعت بالجزئي عن الكلي.

ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لابد لهم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله، وانقطعوا إليه، وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوارا تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم. فأرواحهم ارتفعت عن حد إدراك العلوم، بعكوفها على العالم الأزلي، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم، وقلوبهم بنسبة وجهها الذي يلي النفوس صارت أوعية وجودية، تتناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية، فالفت العلوم، وتالفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ. والمعنى بالانفصال انتقاشها في اللوح لا غير، وانفصال القول عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتالف، فحصلت العوم لذلك، وصار العالم الرباني راسخاً في العلم،

أوحي الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، العلم مجمول في قلوبهم، تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين، نهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم .

فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضي جبلاتها، وقمعها بصريح العلم في كل قول وفعل، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدي الله تعالي فيحتفظ بالحق للحق،

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة، قال أخبرنا أبو منصور ابن خيرون إجازة، قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهري إجازة، قال أنا أبو عمر محمد بن العباس، قال حدثنا أبو محمد يحي بن صاعد، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال أنا عبد الله بن المبارك، قال أنا

الأوزاعي، عن حسان بن عطية، بلغني ان شداد بن أوس رضي الله عنه نزل منزلا فقال: ائتونا بالسفرة نعبث بها، فانكر منه ذلك، فقال ما تكلمت بكلمة منذ اسلمت إلا وانا اخطمها ثم ازمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين.

مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم. وقد ورد في خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم" قلنا يارسول الله كيف يسوقنا بالعلم؟قال " يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العبد في العلم قائلا وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل"

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية.

وقال الحسن: إن الله تعالى لا يعبأ بذي علم وروايه، إنما يعبأ بذي فهم ودراية،

فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة. ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين، ومثلا علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه، فلو لم يكن زبد، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن. والمائية في اللبن جسم قام به روح الدهنية، والمائية بها القوام. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[2] اي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإسلام. فالإيحاء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول.

وللإسلام علوم وهي علوم مباني الإسلام، والإسلام بعد الإيمان، نظرا إلى مجر التصديق، ولكن للإيمان فروع بعد التحقيق بالإسلام، وهي مراتب كعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فقد تقال للتوحيد، والمعرفة، والمشاهدة.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢.

وللإيمان في كل فرع من فروعه علوم، فعلوم الإسلام علوم اللسان، وعلوم الإيمان علوم القلوب. ثم علوم القلوب. لها وصف خاص، ووصف عام، فالوصف العام علم اليقين، وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال، ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة، وهي السكينة التي انزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص، ولا يشملها بوصفه العام، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان، والمشاهدة وصف خاص في اليقين، وهو عين اليقين. وعين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين، فحق اليقين إذن فوق المشاهدة، وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة، وفي الدنيا منه لمح يسير لأهله، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجدان.

فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال، كنسبة ما ذكرناه من علم الوارثة والدراسة علمهم بمثابة اللبن، ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم، ووزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم.

وقد ورد في الخبر " فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي".

والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء، والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين.

وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى، ذا يقين كامل، وليس عنده علم من فروض الكفايات، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم التقوى والأحكام من بعضهم.

روي أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شئ يقول: سلوا سعيد بن المسيب.

وكان عبد الله بن عباس يقول: سلوا جابر بن عبد الله، لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم.

وكان أنس بين مالك يقول: سلوا مولانا الحسن، فإنه قد حفظ ونسينا.

فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفتوى والأحكام، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين، صادفتهم طراوة الوحي المنزل، وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل، فتلقي منهم طائفة مجملة ومفصلة، وطائفة مفصلة دون مجملة. والمجمل أصل العلم، ومفصلة المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد، وهو خاص بالخواص. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴿١٠٨﴾﴾[2].

فلهذه السبيل سابلة، ولهذه الدعوات قلوب قابله، فمنها نفوس مستعصية جامدة، باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة، موافقة للقلوب، قريبة منها، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالحكمة.

فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون ، وهي الدعوة بتلويح منح القرب، وصفو المعرف، وإشارة التوحيد. فلما وجدوا التلويحات الحقانية، والتعريفات الربانية، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم، فصارت متابعة، الأقوال إجابتهم نفساً، ومتابعة، الأعمال إجابتهم قلباً، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحاً. فإجابة الصوفية بالكل، وإجابة غيرهم بالبعض.

قال عمر رضي الله عنه: رحم الله تعالى صيباً لو لم يخف الله لم يعصه، يعني لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف من حق العظمة.

---

(١) سورة النحل آيه ١٢٥

(٢) سورة يوسف آيه ١٠٨

فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر،وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها في القيام بحقائق الاستقامة والعبودية.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾[1].

قال بعضهم: اعطى الدارين ولم ير شيئاً، واتقى اللغو والسيئات، وصدق بالحسنى: أقام على طلب الزلفى.

والآية قيل نزلت في ابى بكر الصديق رضي الله عنه.

ويلوح في الآية وجه آخر: (أعطى) بالمواظبة على الأعمال، (واتقى) الوساوس والهواجس، (وصدق بالحسنى) لازم البطن بتصفية مراد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود (فسنيسره لليسرى) تفتح عليه باب السهولة في العمل والعيش والأنس (واما من بخل) بالإعمال (واستغنى) امتلأ بالأحوال (وكذب بالحسنى) لم يكن في الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال فسنيسره لليسرى) نسد عليه باب اليسر في الأعمال.

قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد سوءا سد عليه باب العمل، وفتح عليه باب الكسل.

فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وارواحهم الدعوة ظاهرا وباطناً، كان حظهم من العلم أوفر ، ونصيبهم من المعرفة أكمل، فكانت اعمالهم أزكى وافضل.

جاء رجل إلى معاذ قال: أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة، كثير العمل، قليل الذنوب، إلا أنه ضعيف اليقين، يعتوره الشك. قال معاذ: ليحبطن شكه عمله. قال: فاخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين، وهو في ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ فقال الرجل الله لئن احبط شك الأول أعمال بره، ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها. قال فأخذ معاذ بيده وقال: ما رايت الذي هو أفقه من هذا.

---

(١) سورة الليل من آيه ٥ إلي آية ٧.

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، فكان اليقين أفضل العلم، لأنه أدعى إلى العمل، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربيوبية، وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم.

ثم إني أصور مسالة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد، ، العارف بصفات نفسه على غيره:

عالم دخل مجلساً وقعد، وميز لنفسه مجلساً يجلس فيه، كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه، فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا، ولو أمكنه لبطش بالداخل. فهذا عارض عرض له ، ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة، ومرض يحتاج إلى المداواة، ولا يتفكر في منشأ هذا المرض. ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها، لوجود كبرها، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها.

فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر، فحيث أنعصر صار فعلاً به تكبر الزاهد لا يميز نفسه بشيء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه في مقام تمييز يميزها بمجلس .

فالصوفي العالم مخصوص مميز، ولو قدر له أن يبتلي بمثل هذه الواقعة، وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه، يرى النفس وظهرها، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله، فيرفع في الحال داءه إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ، ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس، ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثاً من النفس، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس في طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه، وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع و الأنكسار، تكفيراً للذنب الموجود، وتداوياً لدائه الحاصل. فتبين بهذا الفرق بين الرجلين

فإذا اعتبر المعتبر، وتفقد حال نفسه في هذا المقام، يرى نفسه كنفوس عوام الخلق ، وطالبي المناصب الدنيوية. فاي فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له،

ولو اكثرنا تصوير المسائل لتبرهن فضيلة الزاهدين، ونقصان الراغبين، لأورث الملال. وهذا من اونل العلوم الصوفية، فما ظنك بنانس علومهم، وشرائف احوالهم .

والله الموفق للصواب.



الباب الرابع
في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

اخبرانا الشيخ العالم ضياء الدين ابو احمد عبد الوهاب بن على، قال أخبرنا ابو الفتح عبد الملك بن ابي القاسم الهروي، قال انا ابو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي، قال انا ابو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، قال انا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، قال انا ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصاري، قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن ابيه، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: قال انس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا بني إن قدرت ان تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل" ثم قال" يا بني وذلك من سنتي، ومن احيا سنتي فقد احياني، ومن احياني كان معي في الجنة"

وهذا أتم شرف واكمل فضل، اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حق من أحيا سنته.

فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم، وبان فضلهم، وإنما قدروا على إحياء هذه السنة، ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا، وتركها لأربابها وطلابها، لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا، ومحبة الرفعة و المذلة عند الناس، والصوفية زهدوا في ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة اصبحوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد

فقول القائل: كنست بأرواحهم المزابل، إشارة منه إلى غاية التواضع، وأن لا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه، وعند هذا ينسد باب الغش والغل .

وجرت هذه الحكاية، فقال بعض الفقراء من اصحابنا:

وقع لي أن معنى كنست بأرواحهم المزابل أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس، لأنها ماوى كل رجس ونجس كالمزبلة، وكنسها بنور الروح الواصل إليه، لأن الصوفية أروحهم في مجال القرب، ونورها يسري إلى النفوس، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس، ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد، فكأنها تكنس بنور الروح وهذا صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك.

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وانست بذكره، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخواناً، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله علية وسلم قولا وفعلا وحالا صفات نفوسهم، فإذا تبدلت نعوت النفس، ارتفع الحجاب، وصحت المتابعة، ووقعت الموفقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾ جعل متابعة الرسول صلى الله علية وسلم آيه محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه.

فاوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى.

والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا اقواله، فقاموا بما امرهم، ووقفوا عما نهاهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾[2]

---

(١)سورة الحجر آية: ٤٧.
(٢)سورة الحشر آية: ٧.

ثم أتبعوه في أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة، والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه، من الحياء والحلم، والصفح والعفو، والرأفة والشفقة، والمداراة والنصيحة والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة، والهيبة والتعظيم، والرضا والصبر، والزهد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعات، وأحيوا سنته بأقصى الغايات.

قيل لعبد الواحد بن زيد: من الصوفية عنك؟ قال: القائمون بعقولهم على فهم السنة، والعاكفون عليها بقلوبهم، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

وهذا وصف تام وصفهم به.

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، اكلأني كلاءة الوليد »

ومن أشرف ما ظفر به الصوفي من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف، وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء.

ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة، وأشرق صدره بنور اليقين، وخلص قلبه إلى بساط القرب، وخلا سره بلذاذة المسامرة، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر، وهي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالماً، وهي وشيكة الرجوع، سريعة الانفلات والانقلاب.

فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفي، وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها، وكأنها جعلت سوطاً للعبد، تسوقه لمعرفته، بشرها، مع اللحظات إلى جناب الالتجاء، وصدق الافتقار والدعاء، فلا يخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة، وربط معرفتها.

بمعرفة الله تعالى، فيما ورد: من عرف نفسه فقد عرف ربه، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار.

ومن الذي يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بالله، الزاهد في الدنيا، المتمسك من التقوى بأوثق العرى.

ومن الذي يهتدي إلى فائدة هذه الحال غير الصوفي، فدوام افتقاره إلى ربه تمسك بجانب الحق ولِيذ به، وفي هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء، وفي انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة، ونزولها إليها في مدراج العلم، محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته. والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة الغائلة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات. فهذا حال الصوفي.

ويجمع جمال حال الصوفي شيآن هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [1].

فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، فالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد، وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه، ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوف اجتهاده، وفي هذا أخذ بطائفة الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم، وبادرهم سطوع نوع اليقين، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة والعيش فيه

---

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل لهم من صفو العرفان تحمل وعيد فرعون، فقالوا : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: وجدوا أرواح العناية القديمة بهم، فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا : ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[2]

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن ابي الفضل إجازة، قال انا ابو بكر احمد بن على بن خلف إجازة، قال أنا عبد الرحمن السلمي، قال سمعت منصورا يقول، سمعت أبا موسى الزقاق يقول، سمعت ابا سعيد الخراز يقول: أهل الخاصة الذين هم المرادون، احتباهم مولاهم، وأكمل لهم النعمة، وهيا لهم الكرامة، فاسقط عنهم حركات الطلب، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر، والتنعم بمناجاته، والانفراد بقربه.

وبهذا الإسناد إلى ابي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصي يقول: سمعت فاطمة المعرفة بجويرية تلميذة أبي سعيد تقول: سمعت الخراز يقول: المراد محمول في حالة، معان على حركاته، وسعيه في الخدمة، مكفى مصون عن الشواهد والنواظر.

وهذا الذي قاله الشيخ ابو سعيد هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية، ولم يقولوا بالإكثار من النوافل، وقد رأوا جميع من المشايخ قلت نوافلهم، فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض، كانت بداياتهم بدايات المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال، وادركتهم الكشوف بعد الاجتهاد، امتلؤا بالحال، فطرحوا نوافل الأعمال.

---

(١)سورة طه آية: ٧٢.

(٢)سورة الشعراء آية: ٤٧.

فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم. وهذا اتم واكمل من الأول.

فهذا الذي اوضحناه احد طريقي الصوفية.

فأما الطريق الآخر، طريق المريدين، وهم الذين شرطوا لهم الإنابة فقال الله تعالى:

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

فطولبوا بالاجتهاد اولا قبل الكشوف قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿٦٩﴾ ﴾[2]. يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب، بأنواع الرياضيات والمجاهدات، وسهر الدياجر طما الهواجر، تتأجج فيهم نيران الطلب، وتتحجب دونهم لوامع الإرب، يتقلبون في رمضاء الإرادة، وينخلعون عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم، وجعل الهداية مقرونة بها، وهذه الهداية آنفا هداية خاصة، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات، فخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال، فسبق اجتهادهم كشوفهم، والمريدون سبق كشوفهم اجتهادهم.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال: أنا أبوا الفضل احمد ابن أحمد، قال: سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول: سمعت أبا محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

فقال محمد بن خفيف: الإرادة سمو القلب لطلب المراد، وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة.

---

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

(٢) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

وقال أبو عثمان: المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى فيريد الله وحده يريد قربه ويشتاق إليه، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه.

وقال أيضاً: عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها.

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية.

دونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف:

أحدهما: مجذوب أبقى على جذبته ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف.

والثاني: مجتهد متعبد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد.

وللصوفية في طريقهما باب مريدهم، وصحة طريقهم بحسن المتابعة. ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال: أنا عصام الدين عمر بن حمد الصفار، قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف، قال: أنا أبو عبد الرحمن، قال: سمعت نصر بن أبي نصر يقول: سمعت قسيما غلام الزقاق يقول: سمعت أبا سعيد السكري يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل.

وكان يقول: الجنيد رحمه الله علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة.

حكى أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان الرجل في ناحيته مقصوداً ومشهوراً بالزهد والعبادة، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته

يقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة، فقال أبو يزيد: انصرفوا، فانصرف ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل ليس بمامون على ادب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون ماموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين.

وسال خادم الشبلي رحمه الله ماذا رايت منه عند موته؟ فقال: لما امسك لسانه، وعرق جبينه اشار إلى ان وضئني للصلاة، فوضأته، فنسيت تخليل لحيته، فقبض على يدي وادخل اصابعي في لحيته يخللها.

وقال سهل بن عبد الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل.

هذا حال الصوفية وطريقهم. وكل من يدعي حالا على غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب.



الباب الخامس
في ماهية التصوف

اخبرنا الشيخ ابو زرعه طاهر ابي الفضل في كتابه قال: انا ابو بكر احمد بن على بن خلف الشيرازي إجازة، قال: انا الشيخ ابو عبد الرحمن السلمي، قال: أنا إبراهيم بن محمد بن رجاء، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي، قال: حدثنا عمر بن اسد، عن مالك بن انس، عن نافع، عن ابن عمر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين. والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة.

فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو اساسه، وبه قوامه.

قال رويم: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار بالفقر لم يتحقق بالتصوف.

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال: ان لا يستغني بشيء دون الحق.

وقال ابوا الحسين النوري: نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود.

وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغني حزر ان يدخل عليه الغني فيفسد فقره، كما أن الغني يحترز من الفقير حزر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه.

وبالإسناد الذي سبق إلى ابي عبد الرحمن، قال: سمعت ابا عبد الرحمن الرازي يقول: سمعت مظفرا القرميسني يقول: الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة.

قال: وسمعته يقول: سالت ابا بكر المصري عن الفقير، فقال: الذي لا يملك ولا يملك .

قوله: لا يكون له إلى الله حاجة، معناه أنـه مشغول بوظائف عبوديتـه، تام الثقة بربه، عالم بحسن كلاءته بـه، لا يحوجه إلى رفـع الحاجة لعلمـه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال في البين زيادة.

وأقوال المشايخ تتنوع معانيها، لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقـات دون أوقات، ونحتاج في تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط، فقد تذكـر أشـياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر، وتذكـر أشياء في معنـى الفقـر ذكر مثلها في معنى التصوف.

وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ، فقد تشتبه الإشـارات في الفقر بمعاني الزهد تارة، وبمعاني التصوف تارة، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض، فنقول:

التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد.

فالتصوف اسـم جامع لمعاني الفقـر ومعـاني الزهـد، مـع مزيـد أوصـاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً

قال أبـو حفـص: التصـوف كلـه آدب، لكل وقـت أدب، ولكـل حـال أدب ولكل مقام أدب .

فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيـد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول.

وقال أيضاً: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب البـاطن، لأن النـبي صلـى الله عليه وسلم قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ».

أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل إجازة، قـال: أنـا الشـيخ أبـو المظفر عبد المنعم، قال: أخبرني والدي أبو القاسـم القشيري، قال سمعت محمـد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقـول: سمعـت عبـد الله بـن علي يقول: سئل أبـو محمد الجريري عن التصوف فقال: الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دني.

فإذا عرف هذا المعنى في التصوف، من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر.

وقيل: نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر، يقولون قال الله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1]. هذا وصف الصوفية، والله تعالى سماهم فقراء.

وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر نقول: الفقير في فقره متمسك به، متحقق بفضله، يؤثره على الغنى، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام»

فكلما لا حظ العوض الباقي، أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر، وعانق الفقر والقلة، وخشي زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض، وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك الإجهاد، والصوفي يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة، بل للأحوال الموجودة، فإنه ابن وقته.

وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي، لأن الصوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإذن من الله تعالى، في الدخول في الشيء، وقد يدخل في صورة سعة مباينة للفقر بإذن من الله تعالى، ويرى الفضيلة حينئذ في السعة لمكان الإذن من الله فيه، ولا يفسح في السعة والدخول فيها الصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن، وفي هذا مزلة لأقدام، وباب دعوى للمدعين. وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٧٣.

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف، وعلم ان الفقر أساس التصوف وبه قوامه، على معنى ان الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر، لا على معنى انه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر.

قال الجنيد رحمة الله عليه: التصوف هو ان يمتك الحق عنك، ويحييك به.

وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا بنفسه.

والفقير والزاهد مكنان في الأشياء بنفسهما، واقفان مع إرادتهما، مجتهدان مبلغ علمهما. والصوفي متهم لنفسه، مستقل لعلمه، غير راكن إلى معلومه، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه.

قال ذو النون المصري رحمة الله عليه: الصوفي من لا يتعبه طلب، ولا يزعجه سلب.

وقال أيضا: الصوفية آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهما الله على كل شيء.

فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم، وإرادة الله على إرادة نفوسهم.

قيل لبعضهم: من أصحب من الطوائف ؟ قال: الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجها من المعاذير، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك نفسك، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد، لان الزاهد يستعظم الترك، ويستقبح الأخذ، وهكذا الفقير، وذلك لضيق وعائهم، ووقوفهم على حد علمهم.

وقال بعضهم: الصوفي من إذا استقبله حالان حسنان او خلقان حسنان يكون مع الأحسن، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين، بل يختاران من الأخلاق ايضا ما هو أدعى إلى الترك، والخروج عن شواغل الدنيا، حاكمان في ذلك بعلمهم، والصوفي هو المستبين الأحسن من

عند الله، بصدق التجائه، وحسن إنابته، وحظ قربه، ولطيف الوجه، وخروجه إلى الله تعالى، لعلمه بربه، وحظه من محادثته ومكالمته.

قال رويم: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد.

وقال عمرو بن عثمان المكي: التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت.

وقال بعضهم: التصوف أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة من الله تعالى.

وقيل: التصوف فكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع.

وقيل التصوف ترك التكلف، وبذل الروح.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر.

وسئل بعضهم عن التصوف فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة.

قال ذو النون المصري: رأيت في بعض سواحل الشام امرأة، فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقلت: صفيهم لي، فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... ياحسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد

ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل في بلد

إلا مسارعة في إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد

فهم رهائن غدران وأودية ... في الشوامخ تلقاهم مع العدد

قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يطرح عليه كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

وقال أيضا هو كالأرض، يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب،يظل كل شيء وكالقطر يسقي كل شيء وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها، فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعاني.

فنقول:

الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، ولا يزال يصفي الأوقات عن شواب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقي من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة، وفر منها إلى ربه.

فبدوام تصفيته جمعيته، وبحكمة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال الله تعالى: ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۝ ﴾[1]. وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف.

قال البعض: التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف.

والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الالهية، يعني أن روح الصوفي متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها، وانقلاب على عقبها، ولا بد للصوفي من دوام الحركة، بدوام الافتقار، ودوام الفرار، وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس. ومن وقف على هذا المعنى يجد في الصوفي جميع المتفرق في الإشارات.

---

(١)سورة المائدة آية: ٨.

الباب السادس
في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، قال: اخبرني والدي، قال: أنا ابو على الشافعي بمكة حرسها الله تعالى، قال: انا احمد بن إبراهيم قال: انا ابو جعفر محمد بن إبراهيم، قال انا أبو عبد الله المخزومي، قال: حدثنا سفيان، عن مسلم، عن انس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف.

فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى انهم سموا صوفية، نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام.

روى عن رسول الله ﷺ انه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام ».

وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصرى رضي الله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف.

ووصفهم أبوا هريرة وفضالة بن عبيد فقال: كانوا يخرون من الجوع تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث.

وقال بعضهم: إنه ليؤذيني ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك.

فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وستر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة.

وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص.

ولما كان حالهم بين سير وطير، لتقلبهم في الأحوال، وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يقيدهم وصف، ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علما وحالا عليهم مفتوحة، بواطنهم معدن الحقائق، ومجمع العلوم.

فلما تعزر تقلدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم، وتجنس مزيدهم، نسبوا إلى ظاهر اللبسة، و كان ذلك أبين في الإشارة إليهم، وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم.

وأيضا لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره.

ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب، يعز كشفه والإشارة إليه، وقعت الإشارة إلى زيهم سترا لحالهم، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن ، والقول والفعل، عماد أمر الصوفية.

وفيه معنى آخر، وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا، وزهدهم فيما تدعوا النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى أن المبتدي المريد الذي يؤثر طريقهم، ويحب الدخول في أمرهم، يوطن نفسه على التقشف والتقلل، ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة. وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدي، والإشارة إلى شئ من حالهم في تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات، فكأن تسميتهم بهذا أنفع وأولى.

وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى.

وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم.

وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى. فالقول: بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى الوضع.

ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول، والتواضع والانكسار، والتخفي والتواري، كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة المرمية التي لا يرغب فيه، ولا يلتفت إليها، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة. كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة.

وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب، ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد، والمتقشفين والعباد.

أخبرنا أبو زرعة طاهر، عن أبيه قال: أنا عبد الرازق بن عبد الكريم، قال: أنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال: حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد، قال: حدثنا الحسن بن عرفة، قال: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد بن الأعرج، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال.

قال رسول الله ﷺ « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف، وسراويل صوف، وكساء صوف، وكمه من صوف، ونعلاه من جلد حمار غير مذكي ».

وقيل: سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفيا.

وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ الذين قال تعالى فيهم ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٧٣﴾ ﴾[1].

(١) سورة البقرة آية: ٢٧٣.

وهذا إن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكن صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة، وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، لم تكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم، ويحث الناس على مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[3].

كان من أهل الصفة فعوتب النبي ﷺ لأجله. وكان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة، يبعث مع واحد ثلاثة، ومع الآخر أربعة.

وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم.

---

(١) سورة الأنعام آية: ٥٢.
(٢) سورة الكهف آية: ٢٨.
(٣) سورة عبس آية: ٢،١.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منه من لا يبلغ ركبته، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته.

وقال بعض أهل الصفة: جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يا رسول الله أحرق بطوننا التمر، فسمع بذلك رسول الله ﷺ ، فصعد المنبر ثم قال « ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة، وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز، وليس لهم إلا الأسودان: الماء والتمر ».

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال: أنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثي قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا محمد بن سعيد الأنماطي قال: حدثنا الحسن بن يحي بن سلام قال حدثنا محمد بن علي الترمذي قال: حدثني سعيد بن حاتم البلخي قال: حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: وقف رسول الله ﷺ يوما على أهل الصفة فرأي فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: « أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة » .

وقيل: كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات، ولا يسكنون القرى والمدن ، يسمونهم في خراسان شكفتية، لأن شكفت اسم الغار، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر.

وأهل الشام يسمونهم جوعيه.

والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصلاح، فسمى قوما ابرارا، وآخرين مقربين. ومنهم الصابرون والصادقون، والذاكرون والمحبون، واسم الصوفي مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة.

وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ وقيل كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه انه قال: رايت صوفيا في الطواف فاعطيته شيئا فلم ياخذه وقال: معي أربع دوانيق، يكفيني ما معي. ويسند هذا ما روي عن سفيان انه قال: لولا ابو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. وهذا يدل على ان هذا الاسم كان يعف قديما.

وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من اللهجرة النبوية، لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحابه ﷺ يسمون الرجل صحابيا، لشرف صحبة رسول الله ﷺ، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة.

وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمي تابعيا.

ثم لما تقادم زمان الرسالة، وبعد عهد النبوة، وانقطع الوحي السماوي، وتواري النور المصطفوي، واختلفت الآراء،وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي راي رايه، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات، وكثف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت اربابها، وتزخرفت الدنيا، وكثر خطابها، تفرد طائفة باعمال صالحة، واحوال سنية، وصدق في العزيمة، وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة، وينفردون اخرى، اسوة باهل الصفة، تاركين للأسباب، متبتلين إلى رب الأرباب.

فاثمر لهم صالح الأعمال سنى الأحوال، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصارلهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة: اصبحت مؤمنا حقا، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها ، فاخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسما مستمرا، وخيرا مستقرا في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم، وتسموا به وسموا به. فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل، وأصحاب الفضائل، سكان قباب الغيرة، وقطان ديار الحيرة، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهيب شوقهم يتاجج ويقول هل من مزيد. اللهم احشرنا في زمرتهم، وارزقنا حالاتهم . والله اعلم .

الباب السابع
في ذكر المتصوف والمتشبه به

اخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب السروردي إجازة قال: انا الشيخ ابو منصور بن خيرون قال: انا ابو محمد الحسن بن على الجوهري إجازة قال: انا محمد بن العباس بن زكريا قال: انا ابو محمد يحي بن محمد بن صاعد الأصفهاني قال: انا المعتمر بن سليمان قال: انا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقال امن ؟ فقال لرجل: أنا يا رسول الله، قال: « ما أعددت له ؟ » قال ما اعددت له كثير صلاة ولا صيام، أو قال: ما أعددت له كبير عمل، إلا اني أحب الله ورسوله، فقال النبي عله الصلاة والسلام : « المرء مع من احب، أو انت مع من احببت » قال انس: فما رايت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا .

فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته.

وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي رويناه في المعنى.

روي عبادة بن الصامت عن ابي ذر الغفارى قال: قلت يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولا يستطيع ان يعمل كعملهم، قال « انت يا ابا ذر مع من أحببت. قال: قلت فإنى أحب الله ورسوله. قال: فإنك مع من أحببت ».

قال: فاعادها ابوذر ، فاعادها رسول ﷺ.

فمحبة المتشبه إياهم لا تكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية، لأن محبة امر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه تكون بجاذب الروح، غير ان المتشبه تعوق بظلمة النفس، والصوفي تخلص من ذلك. والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي ، وهو مشارك ببقاء شئ من صفات نفسه

عليه للمتشبه، وطريق الصوفية أوله إيمان، ثم علم ، ثم ذوق. فالتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير.

قال الجنيد رحمة الله عليه: الإيمان بطريقنا هذا ولاية.

ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة، وآثار مستغربة عند أكثر الخلق، لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة.

وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته.

فالمتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدل له على سائرها.

والصوفي صاحب ذوق، فالمتصوف وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مم هو فيه، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا، فيكون في حال الذوق صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾[1].

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين وللمقربين ذلك صرفاً.

---

(١) سورة الانفطار آية: ١٣.

(٢) سورة المطففين آية : ٢٧، ٢٨ .

فلصوفي شراب صرف، وللمتصوف من مزج في شرابه، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف فالصوفي سبق إلى مقار الروح من بساط القرب، والمتصوف بالنسبة إلى الزاهد، لأنه تفعل وتعمل وتسبب، إشارة إلى ما بقي عليه من وصفه، فهو مجتهد في طريقه سائر على ربه.

قال رسول الله ﷺ « سيروا سبق للفردون، والمتصوف في مقام السائرين، واصل في سيره إلى مقار القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه، وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه .

فالصوفي في مقار الروح صاحب مشاهدة والمناصب في مقار صاحب مراقبة. والمتشبه في مقاومة النفس، وصاحب مجاهدة، وصاحب محاسبة فتلوين الصوفي بوجود قلبه. وتلوين المتصوف بوجود نفسه، والمتشبه لا تلوين له، لأن التلوين لأرباب الأحوال، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال، والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[1].

قال بعضهم: الظالم الزاهد، والمقتصد العارف، والسابق المحب.

وقال بعضهم: الظالم الذي يجزع من البلاء، والمتقصد الذي يصبر عند البلاء، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء.

وقال بعضهم: الظالم يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة، والسابق يعبد على الهيبة والمنة.

وقال بعضهم: الظالم بذكر الله بلسانه، والمقتصد بقلبه، والسابق لا ينسى ربه.

وقال احمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

---

(١) سورة فاطر آية: ٣٢.

وكل هذه الأقوال قريبه التناسب من حال الصوفي والمتصوف والمتشبه، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح، تجمعهم دائرة الاصطفاء، وتؤلف بينهم نسبه التخصيص بالمنح والعطاء.

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين ابو الخير احمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال انا أبو سعد محمد بن أبي العباس، قال انا القاضي محمد بن سعيد قال: انا ابو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال: اخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه

قال: حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة قال: حدثنا يوسف بن عاصم الرازي قال: حدثنا ابو ايوب سليمان بن داود قال: حدثنا حصين بن نمير، عن ابي ليلى، عن اخيه، عن اسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

« كلهم في الجنة »

قال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبي، والسابق هو الذي أسقط مراده بمراد الله فيه.

وهذا هو حال الصوفي. فالمتشبه تعرض لشئ من أمر القوم، ويوجب له ذلك القرب منهم. مقدمة كل خير.

سمعت شيخنا يقول: جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بإصبهان يريد منه الخرقة، فقال له الشيخ: اذهب إلى فلان - يشير إلى - حتى يكلمك في معنى الخرقة، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة. قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقة، وما يجب من رعاية حقها، وآداب من يلبسها، ومن يؤهل للبسها، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها.

فاخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك، وقال: بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الخرقة، فكلمته بما فترت عزيمته. ثم الذي ذكرته كله صحيح وهو

---

(١)سورة فاطر اية، ٣٢.

الذي يجب من حقوق الخرقة، ولكن إذا ألزمنا المبتدي بذلك نفر وعجز عن القيام به، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيي بزيهم، فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم، وببركة مخالطته معهم، ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم، يحب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شئ من أحوالهم.

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالي ما أخبرنا رحمه الله قال: أنا عصام الدين عمر بن احمد الصفار قال: أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال: أنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال: سمعت الحسين بن يحي يقول: سمعت جعفر يقول: سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبداه بالعلم وابداه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه.

وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدي الطالب، وكل من كان منهم أكمل حالا واوفر علماً كان أكثر رفقاً بالمبتدي الطالب.

حكي عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات، ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدي إليه، والتأدب بأدبه، والاقتداء به في عمله.

وهذا هو الرفق الذي ما دخل في شئ إلا زانه.

فالمتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم، وعمل بمقتضاه، وسلوك واجتهاد على ما ذكرناه أنه صاحب مشاهدة. فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفي بالتشبه ولا يقصد أوائل مقاصدهم، بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الزي والصورة، دون السيرة والصفة، فليس بمتشبه، يعتزي إلى القوم بمجرد لبسه، ومع ذلك هم القوم لا يشقي بهم جليسهم، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » .

أخبرنا الشيخ أبوا الفتح محمد بن سليمان قال: أنا أبو الفضل حميد قال: أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال: أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي قال: حدثنا على بن أحمد قال: حدثنا على بن على المقدسي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال:

حدثنا فضيل بن عياض، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتتبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء، فيقول الله- وهو أعلم - ما يقول عبادي؟ قالوا: يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك، فيقول: وهل رأوني ؟ فيقولون: لا، فيقول كيف لو رأوني؟ قالوا: لو رأوك كانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً، فيقول: ما يسألونني؟ قالوا: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها ؟ قالوا: لا، فيقول كيف لو رأوها؟ قلوا لو رأوها كانوا أشد لها طلباً وعليها أكثر حرصاً قالوا: ويعوذون من النار، فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا ، فيقول: كيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها كانوا أشد منهم تعوذاً، وأشد فراراً ، فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم.

فيقول الملك: فمنهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول تبارك وتعالى:

« هم الجلساء لا يشقي جليسهم ».

فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم.

الباب الثامن
في ذكر الملامتي وشرح حاله

قال بعضهم: الملامتي هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا. وشرح هذا هو ان الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص، وتحقق بالصدق، فلا يحب ان يطلع احد على حاله وأعماله.

اخبرنا الشيخ ابو زرعة طاهر بن ابي الفضل المقدسي إجازة قال: أنا ابو بكر احمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازة قال: انا الشيخ ابو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت علي بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال سألت ابا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو؟

قال: سألت احمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن علي الجهمي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟

قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: « سألت جبرائيل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: «هو سر من سري استودعته قلب من احببت من عبادي »

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص، يرون كتم الأحوال والأعمال، ويتلذذون بكتمها، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصي من ظهر معصيته.

فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه، وتمسك به معتداً به. والصوفي غاب في إخلاصه عن إخلاصه.

قال أبوا يعقوب السوسي: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء الذم والمدح من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

اخبرنا أبو زرعة إجازة قال: انا أبو بكر احمد بن على بن خلف إجازة قال: انا أبو عبد الرحمن قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وإخلاص الخواص ما يجري عليه لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليه رؤية ولا بهم اعتداد، فذلك إخلاص الخواص.

وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرق بين الصوفي والملامتى، لأن الملامتى أخرج الخلق عن عمله وحاله، ولكن أثبت نفسه، فهو مخلص، والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره، فهو مخلص وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص.

قال أبوا بكر الزقاق: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلصاً لا مخلصاً.

قال أبو سعيد الخراز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين.

ومعنى قوله إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص، والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد، أو معاناة خلق من أخلاق النفس في

إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء، إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه.

قال رويم: الإخلاص أن لا يرضي صاحبه عليه عوضاً في الدارين، ولا حظاً من الملكين.

وقال بعضهم: صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق والملامتي يرى الخلق فيخفي علمه وحاله.

وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفي.

ولهذا قال الزقاق: لا بد لكل مخلص من رؤية إخلاصه، وهو نقصان عن كمال الإخلاص، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتي به على التمام.

قال جعفر الخالدي: سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله قلت: أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال: نعم، الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع، وقال: بينهما فرق، لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، ثم قال: إنما هو إخلاص، ومخالصة الإخلاص، وخالصة كائنة في الخالصة.

فلعل هذا الإخلاص حال الملامتي، ومخالصة الإخلاص حال الصوفي، والخالصة الكائنة في الخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه، بل غيبته عن رؤية قيامه، وهو الاستغراق في العين عن الآثار، والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفي.

والملامتي مقيم في أوطان إخلاصه، غير متطلع إلى حقيقة إخلاصه.

وهذا فرق واضح بين الملامتي والصوفي.

ولم يزل في خراسان منهم طائفة، ولهم مشايخ يمهدون أساسهم، ويعرفونهم شروط حالهم. وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، وقلما يتداول السنة أهل العراق هذا الاسم.

فقال: لأني إن حضرت يظهر على وجد، ولا أوثر أن يعلم أحد حالي.

وقيل: أن أحمد بن أبي الحواري قال لأبي سليمان الداراني: إني إذا كنت في الخلوة أجد لمعاملتي لذة لا أجدها بين الناس، فقال له: إنك إذا لضعيف.

فالملامتى وإن كان متمسكاً بعروة الإخلاص، مستفرشاً بساط الصدق، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق.

والصوفي صفا من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق، وعزلهم بالكلية، ورآهم بعين الفناء والزوال، ولاح له ناصية التوحيد، وعاين سر قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

كما قال بعضهم في بعض غلباته: ليس في الدارين غير الله.

وقد يكون إخفاء الملامتى الحال على وجهين:

أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق.

والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره، بنوع غيره، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه، بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه.

---

(١) سورة القصص آية: ٨٨.

وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص. فعلى هذا يتقدم الملامتي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي.

وقيل، أن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام:

ذكر باللسان.

وذكر بالقلب.

وذكر بالسر.

وذكر بالروح.

فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة.

وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر الهيبة.

وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر، وذلك الآلاء والنعماء.

وإذا غفل القلب عن الذكر، أقبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر العادة.

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة.

فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه.

وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه.

وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه.

وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه، أو طلب ثوابه، أو ظن أنه يصل إلى شئ من المقامات.

واقل الناس قيمة عنهم مون يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك.

وسر هذا الأصل الذي بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات.

وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم، وذكر القلب من الآلاء والنِعماء .

ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعلات.

فمعنى قولهم: اطلاع السر على الروح، يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات .

وذكر الهيبة في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة، ووجود الهيبة يستدعى وجودا وبقية، وذلك يناقض حال الفناء.

وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب.

وذكر القلب الذي هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما لأنه المعطي ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس نظرا إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل، وذلك عين الاعتدال حقيقة.

وهذه أقسام هذه الطائفة، وبعضها أعلى من بعض. والله أعلم.

الباب التاسع
في ذكر من أنتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة، وملامتية اخرى، وقد ذكرنا حال الملامتى، وانه حال شريف، ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء.

فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات، وطرحوا بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت اعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شئ من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة.

ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب.

والفرق بين الملامتى والقلندري، الملامتى يعمل في كتم العبادات، والقلندري يعمل في تخريب العادات، والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكن يخفى الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته وأموره، ستراً للحال لئلا يفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد، باذل مجهوده في كل ما يتقرب به العبيد.

والقلندري لا يتقيد بهيئة، ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله. والصوفي يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامها، ويقيم

أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص.

فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشئ، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارة، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة سمة العوام، والقاصرين الإفهام، المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ويحاصر باطنه الزيغ والتحريف.

اخبرنا ابو زرعة عن ابيه الحافظ المقدسي قال: انا ابو محمد الخطيب، ثنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال: ثنا ابو بكر بن أبي دواد قال :ثنا أحمد بن صالح قال: ثنا عنبسة قال: ثنا يونس بن يزيد قال: قال محمد يعني الزهري : أخبرني حميد بن عبد الرحمن، أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال:

سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ان اناساً كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله تعالى يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتي حسنة. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: من عرض نفسه للتهم فلا يلو من أساء به الظن.

فإذا رأينا متهاوناً بحدود الشرع، مهملاً للصلوات المفروضات، لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل في المداخل المكروهة المحرمة نرده ولا نقبله، ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدنيا أبو النجيب السهروردي إجازة، عن عمر بن أحمد، عن ابن خلف، عن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي، سمعت أبا محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى.

فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنها لآكد في معرفتي وأقوى لحالي.

ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى في اللاهوت والناسوت.

ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات، إشارة إلى هذا الوهم، وتخايل له أن من قال كلاماً في بعض غلباته كان مضمر الشيء مما زعموه، مثل قول الحلاج: أنا الحق، وما يحكي عن أبي يزيد من قوله: سبحاني. حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الحلاج ذلك. ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمر الشيء من الحلول رددناه كما نردهم.

وقد أتانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية، يستقيم بها كل معوج، وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز.

والله تعالى منزه أن يحل به شيء أو يحل بشيء، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه، فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى، وأنها مكالمة الله تعالى إياه، مثل أن يقول قال لي وقلت له، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها، جاهل، بربه وبكيفية المكالمة والمحادثة، وإما عالم ببطلان ما يقول يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشيء.

وكل هذا ضلال، ويكون سبب تجرّئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد في الدنيا.

فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة، فنزلت تلك المخاطبات عند استغراق السرائر، ولا يكون ذلك كلاماً يسمعونه، بل كحديث في النفس يجدونه برؤية موافقاً للكتاب والسنة، مفهوماً عند أهله، موافقاً للعلم.

ويكون ذلك، مناجاة لسرائرهم، ومناجاة سرائرهم إياهم، فيثبتون لنفوسهم وإلى مولاهم، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله، وإنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم.

فطريق الأصحاء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى الهموا في بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث، لا نسبة الكلام إلى المتكلم، ليصانوا عن الزيغ والتحريف.

ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد ويسقطون ولا يثبتون لنفوسهم حركة وفعلا ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لا فعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في المعاصي، وكل ما تدعوا النفس إليه،

ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج من الملة، وترك الحدود والأحكام ، والحلال والحرام.

وقد سئل سهل عن رجل يقول، أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت، قال، هذا لا يقوله إلا أحد رجلين،

إما صديق.

أو زنديق.

لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية.

والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله، وإسقاطاً للائمة عن نفسه، وانخلاعاً عن الدين ورسمه. فأما من كان معتقدا وجوب التوبة منها، فهو سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة، ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات، غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذبه، ويبصره بعيب ما هو فيه.

والله الموفق.

الباب العاشر
في شرح رتبة المشيخة

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ « والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة ».

وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

ورتبه المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ.

ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1].

ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنوار العظمة الالهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم، ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[2].

وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران آية: ٣١.

(٢) سورة الشمس آية: ٩.

وايضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها، ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلين، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية، وجودى المشيخة والتربية.

فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين، ويهدي به الطالبين.

أخبرنا ابو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أبوا الفضل عبد الواحد بن على بهمذان قال: أنا ابو بكر محمد بن على بن أحمد الطوسي قال:

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثا ابو عتبة قال: وحدثنا بقيه قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: كان يقال: إذا اجتمع عشرون رجلا او اكثر فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل فقد خطر الأمر.

فعلى المشايخ وقار الله، وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطناً، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1].

فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا لاقتداء بهم، وجعلوا أئمة المتقين. قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي جعلت همته ولذاته في ذكرى، فإذا جعلت همته ولذته في ذكرى عشقني وعشقته، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسه إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا اردت بأهل الأرض عقوبة او عذاباً ذكرتهم فيه فصرفته بهم عنهم».

والسر في وصول السالك إلى رتبة المشيخة، ان السالك مأمور بسياسة النفس، مبتلى بصفاتها، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه، وبطمأنينتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التي استصحبتها من أصل خلقتها،

---

(١) سورة الأنعام آية: ٩٠.

وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية، فإذا زالت اليبوسة عنها، ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها، وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۝﴾[1]. تعالى، تجيب إلى العبادة، وتلين للطاعة عند ذلك. وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس، ذو وجهين، احد وجهية إلى النفس، والوجه الآخر إلى الروح، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه، ويمد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطمئن النفس، فإذا اطمأنت نفس السالك، وفرغ من سياستها، انتهى سلوكه، وتمكن من سياسة النفس وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله.

ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس، فيقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عند مقام نفسه، لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه بالتالف الالهي .

قال الله تعالى ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۝﴾[2].

فيسوس نفس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قوله لله تعالى.

الا طال شوق الأبرار إلى لقائي ... واني إلى لقائهم لأشد شوقا

وبما هيأ الله تعالى من حسن التالف بين الصاحب والمصحوب، يصير المريد جزء الشيخ، كما ان الولد جزء الوالد في الولادة الطبيعة، وتصير هذه الولادة انفاً ولادة معنوية كما ورد عن عيسى عليه السلام: لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين.

---

(١)سورة الزمر آية: ٢٣.

(٢)سورة الأنفال آية: ٦٣.

فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم الملك، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت.قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة، وبهذه يستحق ميراث الأنبياء، ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد، وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل، والعقل إذا كان يابساً من نور الشرع لا يدخل الملكوت، ولا يزال متردداً في الملك، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية، لانه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت .

والملك ظاهر الكون، والملكوت باطن الكون، والعقل لسان الروح . والبصيرة التي منها تنبعث اشعة الهداية قلب الروح، واللسان ترجمان القلب، وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان، فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول العارية عن نور الهداية، الذي هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم الصواب، واسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان، وحرمانهم غاية التبيان.

وكما أن في الولادة الطبيعة ذرات الأولاد صلب الأب مودعة، تنقل إلى أصلاب الأولاد بعد كل ولد ذرة، وهي الذرات التي خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بالست بربكم، قالوا بلى ، حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى ببطن نعمان.بين مكة والطائف، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة .

ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم . فمن الآباء من تنذ الذرات في صلبه، ومنهم من لم يودع في صلبه شيء فينقطع نسله. وهكذا المشايخ، فمنهم من تكثر أولاده، ويأخذون منه العلوم والأحوال، ويودعونها غيرهم،

---

(١)سورة الأنعام آية: ٧٥.

كما وصلت إليهم منهم من ينقطع نسله له. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[1].

وإلا فنسل رسول الله ﷺ باق إلى ان تقوم الساعة وبالنسبة المعنوي يصل ميراثَ العلم إلى أهل العلم.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب السهروردي إملاء قال: انا ابو عبد الرحمن الماليني قال: انا ابو الحسن الداودي قال: انا ابو محمد الحموى قال: أنا ابو عمران السمرقندي قال: انا ابو محمد الدارمي قال: انا نصر بن على قال: حدثنا عبد الله بن داود، عن عاصم، عن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع ابي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال: يا ابا الدرداء إني اتيتك من المدينة، مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك انك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره ؟ قال: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن فضل طالب العلم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما أورثوا العلم، فمن اخذ به اخذ بحظه أو بحظ وافر ».

فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم ابي البشر عليه السلام، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعوا إليه النفس والشيطان، كما ورد أن الله تعالى أمر جبرائيل حتى اخذ قبضة من اجزاء الأرض، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كونها من الجوهرة التي خلقها اولا، فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب،

---

(١)سورة الكوثر آية: ٣.

حيث خاطب السموات والأرضين بقوله: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(١)

. فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية، ثم انتزعت هذه الخاصية منه بأخذ أجزئها لتركيب صورة آدم، فركبت جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصية، فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه اللهوى، حتى مد يده إلى شجرة الفناء، وهي شجرة الحنطة في أكثر الأقاويل، فتطرق لقابله الفناء وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخبر عنه بقوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾(٢)

نال العلم والحكمة.

فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة، وبنفخ الروح صار ذا روح روحاني، وشرح هذا يطول. فصار قلبه معدن الحكمة، وقلبه معدن الهوى، فانتقل منه العلم والهوى، وصار ميزانه في والده، فصار من طريق الوالد أبا بواسطة الطبائع التي هي محل الهوى، ومن طريق الولادة المعنوية محمية من الفناء، لأنها وجدت من شجرة الخلد، وهي شجرة العلم لا شجرة الحنطة التي سماها إبليس شجرة الخلد فإبليس يرى الشيء بضده . فتبين أن الشيخ هو الأب.

وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول: ولدي من سلك طريقي واهتدى بهديي.

فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذا في ابدائه في طريق المحبين، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبوبين، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام: سالك مجرد، ومجذوب مجرد، وسالك متدارك بالجذبة، ومجذوب متدارك بالسلوك.

---

(١)سورة فصلت ، آية: ١١.

(٢)سورة الحجر: آية: ٢٩.

فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفاء نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة.

والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب، ولا يؤخذ في طريق المعاملة.

وللمعاملة أثر تام.

سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى. وهذا أيضاً لا يؤهل للمشيخة، ويقف عند حظه من الله، ومروحاً بحاله، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة.

والسالك الذي تدورك بالجذبة، وهو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة، وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب من المشاهدة.

فوجد دواءه، وفاض وعاؤه، وصدرت منه كلمات الحكمة، ومالت له القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب، وصار ظاهره مسدداً وباطنه مشاهداً، وصلح للجلوة، وصار له في الجلوة خلوة، فيغلب ولا يغلب، ويفترس ولا يفترس، يؤهل مثل هذا للمشيخة، لأنه أخذ في طريق المحبين، ومنح حالا من أحوال المقربين، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقه بركة، ولكن قد يكون محبوساً في حاله، محكماً حالة فيه، لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال النوال، يقف عند حظه وهو حظ وافر سني، والذين أوتوا العلم درجات.

ولكن المقال الأكمل في المشيخة القسم الرابع وهو المجذوب المتدارك بالسلوك، يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة، وينشرح وينفسح قلبه، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، ويرتوى من بحر الحال، ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ويقول معلنا لا أعبد رباً لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذاذة وهناء، ويصير قالبه بصفة قلبه لا متلاء قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه.

وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل ، كإجابة قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين، ينقطع فيواصل، ويعرض عنه فيراسل، ويذهب عنه جمود النفس، ويصلى بحرارة الروح، وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾[1].

أخبر أن الجلود تلين، كما أن القلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد. وقد ورد في الخبر أن ابليس سأل السبيل إلى القلب، فقيل له يحرم عليك، ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها، وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب في مجرى واحد، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب، ومن جعلته نبياً أو ولياً قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب سليماً، فإذ دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب، فلا يصل إلى القلب سلطانك.

---

(١) سورة الزمر آية: ٢٣.

فالمحبوب المراد الذي أهل للمشيخة، وسلم قلبه، وانشرح صدره ولان جلده، فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولا نت النفس بعد ان كانت أمارة بالسوء مستعصية، ولان الجلد للين النفس، ورد إلى صورة الأعمال بعد وجان الحال.

ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الالهية، فيستتبع الروح القلب، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية، وانخرق الظاهر إلى الباطن، والباطن إلى الظاهر،والقدرة إلى الحكمة، والحكمة إلى القدرة، والدنيا إلى الآخرة .الآخرة إلى الدنيا، ويصح له ان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. فعند ذلك يطلق من وثاق الحال، ويكون مسيطرا على الحال لا الحال مسيطرا عليه، ويصير حرا من كل وجه.

والشيخ الأول الذي أخذ في طريق المحبين حر من رق النفس، ولكن ربما كان باقياً في رق القلب. وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق النفس، وذلك أن النفس حجاب ظلماني ارضي أعتق منه الأول، والقلب حجاب نوراني سماوي أعتق منه الآخر، فصار لربه لا لقلبه ولوقته لا لوقته، فعبد الله حقاً ، وآمن به صدقاً ويسجد لله سواده وخياله، ويؤمن به فؤاده، وقر به لسانه، كما قال رسول الله ﷺ في بعض سجوده، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾[1].

فالقوالب هو الظلال الساجدة، ظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة.

الأصل كثيف والظل لطيف، وفي عالم الغيب الأصل لطيف والظل كثيف، فيسجد لطيف العبد وكثيفه، وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال، ويمتلئ بما انيل من وجدان الحال، وذلك قصور في العلم، وقلة في الحظ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال

---

(١)سورة الرعد ، آية: ١٩.

كارتباط الروح بالجسد، وراى ان لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة عن القوالب، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق، والعارف المحقق، والمحبوب المعتق، نظره دواء، وكلامه شفاء، بالله ينطق، وبالله يسكت، كما ورد « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا احببته كنت له سمعاً وبصرا ويدا ومؤيدا، بي ينطق وبي يبصر » الحديث.

فالشيخ يعطي بالله، ويمنع بالله، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه، بل هو مع مراد الحق، والحق يعفه مراده، فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه، فإن علم ان الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمود دخل فيها مراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة الله تعالى.

الباب الحادي عشر
في شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: « يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادما »

الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد، ويتصدى لإيصال الراحة وفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يفعله الله تعالى بنية صالحة.

فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى، والخادم واقف مع نيته.

فالخادم يفعل الشيء لله تعالى، والشيخ يفعل الشيء لله. فالشيخ في مقام المقربين، والخادم في مقام الأبرار. فيختار الخادم البذل والإيثار، والارتفاق من الأغيار للأغيار، ووظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله، وفيه يعرف الفضل ورجحه على نوافله وأعماله.

وقد يقيم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ، وربما جهل الخادم أيضاً حال نفسه، فيحسب نفسه شيخاً لقلة العلم، واندراس علوم القوم في هذا الزمان، وقناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال. فكل من كان أكثر إطعاماً هو عندهم أحق بالمشيخة، ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ. والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى.

وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة ابن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي عن أبيه قال: أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله المقري قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي قال: حدثنا أبو حامد الحافظ قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري

وابو الأزهر قالا: حدثنا ابو داود قال: حدثنا سفيان، عن الأوزاعي، عن يحيى بن ابي كثر عن أبي سلمة، عن ابي هريرة " « أن النبي ﷺ أتى بطعام وهو بمر الطهران، فقال لأبي بكر وعمر: كلا ، فقالا: إنا صائمان، فقال: ارحلا لصاحبيكما، اعملا لصاحبيكما، ادنوا فكلا، يعني أنكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة، فاحتجتما إلى من يخدمكما، فكلا واخدما أنفسكما ».

فالخادم يحض على حيازة الفضل، فيتوصل بالكسب تارة، وبالاسترفاق والدروزة تارة اخرى، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة، لعلمه أنه قيم بذلك، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم، ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة. ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام، ومعاناة في ذلك لوجود مرده فيه وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق.

اخبرانا أبو زرعة إجازة قال: أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال: أنا الشيخ ابو عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت الجنيد يقول سمعت السري يقول: أعرف طريقاً مختصرا قصدا إلى الجنة، فقلت له ما هو؟ قال: لا تسأل من أحد شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً، ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً شيئاً.

والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار، فيقدم الخدمة على النوفل، ويرى فضلها، وللخدمة فضل على النافلة التي يأتي بها العبد طالباً بها الثواب غير النافلة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد.

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرني والدي الحافظ المقدسي قال: أنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بإصفهان قال: أنا إبراهيم بين عبد الله بن خرشيد قال: حدثنا الحسين بن

إسماعيل المحاملي قال: حدثنا أبو السائب قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عاصم عن مورق عن أنس قال:

كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار شديد الحر، فمنا من يتقي الشمس بيده، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركب، فقال رسول الله ﷺ « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .

وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة. والخادم له مقام عزيز يرغب فيه، فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس، ويتشبه بالخادم، وتصدى لخدمة الفقراء، ويدخل في مداخل الخدام بحسن الإرادة بطلب التأسي بالخدام، فتكون خدمته مشوبة، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه، وحسن إرادته في خدمة القوم، ومنها مالا يصيب فيه لما فيه من مزج الهوى، فيضع الشيء في غير موضعه.

وقد يخدم بهواه في بعض تصاريفه، ويخدم من لا يستحق الخدمة في بعض أوقاته، ويحب المحمدة والثناء من الخلق، مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى، وربما خدم للثناء، وربما امتنع من الخدمة في طرفي الرضا والغضب، لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى يخامره في حق من يلقاه بمكروه، ولا يراعي واجب الخدمة في طرفي الرضا والغضب، لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى. والخادم لا يتبع الهوى في الخدمة في الرضا والغضب، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويضع الشيء موضعه .

فإذن الشخص الذي وصفناه آنفاً متخادم وليس بخادم، ولا يميز بين الخادم والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه، ولا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزاج هواه، وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه، أو توفير رفق عليه، وهو يخدم لمنال يصيبه، أو حظ عاجل يدركه، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره، فلو انقطع رفقه ما خدم،

وربما استخدم من يخدم، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه في المحافل، يتكثر به، ويقيم به جاه نفسه بكثرة الاتباع والإشباع.

فهو خادم هواه، وطالب دنياه، يحرص نهاره وليله في تحصيل ما يقيم به جاهه، ويرضي نفسه وأهله وولده، فيتسع في الدنيا ويتزيا بغير زي الخدام والفقراء، وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ، ويستولى عليه حب الرياسة. وكلما كثر رفقه كثرت مواد هواه، واستطال على الفقراء، ويحوج الفقراء إلى التملق المفرط له تطلباً لرضاه، وتوقياً لضيمه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف. فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدماً، فليس بخادم ولا متخادم، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم، وبانتمائه إليهم. وقد أوردنا الخبر المسند الذي في سياقه: «هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم».

والله الموفق والمعين.

الباب الثاني عشر
في شرح خرقة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه، يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينه، يرشده ويهديه، ويعرفه طريق المواجيد، ويبصره بآفات النفوس، وفساد الأعمال، ومداخل العدو.

فيسلم نفسه إليه، ويستسلم لرايه، وويعمل به في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة، إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ، ودخوله في حكم الشيخ دخول في حكم الله وحكم رسوله، إحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ.

اخبرنا أبو زرعة قال: اخبرني والدى الحافظ المقدسي قال: انا ابو الحسن أحمد بن محمد البزاز قال: انا أحمد بن محمد أخي ميمي قال: حدثنا يحى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا عمرو بن على بن حفظة قال: سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: حدثنى عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال: اخبرني ابي عن ابيه قال « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وان لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كنا، ولا نخاف في الله لونم ».

ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة. والمقصود الكلي هو الصحبة، وبالصحبة يرجي للمريد كل خير.

روى عن أبي يزيد انه قال: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وحكى الأستاذ ابو القاسم القشيري عن شيخه أبي على الدقاق انـه قـال: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر. وهو كما قال.

ويجوز انها تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال، ولكن لا يكـون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين. والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون احسن حالا وأكثر ثمرة، لدخول التصرف فيه.

وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب المعلـم، واحـل مـا يقتلـه [1] بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيرا من المشايخ يقولون: من لم ير مفلحاً لا يفلح.

ولنا في رسول الله ﷺ اسوة حسنة. واصحاب رسول الله ﷺ تلقوا العلوم والآداب من رسول الله ﷺ ، كما روى عن بعض الصحابة « علمنا رسول الله ﷺ، كل شىء حتى الخراءة » .

فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه، وتـأدب بآدابـه، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس مـنَ سراج، وكلام الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ، وانسلخ من إرادة نفسه، وفنى في الشيخ بترك اختيار نفسه، فبالتألف الإلهى يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية، والطهارة الفطرية، ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متادباً بترك الاختيار، وحتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ.

ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ، والخرقة مقدمة ذلك.

---

(١) أى أحل أكل قتل صيد الكلب المعلم .

ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبي الفضل المقدسي قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الأديب النيسابوري.

قال: أنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قال: أنا محمد بن إسحاق

قال: أنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري قال: حدثتني أم خالد بنت خالد قالت « أتى النبي عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم، فقال رسول الله ﷺ ائتوني بأم خالد، قالت فأتى بي فألبسنيها بيده فقال أبلي واخلقي، يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر ويقول يا أم خالد هذا سناه، والسناه هو الحسن بلسان الحبشة.

ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التي يعتمدها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله ﷺ. وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما رويناه. والشاهد لذلك أيضاً التحكيم الذي ذكرناه. وأي اقتداء برسول الله ﷺ أتم وآكد من الاقتداء به في دعاء الخلق إلى الحق.

وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله ﷺ.

وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية أن الزبير بن العوام رضي الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة، والشراج مسيل

---

(١) سورة النساء آية: ٦٥.

الماء، كانا يسقيان به النخل، فقال النبي عليه السلام للزبير « اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فغضب الرجل وقال: قضى رسول الله لابن عمته فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيه الأدب مع رسول الله ﷺ، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الانقياد ظاهرا، ونفي الحرج، وهو الانقياد بطاناً.

وهذا شرط المريد مع الشيخ مع التحكيم. فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه، ويحذر الاعتراض على الشيوخ، فإنه السم القاتل للمريدين.

وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام، كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى، ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب في ذلك، فهكذا ينبغي للمريد ان يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ، عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة.

ويد الشيخ في لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ .

وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[1].

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة، ويعرفه حقوق الخرقة. فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية، والمراضي النبوية، ويعتقد المريد ان الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه، ومنه يدخل، وإليه يرجع، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم، ما ينزل المريد به، ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه.

---

(١) سورة الفتح آية: ١٠.

وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة، فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه، فهو أمانة الله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾[1].

فإرسال الرسول يختص بالأنبياء، والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراسخين في العلم.

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام، وقد سبق شرح الولادة المعنوية. فأوان الارتضاع وأوان لزوم الصحبة، والشيخ يعلم وقت ذلك، فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه. قال الله تعالى تأديباً للأمة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ ﴾[2].

وأي أمر جامع أعظم من أمر الدين، فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج، فقد بلغ أوان فطامه، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الإعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا متابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية، وهذا التلازم بصحبة المشايخ للمريد الحقيقي، والمريد الحقيقي يلبس خرقة الإرادة.

واعلم أن الخرقة خرقتان:

---

(١) سورة الشورى آية: ٥١.
(٢) سورة النور آية: ٦٢.

خرقة الإرادة.

وخرقة التبرك.

والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة، وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة. فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ، وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحين الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن، فقد يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه، ليرى بعين الزهادة، فأشد ما عليه لبس الناعم. وللنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من الملبوس في قصر الكم والذيل وطوله، وخشونته ونعومته، على قدر حسبانها وهواها فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها .

وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أو هيئة في الملبوس، تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها فتصرف الشيخ في الملبوس كتصرفه في المطعوم، وكتصرفه في صوم المريد وإفطاره، وكتصرفه في أمر دينه إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر، ودوام التنفل في الصلاة، ودوام التلاوة، ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك. فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1].

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٥.

فالحكمة ربة في الدعوة، والموعظة كذلك، والمجادلة كذلك، فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة، ومن يدعى بالموعظة لا تصلح دعوته بالحكمة. فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار، ومن هو على وضع المقربين، ومن يصلح لدوام الصلاة، ومن له هوى في التخشن أو في التنعم، فيخلع المريد من عادته، ويخرجه من مضيق هوى نفسه، ويطعمه باختياره، ويلبسه باختياره ثوباً يصلح له، وهيئة تصلح له، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة، داء هواه، ويتواخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه.

فالمريد الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحدة إرادته، كالمسموم الحريص على من يرقيه ويداويه، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لا طلاعه عليه، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتآلف القلوب وتسام الأرواح، وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهم لله وفي الله وبالله، فيكون القميص الذي يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به، فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام.

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام اتى بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، وكان ذلك عند ابراهيم عليه السلام ذلك القميص في تعويذ وجعله في عنق يوسف، فكان لا يفارقه، لما ألقى في البئر عرياناً جاءه جبريل وكان عليه التعويذ، فاخرج القميص منه وألبسه إياه[1].

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو سعد محمد بن أبي العباس قال: أنا القاضي محمد بن سعيد قال: أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال: أخبرني ابن فنجوية الحسين بن محمد قال:

---

(١) ، (٢) هذه روايات لا سند لها ، وكيف ألبس ابراهيم عليه السلام القميص ليوسف وقد مات قبل أن يولد يوسف.

حدثنا مخلد بن جعفر قال: حدثنا الحسن بن علوية قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدثنا إسحاق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال: كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لا يرد على يعقوب بصره، ولكن ذلك كان قميص إبراهيم، وذكر ما ذكرناه. قال: فامره جبرائيل ان ار سل بقميصك فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفي. فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحمله إليه عرف الجنة لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله. فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزي القوم، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة ليعود عليه بركتهم، ويتأدب بأيديهم، فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة.

فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب، وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب.

ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ في الخرقة، فإن راي شيخ أن يلبس مريداً غير الأزرق فليس لأحد ان يعترض عليه، لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت.

وكان شيخنا يقول: كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة.

ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقاً في دفعات على قدر ما يتلمح من المصلحة للمريد في ذلك، على ما أسلفناه من تداوى هواه في الملبوس والملون فيختار الأزرق لأنه أوفق للفقير، لكونه يحمل الوسخ، ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب، وما عدا هذا من الوجوه التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إقناعي من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشيء.

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الهمداني رحمه الله قال: كنت ببغداد عند أبي بكر الشروطي، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء: لم لا تغسل ثوبك ؟ فقال: يا أخي ما أتفرغ، لأنه كان صادقاً في ذلك، فأجد لذة لقوله وبركة بتذكاري ذلك، فاختاروا الملون لهذا المعنى، لأنهم من رعاية وقتهم في شغل شاغل، وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك، فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه. وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة، ويؤخذ منه العلوم والآداب.

وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع، ومن لا يلبسها فله رأيه وله في ذلك مقصد صحيح. وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب، ولا تخلو عن نية صالحة فيه.

والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث عشر
في فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1].

قيل: إن هذه البيوت هي المساجد، وقيل: بيوت المدينة، وقيل: بيوت النبي عليه الصلاة والسلام.

وقيل: لما نزلت هذه الآية قام ابو بكر رضي الله عنه وقال يا رسول الله: هذه البيوت منها بيت علي وفاطمة؟ قال: نعم افضلها.

وقال الحسن: بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله ﷺ .

فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لا بصور البقاع. واي بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه انه قال: ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً: هل مر بك اليوم احد صلى عليك او ذكر الله عليك؟ فمن قائلة نعم، ومن قائلة لا، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلاً. وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض، او صلى الله عليها، إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ... ﴾[2] تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من اهل طاعته، لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى. فسكان الرباط هم الرجال، لأنهم

---

(١) سورة النور: الآية ٣٦-٣٧.

(٢) سورة الدخان: الآية ٢٩.

ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى، وانقطعوا إلى الله، فأقام لهم الدنيا خادمة.

روى عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ "من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها".

وأصل الرباط ما يربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد.

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس الخليلي قال: أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفراخزاذي قال: أنا أبو اسحاق أحمد بن محمد قال: أنا الحسين بن محمد قال: حدثنا أبو بكر بن خرجة قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبو حميد الحمصي قال: حدثنا يحيى بن سعيد القطار قال: حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقه عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء».

وروى عنه ﷺ انه قال: «لولا عباد لله ركع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صباً، ثم يرض رضاً».

وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم».

وروى داود بن صالح قال: قال لي ابو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي هل تدري في اي شيء نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ

وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ...﴾[1] قلت لا، قال: يا ابن أخي لم يكن يسكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. فالرباط لجهاد النفس، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه. قال الله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ... ﴾.[2]

قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وذلك حق الجهاد، وهو الجهاد الأكبر على ما روى في الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وقيل إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه: يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، والباب عليَّ مردود. فكتب إليه أخوه: لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلا بد من الغزو والجهاد. فكتب إليه: يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجادتهم: الله أكبر انهدم سور قسطنطينية.[3]

وقال بعض الحكماء: ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات على الوجه الموضوع له الربط، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات، وتوقي ما يفسد الأعمال، واعتماد ما يصحح الأحوال، عادت البركة على البلاد والعباد.

قال سري السقطي في قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) لا بد من الأخذ بالأسباب، والانضمام إلى جند المسلمين والجهاد في سبيل الله سبب في النصر على الأعداء لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [سورة الأنفال آية: ٦٠]

ورابطوا أهواء النفس اللوامة، واتقوا ما يعقب لكم الندامة، لعلكم تفلحون غدا على بساط الكرامة.

وقيل: اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، رابطوا في دار أعدائي، واتقوا محبة من سوائي، لعلكم تفلحون غدا بلقائي.

وهذه شرائط ساكن الرباط، قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب[١] اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات، وعانق ليله ونهاره العبادة، متعوضاً بها عن كل عادة، شغله حفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وانتظار الصلوات، واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطاً مجاهدا.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أنا ابن نبهان محمد الكاتب قال: أنا الحسن بن شاذان قال: أنا دعلج قال: أنا البغوي، عن أبي عبيد القاسم ابن سلام قال: حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إسباغ الوضوء في المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، يغسل الخطايا غسلا».

وفي رواية: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا وترفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء في المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

---

(١) من السنة أن يأكل الرجل من عمل يده لأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده كما جاء في الحديث الشريف.

الباب الرابع عشر
في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى: ﴿ ... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

هذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم: ماذا كنتم تصنعون حتى اثنى الله عليكم بهذا الثناء؟ قالوا: كنا نتبع الماء الحجر.

وهذا وأشباه هذا من آداب وظيفة صوفية الربط، يلازمونه ويتاهدونه. والرباط بيتهم ومضربهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم.

وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أحمد بن محمد البزازي قال: أنا عيسى بن علي الوزير قال: حدثنا عبد الله البغوي قال: حدثنا وهبان بن بقية قال: حدثنا خالد بن عبد الله عن داود ابن أبي هند عن أبي الحارث حرب بن أبي الأسود، عن طلحة رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة، وكنت فيمن نزل الصفة. فالقوم في الرباط مرابطون، متفقون على قصد واحد، وعزم واحد، وأحوال متناسبة.

ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[2] والمقابلة باستواء السر والعلانية، ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٧.

فأهل الصفة هكذا كانوا، لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا، وحب الدنيا راس كل خطيئة.

فأهل الصفة رفضوا الدنيا، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع، فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم، وهكذا أهل الربط، متقابلون بظواهرهم وبواطنهم، مجتمعون على الألفة والمودة، يجتمعون للكلام، ويجتمعون للطعام، ويتعرفون بركة الاجتماع.

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده انهم قالوا يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تفترقون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه».

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، فقيل: فعلى اي شيء كانوا يأكلون؟ قال: على السفر.

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع، وكون نفوسهم تفتلق للأهوية والخوض بما لا يعني، فرأوا السلامة في الوحدة.

والصوفية لقوة عملهم، وصحة حالهم، نزع عنهم ذلك، فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة. فسجادة كل واحد زاويته، وهم كل واحد مهمة، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة.

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرا من الليف يصلى عليه من الليل.

وروت ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ تبسط له الخمرة في المسجد حتى يصلى عليها.

والرباط يحتوي على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة.

فالمشايخ بالزوايا أليق نظرا إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة، والاستبداد بالحركات والسكنات، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق، والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة، والانكشاف لنظر الأغيار، لتكثر العيون عليه، فيتقيد ويتأدب، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات، وضبط الأنفاس، وحراسة الحواس، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض، وهكذا ينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللغط، فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة، ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع خلوته، ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس، وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع، فينضبط به الغير، ولا يتكدر هو.

وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا، ولم يذق طعم العاملة، ولم يتنبه لنفائس الأحوال أن يؤمر بالخدمة، لتكون عبادته خدمته، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه، فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون أخوة، يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج، فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج، يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة».

فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب. والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح، وهي طريق من طرق المواجيد، تكسبهم الأوصاف الجميلة، والأحوال الحسنة، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم، ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم.

اخبرنا الشيخ الثقة ابو الفتح قال: انا ابو الفضل حميد بن احمد قال: انا الحافظ ابو نعيم قال: حدثنا سليمان بن احمد قال: حدثنا علي بن عبد العزيز قال: حدثنا ابو عبيد قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن شريك، عن ابي هلال الطائي، عن وثيق بن الروهي قال: كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يقول لي: اسلم فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أماناتهم بمن ليس منهم. قال فابيت. قال عمر: لا إكراه في الدين. فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال: اذهب حيث شئت.

فالقوم يكرهون خدمة الأغيار، ويأبون مخالطتهم، فإن من لا يحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع، فإنهم بشر وتبدو منهم امور بمقتضى طبع البشر وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم، فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق لا من طريق التعزز والترفع على أحد من المسلمين.

والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته، يشاركهم في الثواب، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية، يخدم من أهل لها، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى.

أخبرنا الثقة ابو الفتح محمد بن سليمان قال: انا ابو الفضل حميد بن أحمد قال: انا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا ابو بكر بن خلاد قال: حدثنا الحارث ابن أبي أسامة قال: حدثنا معاوية بن عمرو قال: حدثنا ابو اسحاق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: - لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قال حين دنا من المدينة: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، قالوا: وهم في المدينة؟ قال: نعم حبسهم العذر».

فالقائم بخدمة القوم، تعوق عن بلوغ درجتهم بعذر القصور وعدم الأهلية، فحام حو الحمى باذلاً مجهوده في الخدمة، يتعلل بالأذر حيث منع النظر، فجزاء الله على ذلك أحسن الجزاء، وأنا له من جزيل العطاء، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى، ويجتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن.



الباب الخامس عشر
في خصائص أهل الربط والصوفية
فيما يتعاهدون ويختصون به

اعلم ان تاسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية. ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف، وهم على هدى من ربهم.

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1]

وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا، والتخلف عن طريق سلفهم، لا يقدح في اصل امرهم وصحة طريقهم. وهذا القدر الباقي من الأثر، واجتماع المتصوفة في الربط، وما هيأ الله تعالى لهم من الرفق، بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين وأثر من آثار منح الحق في حقهم.

وصورة الاجتماع في الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب، عكس نور الجمعية من بواطن الماضين، وسلوك الخلف في مناهج السلف، فهم في الربط كجسد واحد بقلوب متفقة، وعزائم متحدة، ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف. قال الله تعالى في وصف المؤمنين ﴿ ... كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2]، وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال ﴿ ... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ... ﴾[3].

روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون».

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٢) سورة الصف: الآية ٤.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٤.

فالصوفية وظيفتهم الملازمة من حفظ اجتماع البواطن، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا، وبمشاهدة القلوب تواطؤا، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا، فلا بد لهم من التآلف والتودد والنصح.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف و يؤلف».

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال: حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب قال: أنا أحمد بن الحسين الحيرى قال: أنا أبو سهل بن زياد القطان قال: حدثنا الحسين بن مكرم قال: حدثنا يزيد ابن هارون الواسطي قال: حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم، وتتقيد نفوسهم، لأن بعضهم عين على البعض، على ما ورد: «المؤمن مرآة المؤمن» فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة ناقروه، لأن التفرقة تظهر بظهور النفس، وظهور النفس من حق تضييع الوقت. فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه عن دائرة الجمعية، وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيقاد بالمناقرة إلى دائرة الجمعية.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة قال: أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال: أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت رويماً يقول: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا هلكوا.

وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس. يقول إذا اصطلحوا أو رفعوا المناقرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساهلة المرآة، ومسامحة البعض البعض في إهمال دقيق آدابهم وبذلك تظهر النفوس وتستولي. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرا أهدى إلى عيوبي.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروي قال: أنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال: أنا أبو القاسم البغوي قال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن بن شهاب أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال: فسكتنا. قال: فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال بشر بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح. فقال عمر: أنتم إذن أنتم.

وإذا ظهرت نفس الصوفي بغضب وخصومة مع بعض الإخوان، فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب، فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة، وذهبت العصمة. قال الله تعالى: ﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾[1].

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء، فيقول للمعتدي لم تعديت، وللمعتد عليه ما الذي أذنبت حتى تعدى عليك، وهلا قابلت نفسه بالقلب رفقاً بأخيك، وإعطاء للفتوة والصحبة حقها. فكل منهما جان وخارج عن دائرة الجمعية، فيرد إلى الدائرة بالنقار، فيعود إلى الاستغفار، ولا يسلك طريق الإصرار.

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤.

روت عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤا استغفروا».

فيكون الاستغفار ظاهراً مع الإخوان، وباطناً مع الله تعالى، ويرون الله في استغفارهم. فلهذا المعنى يقفون في صف النعال على أقدامهم تواضعاً وانكساراً.

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة: قم واستغفر، فيقول الفقير ما أرى باطني صافياً ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهراً من غير صفاء الباطن، فيقول للآخر انت قم فببركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء، فكان يجد ذلك، ويرى أثره عند الفقير، وترق القلوب وترتفع الوحشة. وهذا من خاصية هذه الطائفة، لا يبيتون والبواطن منطوية على وحشة، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة، ولا يرون الاجتماع ظاهراً في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره بحال.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم».

وللصوفية في تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة.

روى عبد الله بن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو دخلنا المدينة فتبنا فيها، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من القوم؟ قلنا: نحن الفرارون، قال: لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم أنا فئة المسلمين، يقال عكر الرجل إذا تولى ثم كر راجعاً

والعكار العطاف والرجاع. قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قبل يد عمر عند قدومه.

وروى عن أبي مرثد الغنوي أنه قال: أتينا رسول الله ﷺ فنزلت إليه وقبلت يده. فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد. ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد، ومعانقتهم للإخوان عقيب الاستغفار لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة، وقدومهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية، فبظهور النفس تغربوا وبعدوا، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا وراجعوا. ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك وعيد. روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس».

وروى جابر أيضاً عن رسول الله ﷺ: «من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد الحوض».

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئاً بعد الاستغفار. روى أن كعب بن مالك قال للنبي ﷺ: إن من توبتي أن أخلع من مالي كله، وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الذنب، فقال له النبي ﷺ: «يجزيك من ذلك الثلث».

فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمنافرة، وكل قصدهم رعاية التآلف حتى يكون بواطنهم على الاجتماع، كما أن ظواهرهم على الاجتماع، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام.

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة، أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب، وإلا إذا كان للبطالة والخوض فيما لا يعني عنده مجال، ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجسد والاجتهاد، فلا ينبغي له أن يأكل من مال

الرباط، بل يكتسب ويأكل من كسبه، لأن طعام الرباط لأقوام كمل شغلهم بالله، فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم، إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق، ينتفع بصحبته، ويهتدى بهديه، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة.

ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية أن يشغله بخدمة الفقراء، فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته.

روى عن أبى عمرو الزجاجي قال: أقمت عند الجنيد مدة فما رآنى قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة، فما كلمنى، حتى كان يوم من الأيام خلا الموضع من الجماعة، فقمت ونزعت ثيابي وكنست الموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار، فدعا لى ورحب بي وقال: أحسنت، عليك بها ثلاث مرات. ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة.

روى أبو محذورة قال: جعل رسول الله ﷺ لنا الأذان، والسقاية لبني هاشم، والحجابة لبني عبد الدار.

وبهذا يقتدي مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء، ولا يعذر في ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته، ولا نعني بكامل الشغل شغل الجوارح، ولكن نعني به دوام الرعاية والمحاسبة، والشغل بالقلب والقالب وقتاً، وبالقلب دون القالب وقتاً، وتفقد الزيادة من النقصان، فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام، وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية، وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة قال: أنا عمر ابن أحمد بن منصور قال: أنا أحمد بن خلف قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن

محمد بن الحسين قال: سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول: سمعت على بن عبد الحميد الفضائرى يقول: سمعت السري يقول: من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.

وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط، ولا يعذر الشاب. هذا في شرط طريق القوم على الإطلاق، فأما من حيث فتوى الشرع فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزيا بزي المتصوفة وعلى خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على إطلاق الفتوى، وفي ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التي هي شغل أهل الإرادة، وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملاً وحالاً فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات، وطرق أهل الإرادة عند مشايخ الصوفية مشهورة.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال: أنا أبو الفضل حميد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف قال: حدثنا جعفر الفرياني قال: حدثنا محمد بن الحسين البلخي بسمرقند قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا سعيد بن أبي أيوب الخزاعي قال: حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي سليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الفرس في آخيته، يجول ويرجع إلى آخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين».

الباب السادس عشر
في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية، فمنهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته، ومنهم من قام في بدايته وسافر في نهايته، ومنهم من اقام ولم يسافر، ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة.

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام.

فاما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده بالسفر لمعان: منها تعلم شيء من العلم. قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وقال بعضهم: لو سافر رجل من الشام إلى اقصى اليمن في كلمة تدله على هدي ما كان سفره ضائعاً.

ونقل ان جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهرٍ لحديث بلغه أن انساً يحدث به عن رسول الله ﷺ .

وقد قال عليه السلام: «من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿السائحون﴾ إنهم طلاب العلم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال: أنا ابو الفتح عبد الملك الهروي قال: أنا أبو نصر الترياقي قال: أنا الجراحي قال: أنا أبو العباس المحبوبي قال: أنا ابو عيسى الترمذي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا ابو داود عن سفيان عن ابي هارون قال: كنا نأتي ابا سعيد فيقول

مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن النبي عليه السلام قال: «إن الناس لكم تبع، وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

وقال عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أوحى إليّ أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة».

ومن جملة مقاصدهم في البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين. فللمريد بلقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال.

وقد قيل: من لا ينفعك لحظة[1] لا ينفعك لفظة.

وهذا القول فيه وجهان: أحدهما: أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره، وخلوته وجلوته، وكلامه وسكوته، ينتفع بالنظر إليه، فهو نفع اللحظ، ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتكلم بهواه. ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها.

والوجه الثاني: أن نظر العلماء الراسخين في العلم والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنفوذ بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق من المريدين، وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة، وهم من جنود الله تعالى، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية ويهبون آثاراً مرضية.

---

(١) أي أن يكون قدوة حسنة، فمن خالف قوله فعله لا ينفع غيره ولا يؤخذ عنه.

وماذا ينكر المنكر من قدرة الله أن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره، أن يجعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة.

وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف في مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس، فقيل له في ذلك، فقال: لله عباد إذا نظروا إلى الشخص أكسبوه سعادة، فأنا أتطلب ذلك.

ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع المألوفات، والانسلاخ من ركون النفس إلى معهود ومعلوم، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الإلاف والخلان، والأهل والأوطان، فمن صبر على تلك المألوفات محتسباً عند الله أجرا فقد حاز فضلاً عظيما.

أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال: أنا القاضي أبو منصور محمد بن أحمد الفقيه الأصفهاني قال: أنا أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيذ قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زيادة النيسابوري قال: حدثنا يونس بن عبد الله الأعلى قال: حدثنا أبو وهب قال: حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مات رجل بالمدينة ممن ولد بها، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليته مات بغير مولده» قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة».

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس، واستخراج رعوناتها ودعاويها، لأنها لا تكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر. وسمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق، وإذا وقف على دائه يتشمر لدوائه.

وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدي كأثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك، وذلك أن المتنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان

الغفلات إلى محل القربات، والمسافر يقطع للمسافات، ويتقلب في المفاوز والفلوات، بحسن النية لله تعالى، سائراً إلى الله تعالى، بمراغمة الهوى، ومهاجرة ملاذ الدنيا.

أخبرنا شيخنا إجازة قال: أنا عمر بن أحمد قال: أنا أحمد بن محمد بن خلف قال: أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت عبد الواحد بن بكر يقول: سمعت على بن عبد الرحيم يقول: سمعت النوري يقول: التصوف ترك كل حظ النفس.

فإذا سافر المبتدي تاركاً حظ النفس، تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجليلة، والعفونة الطبيعية، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان.

ومن جملة المقاصد في السفر رؤية الآثار والعبر، وتسريح النظر في مسارح الفرج، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال، ومواطئ أقدام الرجال، واستماع التسبيح من ذرات الجمادات، والفهم من لسان حال القطع المتجاوزات، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات. قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾[1].

وقد كان السري يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء ودخل آذار وأورقت الأشجار طاب الانتشار.

ومن جملة المقاصد بالسفر إيثار الخمول، وإطراح حظ القبول، فصدق الصادق يتم على أحسن الحال، ويرزق من الخلق حسن الإقبال، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص و قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق حتى

---

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣.

سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم أنه قال: أريد إقبال الخلق عليّ لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى فإني لا أبالي أقبلوا أو أدبروا.

ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال، فإذا ابتلى المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق، وربما يفتح عليه باب من الرفق، وتدخل النفس عليه من طريق البر والدخول في الأسباب المحمودة، وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الموجود، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب، واستجلاء قبول الخلق، وربما قويا عليه فجراه إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الراقع.

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له: أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر، ولكن يدخل عليك من طريق الخير.

وهذا مزلة عظيمة للأقدام، فالله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلي بشيء من ذلك، ويزعجه بالعناية السابقة، والمعونة اللاحقة إلى السفر، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه، ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين.

فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم، ما عدا الحج، والغزو، وزيارة بيت المقدس.

وقد نقل أن ابن عمر خرج من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس، وصلى فيه الصلوات الخمس، ثم أسرع راجعاً إلى المدينة من الغد.

ثم إذ من الله على الصادق بأحكام أمور بدايته، قلبه في الأسفار ومنحه الحظ من الاعتبار، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته، واستفاد من مجاورة الصالحين، وانتقش في قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين، وتعطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته،

وسير أحوال النفس، وأسفر السفر عن دقائق أخلاقها وشهواتها الخفية، وسقط عن باطنه نظر الخلق، وصار يغلب ولا يغلب كما قال الله تعالى إخبارا عن موسى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

فعند ذلك يرده الحق إلى مقامه، ويمده بجزيل إنعامه، ويجعله إماماً للمتقين، به يقتدي، وعلماً للمؤمنين، به يهتدي.

وأما الذي أقام في بدايته، وسافر في نهايته، يكون ذلك شخصاً يسر الله له في بداية أمره صحبة صحيحة، وقيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق، ويدرجه إلى منازل التحقيق، فيلازم موضع إرادته، ويلتزم بصحبته من يرده عن عادته.

وقد كان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فحرام عليك أن تحضرني. فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر. فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها.

أخبرنا رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال: سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول: سمعت عياش بن أبي الصخر يقولك سمعت أبا بكر الزقاق يقول: لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية، والعزائم القوية، يحرم عليه المفارقة واختيار السفر.

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١.

ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء، وارتوى من الأحوال، وبلغ مبلغ الرجال، وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة، وصارت نفسه مكسبه للسعادات، يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في أقطار الأرض وشاسع البلدان، يشرئب إلى التلاق، وينبعث إلى الطواف في الآفاق، يسيره الله تعالى في البلاد لفائدة العباد، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق، والمتعطلين إلى من يخبر عن الحق، ويبذر في أراضي القلوب بذر الفلاح، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح.

وهذا مثل هذه الأمة الهادية فالأمة الهادية في الإنجيل: ﴿...كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ...﴾.[1] تعود بركة البعض على البعض، وتسري الأحوال من البعض إلى البعض، ويكون طريق الوراثة معمورا، وعلم الإفادة منشورا.

أخبرنا شيخنا قال: أنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه، أنا أبو بكر البيهقي قال: أنا أبو علي الروذبادي قال: حدثنا أبو بكر بن داسته قال: حدثنا أبو داود قال: أنا يحيى بن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى، وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته.

وقد ورد: جذبه من جذبات الحق توازي عمل الثقلين.

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

ثم لما علم منه الصدق، ورأى حاجته إلى من ينتفع به، ساق إليه بعض الصديقين حتى أيده بلطفه ولفظه، وتداركه بلحظه ولقحه وبقوة حاله، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية في الصاحب والمصحوب، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب حقها لإقامة رسم الحكمة، يحوج إلى يسير الصحبة، فيتنبه بالقليل للكثير، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة العبر والآثار، كما قال بعضهم: الناس يقولون: افتحوا أعينكم وأبصروا، وأنا أقول: أغمضوا أعينكم وأبصروا.

وسمعت بعض الصالحين يقول: لله عباد طور سيناهم ركبهم، تكون رؤوسهم على ركبهم، وهم في مجال القرب، فمن نبع له معين الحياة في ظلمة خلوته، فماذا يصنع بدخول الظلمات، ومن أندرجت له أطباق السماوات في طي شهوده ماذا يصنع بتقلب طرفه في السموات، ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات ماذا يستفيد من طي الفلوات، ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الأرواح ماذا تفيده زيارة الأشباح.

قيل: أرسل ذو النون المصري إلى ابي يزيد رجلاً وقال قل له: إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة؟ فقال للرسول: قل لأخي: الرجل من ينم الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة، فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا.

وكان بشر يقول: يا معشر الفقراء سيحوا تطيبوا، فإن الماء إذا كثر مكثه في موضع تغير.

وقيل: قال بعضهم عند هذا الكلام: صر بحرا حتى لا تتغير، فإذا أدام المريد سير الباطن بقطع مسافة النفس الامارة بالسوء حتى قطع منازل آفاتها، وبدل أخلاقها المذمومة بالمحمودة، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص، اجتمع له المتفرقات، واستفاد في حضره أكثر من

سفره، لكون السفر لا يخلو من متاعب وكلف ومشوشات، وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء، ولا يقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذي زكى عنده رجلاً: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

فإذا حفظ الله عبده في بداية أمره من تشويش السفر، ومنعه بجمع الهم وحسن الإقبال في الحضر، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال، فقد أحسن إليه.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[١] هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شيء من أمر الدين، فيبعث الله إليه من يحل إشكاله. فإذا ثبت قدمه على شروط البداية، رزق وهو في المقام من غير سفر ثمرات النهاية، فيستقر في الحضر انتهاء وابتداء، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين.

وأما الذي أدام السفر، فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك.

يقول بعضهم: اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد، ولا تموت بين منزلين.

وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص، ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله، فكان علم الناس ومعرفتهم إياه يراه سبباً ومعلوماً.

وحكى عنه أنه قال: مكثت في البادية أحد عشر يوماً لم آكل، وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر، فرأيت الخضر مقبلاً نحوي،

---

(١) سورة الطلاق، الآيات ٢ - ٣.

فهربت منه، ثم التفت فإذا هو رجع عني، فقيل، لم هربت منه؟ قال: تشوفت نفسي أن يغيثني. فهؤلاء الفرارون بدينهم.

اخبرنا ابو زرعة طاهر بن الحافظ ابي الفضل المقدسي عن ابيه قال: انا ابو بكر احمد بن علي قال، انا ابو عبد الله بن يوسف بن تامويه قال: حدثنا ابو محمد الزهري القاضي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن اسباط قال: حدثنا ابو نعيم قال، حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن عثمان بن عبد الله بن اوس، عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «احب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة».

وهذه كلها احوال اختلفت، واتبع اربابها الصحبة وحسن النية مع الله، وحسن النية يقتضي الصدق، والصدق لعينة محمود، كيف تقلبت الأحوال.

فمن سافر ينبغي أن يتفقد حاله، ويصحح نيته، ولا يقدر على تخليص النية من شوائب النفس إلا كثير العلم، تام التقوى، وافر الحظ من الزهد في الدنيا.

ومن انطوى على هوى، ومن لم يستقص في الزهد لا يقدر على تصحيح النية فقد يدعوه إلى السفر نشاط جبلي نفساني، وهو يظن أن ذلك داعية الحق، ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس، ويحتاج الشخص في علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه. ونومئ الآن إلى ذلك برمز يدركه من نازله شيء من ذلك، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته عن بعد.

اعلم ان ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير في كثير من الأمور، فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين، ويكون ذلك

الروح مضراً بـه في ثـاني الحـال، وإن كـان يـتراءى لـه طيبـة القلـب في الوقـت، وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تتفسح وتتسع ببلوغ غرضـها، وتيسير يسير هواها بـالخروج إلى الصحـراء والتـنزه، وإذا اتسعت بعـدت عـن القلـب، وتنحت عنه، متشوقة إلى متعلق هواها، فيتروح القلب لا بالصحراء بـل ببعـد النفس منه، كشخص تباعد عنه قرين يستثقله.

ثـم إذا عـاد الفقـير إلى زاويتـه، واستفتح ديـوان معاملتـه، وميـز دسـتور حاله، يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لتبرمه بها، وكلمـا ازداد ثقلها تكـدر القلـب. وسـبب زيـادة ثقلـها استرسـالها في تنـاول هواهـا، فيصـير الخروج إلى الصحراء عين الداء، ويظن الفقير أنه ترويـح ودواء، فلـو صبر علـى الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباناً، وخفت ولطفت وصـارت قرينـاً صـالحاً للقلب لا يستثقلها.

وعلـى هـذا يقـاس الـتروح بالأسفار. فللنفـس وثبـات إلى تـوهـم الـتروحـات، فمن فطن لهذه الدقيقة لا يغتر بالتروحـات المستعارة الـتي لا تحمـد عاقبتـها، ولا تؤمن غائلتها، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر، ولا يكـترث بـالخطر، بـل يطرحه بعدم الالتفات، مسيئاً ظنه بالنفس وتسويلاتها.

ومن هـذا القبيـل والله اعلـم قـول رسـول الله ﷺ: «إن الشـمس تطـلع مـن بين قرني الشيطان» فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات، تستند تلـك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع، ويطول شرح ذلك ويعمق.

ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة بخلاف العشيات، فيتشـكل اهتزاز النفس بنـهضات القلب، ويدخـل علـى الفقـير مـن هـذا القبيـل آفـات كثيرة، يدخل في مداخل باهتزاز نفسه ظناً منه ان ذلك حكم نهوض قلبه، وربما يتراءى له أنه بالله يصول، وبالله يقول، وبالله يتحرك، فقد ابتلي بنهضة النفس ووثوبها.

ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل. وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه.

وأقر مراتب الفقراء في مبادئ الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره، أو تبين له وجه المصلحة في السفر ببيان أوضح من الخاطر، فللقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر ومما فوق ذلك، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعاً للسنة ففي ذلك البركة.

وهو من تعليم رسول الله ﷺ على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال: أنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه أن أبا السعيد الكنجرودي أخبرهم قال: أنا أبو عمرو بن حمدان قال: حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي قال: حدثنا منصور بن أبي مزاحم قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال: «إذا همّ أحدكم بالأمر أو أراد الأمر فليصل ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا اقدر، وتعلم ولا أعلم، وانت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر -يسميه بعينه- خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة امري، او قال عاجل امري وأجله، فاقدره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرا لي مثل ذلك فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان».

الباب السابع عشر
فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره
من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه، وهذا الكتاب غير موضوع لذلك، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمناً بذكر الأحكام الشرعية التي هى الأساس الذي يبنى عليه:

لا بد للصوفي المسافر من علم التيمم، والمسح على الخفين، والقصر، والجمع في الصلاة.

أما التيمم فجائز للمريض والمسافر في الجنابة والحدث عند عدم الماء، أو الخوف من استعماله تلفاً في النفس أو المال، أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذاهب، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه، أو عطش دابته أو رفيقه. ففي هذه الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه، والخائف من البرد يصلي بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح.

ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب، ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر في منزلة للاحتطاب والاحتشاش، ويكون الطلب بعد دخول الوقت، والسفر القصير في ذلك كالطويل. وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء في آخر الوقت جاز على الأصح، ولا يعيد مهما صلى بالتيمم، وإن كان الوقت باقياً ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك، وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة، ويستحب له الخروج منها واستئنافها بالوضوء على الأصح.

ولا تيمم للفرض قبل دخول الوقت، ويتيمم لكل فريضة، ويصلي مهما شاء من النوافل بتيمم واحد. ولا يجوز أداء الفرض بتيمم النافلة. ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصلي ويعيد عند وجود أحدهما، ولكن إن كان محدثاً لا يمس المصحف، وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة. ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والجص، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب، ويسمي الله تعالى عند التيمم، وينوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب، وضم أصابعه لضربه الوجه ويمسح جميع الوجه، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم، ويضرب ضربه لليدين مبسوط الأصابع، ويعم بالتراب مح الفرض، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعدا كيف أمكنه لا بد أن يعم التراب محل الفرض، ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين، ومر اليد على ما نزل من اللحية من غير إيصال التراب إلى المنابت.

وأما المسح فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر، والمقيم يوماً وليلة، وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف. لا من حين لبس الخف، ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف بل يحتاج إلى كمال الطهارة حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف.

ويشترط في الخف إمكان متابعة المشي عليه، وستر محل الفرض، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار. ومتى ارتفع حكم المسح بانقضاء المدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح. والماسح في السفر إذا أقام يمسح كالمقيم، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر.

واللبد إذا ركب جورباً ونعل يجوز المسح عليه، ويجوز على المشرج إذا ستر محل الفرض، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة.

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويتيمم لكل واحدة، ولا يفصل بينهما بكلام غيره. وهكذا الجميع بين المغرب والعشاء، ولا قصر في المغرب والصبح، بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع.

والسنن والرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر، وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضة من الظهر ركعتين او اربعاً، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدى السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما.

ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازي، ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة، وفي الركوع والسجود الإيماء، ويكون إيماء السجود اخفض من الركوع إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون في محارة وغير ذلك، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة، حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته.

والماشي ينتقل في السفر، ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام، لا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود. وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام ايضاً.

وإذا أصبح المسافر مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام. والصوم في السفر افضل من الفطر. وفي الصلاة القصر افضل من الإتمام.

فهذا القدر كاف للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره.

فأما المندوب والمستحب فينبغي ان يطلب لنفسه رفيقاً في الطريق يعينه على أمر الدين. وقد قيل: الرفيق ثم الطريق. ونهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، إلا أن يكون صوفياً عالماً بآفة نفسه، يختار الوحدة على بصيرة من أمره، فلا بأس بالوحدة.

وإذا كانوا جماعة ينبغي أن يكون فيهم متقدم أمير. قال رسول الله ﷺ «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم» والذى يسميه الصوفية يبشر وهو الأمير، وينبغي أن يكون الأمير أزهد الجماعة فى الدنيا، وأوفرهم حظاً من التقوى، وأتمهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة.

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه».

نقل عن عبد الله المروزي أن أبا على الرباطى صحبه فقال: على أن أكون أنا الأمير أو أنت؟ فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي على على ظهره، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يغطيه بكسائه عن المطر، وكلما قال لا تفعل يقول ألست الأمير وعليك الانقياد والطاعة.

فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز، ليتسلط على الخدام في الربط، ويبلغ نفسه هواها، فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المباينين لطريق الصوفية، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا، فيتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا، يجتمعون لتحصيل أغراض النفس، والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس، ولا يخلوا اجتماعهم هذا عن الخوض في الغيبة، والدخول في المداخل المكروهة، والتنقل في الربط، والاستمتاع والنزهة، وكلما كثر المعلوم في الرباط أطالوا

المقام وإن تعذرت أسباب الدين، وكلما قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين، وليس هذا طريق الصوفية.

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ويدعو لهم بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة فلما أردت مفارقته شيعني وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال لقمان لابنه يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه، وإني استودع الله دينك وامانتك وخواتم عملك».

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد أحدكم سفرا فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل في دعائهم البركة».

وروى عنه عليه السلام أيضاً أنه كان إذا ودع رجلاً قال: «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ووجهك للخير حيثما توجهت».

وينبغي أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه، فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطي الناس عطاياهم إذا جاء رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت احدا أشبه بأحد من هذا بك.

فقال الرجل: احدثك عنه يا أمير المؤمنين إني اردت ان اخرج إلى سفر وأمه حامل به، فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة؟ فقلت: استودع الله ما في بطنك، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت، فجلسنا نتحدث، فإذا نار تلوح على قبرها، فقلت للقوم: ما هذه النار ؟ فقالوا: هذه من قبر فلانة نراها كل ليلة، فقلت: والله إنها كانت صوامة قوامة، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج، وإذا هذا الغلام يدب، فقيل: إن هذا وديعتك، ولو

كنت استودعتنا امه لوجدتها[1]. فقال عمر: لهو اشبه بك من الغراب بالغراب.

وينبغي ان يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول: اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنوبي، ووجهني للخير اينما توجهت.

وروى انس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ لا ينزل منزلا إلا ودعه بركعتين.

فينبغى أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين.

وإذا ركب الدابة فليقل: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، بسم الله والله أكبر توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم انت الحامل على الظهر، وأنت المستعان على الأمور.

والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدئ بيوم الخميس.

روى كعب بن مالك قال: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس. وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار.

ويستحب كلما اشرف على منزل أن يقول: اللهم رب السموات وما اظللن، ورب الأرضين وما اقللن، ورب الشياطين، وما اضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسالك خير هذا المنزل وخير اهله، واعوذ بك من شر هذا المنزل وشر اهله. وإذا نزل فليصل ركعتين.

ومما ينبغي للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة.

قيل: كان إبراهيم الخواص لا يفارقه اربعة أشياء فى الحضر والسفر: الركوة، والحبل، والإبرة وخيوطها، والمقراض.

---

(١) لا دليل يسند هذا الخبر، لأن المتعارف عليه: ان القبر لا يوجد بداخله هواء فاي حي يدفن ويغلق عليه القبر يموت.

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: المرآة، والمكحلة، والمدرى، والسواك، والمشط. وفي رواية: المقراض.

والصوفية لا تفارقهم العصا، وهي أيضاً من السنة. روى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ان اتخذ منبرا فقد اتخذ إبراهيم، وأن اتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى».

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء. كان لرسول الله ﷺ عصاً يتوكا عليها، ويأمر بالتوكؤ على العصا.

وأخذ الركوة أيضاً من السنة. روى جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه، أي أسرعوا نحوه.

والأصل في البكاء كالصبي يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «مالكم؟» قالوا: يا رسول الله ما نجد ماء نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون. قال فتوضأ القوم منه. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية.

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة.

روى أبو سعيد قال: حج رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال: «اربطوا على أوساطكم بأزركم» فربطنا ومشينا خلفه الهرولة.

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلي ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا يودع البقعة بالركعتين، ويقدم الخف وينفضه، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى، ثم يأخذ الميانيد الذي يشد به وسطه، ويأخذ خريطة المداس وينفضها، ويأتي

الموضع الذى يريد ان يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين، ويحك نعل أحد المداسين بالآخر، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين، ويضع المداس فى الخريطة أعقابه إلى أسفل، ويشد راس الخريطة، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر، ويضعه خلف ظهره ثم يقعد على السجادة، ويقدم الخف بيساره وينفضه، ويبتدئ باليمنى فيلبس، ولا يدع شيئاً من الران أو المنطقة يقع على الأرض، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه، ويودع الحاضرين، فإن أخذ بعض الأخوان روايته إلى خارج الرباط لا يمنعه، وهكذا العصا والإبريق، ويودع من شيعته ثم يشد الرواية برفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن، ويشد الراوية على الجانب الأيسر، ويكون كتفه الأيمن خالياً، وعقدة الراوية على الجانب الأيمن، فإذا وصل في طريقه إلى موضع شريف، أو استقبله جمع من الإخوان، أو شيخ من الطائفة، يحل الراوية ويحطها، ويستقبلهم ويسلم عليهم، ثم إذا جاوزوه يشد الراوية، وإذا دنا من منزل رباطاً كان أو غيره يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر، وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره. وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل، ولا يتعهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب، ويجرى بين الفقراء مشاحنة في رعايتها.

فمن لا يتعاهدها يقول: هذه رسوم لا تلزم، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق، ومن يتعهدها يقول: هذه ادب وضعها المتقدمون، وإذا رأوا من يخل بها أو بشيء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة، ويقال: هذا ليس بصوفي، وكلا الطائفتين في الإنكار يتعدون الواجب.

والصحيح في ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه، فليس بمنكر في الشرع، وهو ادب حسن. ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه، فليس بواجب في الشرع ولا مندوب إليه.

وكثير من فقراء خراسان والجبل يبالغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط. وكثيرا ما يخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط.

والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر، وما لا ينكره لا ينكر، ويجعل لتصاريف الإخوان أعذارا ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه.

والله الموفق.



الباب الثامن عشر
في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغي للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام، كما يستعيذ به من وعثاء السفر.

ومن الدعاء المأثور: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد.

وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها يشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات، ويقرأ من القرآن ما تيسر، ويجعله هدية للأحياء والأموات، ويكبر، فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ويقول إذا رأى البلد «اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقاً حسناً».

ولو اغتسل كان حسناً اقتداء برسول الله ﷺ حيث اغتسل لدخول مكة. وروى أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع لامته واغتسل واستحم. وإلا فليجدد الوضوء، ويتنظف ويتطيب، ويستعد للقاء الإخوان بذلك، وينوى التبرك بمن هنالك من الأحياء والأموات ويزورهم.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خرج رجل يزور أخاً له في الله فأرصد الله بمدرجته ملكاً وقال: أين تريد؟ قال: أزور فلاناً، قال: لقرابة؟ قال: لا، قال: لنعمة له عندك تشكرها؟ قال: لا، قال: فيم

تزوره؟ قال: إني احبه في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه».

وروى ابو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال: «إذا دعا الرجل أخاه أو زاره في الله، قال الله له: طبت وطاب ممشاك، ويتبوأ من الجنة منزلا».

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك.

فإذا دخل البلد يبتدئ بمسجد من المساجد يصلي فيه ركعتين، فإن قصد الجامع كان أكمل وافضل. وقد كان رسول الله ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت. والرباط للفقير بمنزلة البيت. ثم يقصد الرباط، فقصده الرباط من السنة على ما رويناه عن طلحة رضى الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه، وإن لم يكن بها عريف نزل الصفة، فكنت ممن أنزل الصفة.

فإذا دخل الرباط يمضي إلى الموضع الذي يريد نزع الخف فيه، فيحل وسطه وهو قائم، ثم يخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار، ويحل راس الخريطة باليمين، ويخرج المداس باليسار، ثم يضع المداس على الأرض، ويأخذ المياثيد ويلقيها في وسط الخريطة، ثم ينزع خفه اليسار، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق. وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار، ويمسح قدميه بما انطوى، ثم يستقبل القبلة ويصلي ركعتين، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة.

وهذه الرسوم الظاهرة التي استحسنها بعض الصوفية لا ينكر على من يتقيد بها، لأنه من استحسان الشيوخ، ونيتهم الظاهرة في ذلك تقييد المريد في كل شيء بهيئة مخصوصة، ليكون أبدا مفتقدا لحركاته، غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب.

ومن أخل من الفقراء بشيء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة. وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية في الأشياء غلط.

فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكمامه، وقد كان في السفر لم يشمر الأكمام، فينبه أن لا يتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعاً. وكون الآخر يشمر الأكمام يقيس ذلك على شد الوسط، وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله ﷺ أوساطهم في سفرهم بين المدينة ومكة. فتشمير الأكمام في معناه من الخلفة والاتفاق به في المشي، فمن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك.

ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط أو كان راكباً لم يشد وسطه، فمن الصدق أن يدخل كذلك، ولا يتعمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق.

ومما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدئون بالسلام ويقول المنكر هذا خلاف المندوب. ولا ينبغي للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه.

وتركهم السلام يحتمل وجوهاً أحدها أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وقد روى عبد الله بن عمر قال: مر رجل على النبي ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد على الرجل السلام، وقال: «إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أني لم أكن على طهر» وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال: «إني كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر».

وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين في السفر، وقد يتفق لأحدهم حدث، فلو سلم المتوضئ وأمسك المحدث ظهر حاله فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ، ويغسل قدمه من يغسل ستراً للحال على ما أحدث، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله ﷺ. وقد يكون بعض المقيمين أيضاً على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضاً بالطهارة، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه في ذلك.

ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان، وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم ويعانقهم.

ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبة وأحوال، فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس، وقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾[1] واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم.

ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم، بل هم إخوانه، والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم في طريق واحد، والمنزل منزله، والموضع موضعه، فيرى البركة في استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق،

---

(١) سورة النور، الآية ٢٧.

وكما يمهد عذرهم في ترك السلام ينبغي لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدئ بالسلام، فكما أن من ترك السلام له نية فالذى سلم له أيضاً نية.

وللقوم آداب ورد بها الشرع، ومنها آداب استحسنها شيوخهم، فما ورد به الشرع ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة، والابتداء باليمين في لبس الخف وفي نزعه باليسار.

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتعلتم فابدءوا باليمين، وإذا خلعتم فابدأوا باليسار أو اخلعهما جميعاً أو انعلهما جميعاً».

روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخلع اليسرى قبل اليمنى، ويلبس اليمنى قبل اليسرى.

وبسط السجادة وردت به السنة، وقد ذكرناه. وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون. وقد ورد في حديث طويل: «لا يؤم الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه».

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه، فقد روى جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبي ﷺ. وإن قبلهم فلا بأس بذلك.

روى أن رسول الله ﷺ لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال: «ما أنا بفتح خيبر أسر مني بقدوم جعفر».

ويصافح إخوانه، فقد قال عليه السلام: «قبلة المسلم أخاه المصافحة».

وروى أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله، الرجل يلقى صديقه وأخاه ينحني له؟ قال: لا. قيل: يلزمه ويقبله؟ قال: لا، قيل: فيصافحه؟ قال: نعم».

ويستحب للفقراء المقيمين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب.

روى عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ يوم جئته «مرحباً بالراكب المهاجر» مرتين.

وإن قاموا إليه فلا بأس، وهو مسنون.

روى عنه عليه السلام انه قام لجعفر يوم قدومه.

ويستجيب للخادم أن يقدم له الطعام.

روى لقيط بن صبره قال: وفدنا على رسول الله ﷺ فلم نصادفه في منزله، وصادفنا عائشة رضي الله عنها، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا، واتينا بقناع فيه تمر، والقناع الطبق، فأكلنا، ثم جاء رسول الله ﷺ فقال: «اصبتم شيئاً؟ قلنا: نعم يا رسول الله».

ويستجب للقادم ان يقدم للفقراء شيئاً لحق القدوم.

ورد أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزوراً.

وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر، وجهه من السنة منع النبي ﷺ عن طروق الليل.

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والإنكباب على الأذكار والاستغفار.

وري جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن اهله ليلاً».

وروى كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً في الضحى.

فيستحبون القدوم في أول النهار فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم في المشي أو غير ذلك فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره في الاهتمام بالسنة وقدوم أول النهار، فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم. فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملاً بالسنة للقدوم ضحوة.

وأيضاً في معنى آخر، وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة، ومن الأدب أن يصلي القادم ركعتين، فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر..

وقد يكون من الفقراء القادمين من يكون قليل الدراية بدخول الرباط وينالـه دهشة، فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة، ففي ذلك فضل كثير.

روى أبو رفاعة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل النبي ﷺ على وترك خطبته، ثم أتي بكرسي قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته وأتم آخرها.

فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين، واحتمال المكروه من المسموع والمرئي. وقد يدخل فقير بعض الربط، ويخل بشيء من مراسم المتصوفة، فينهر ويخرج، وهذا خطأ كبير، فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الترسم الظاهر، ويقصدون الرباط بنية صالحة، فإذا استقبلوه بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى، ويدخل على المنكر عليه ضرر في دينه ودنياه، فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي ﷺ، وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق.

وقد صح أن أعرابياً دخل المسجد وبال، فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم ينهر الإعرابي، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين.

والفظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل، من النفوس الخبيثة وهو ضد حال المتصوفة. ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأساً، يصرف من الموضع على الطف وجه بعد أن يقدم له طعام، ويحسن له الكلام، فهذا الذي يليق بسكان الرباط، وما يعتمده الفقراء من تغميز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة، وردت به السنة.

روى عمر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وغلام له حبشي يغمز ظهره، فقلت يا رسول الله ما شأنك؟ فقال: إن الناقة اقتحمت بي.

فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز في وقت تعبه وقدومه من السفر، فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز، ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته، فلا يليق بحال الفقراء، وإن كان في الشرع جائزاً.

وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمز واستلذه يحتلم فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله في التغميز. ولأرباب العزائم أمور لا يسعهم فيها الركون إلى الرخص.

ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يبتدئ بالكلام دون أن يسأل. ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة ومشهداً أو غير ذلك مما هو مقصوده في المدينة، حتى يذهب عنه وعثاء السفر، ويعود باطنه إلى هيئته، فقد يكون بالسفر عوارضه تغير باطنه وتكدر، حتى تجتمع في الثلاثة الأيام همته، وينصلح باطنه، ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير

الباطن، فإن باطنه إذا كان منورا يستوفى حظه من الخير من كل شيخ واخ يزوره.

وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ويقول: لا تكلموا أهل هذا الطريق إلا في أصفى أوقاتكم. وهذا فيه فائدة كبيرة، فإن نور الكلام على قدر نور القلب، ونور السمع على قدر نور القلب، فإذا دخل على شيخ أو اخ وزاره ينبغى أن يستأذنه إذا أراد الانصراف.

فقد روى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقومن حتى يستأذنه» وإن نوى أن يقيم أياماً وفي وقته سعة، ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف بطلب خدمة يقوم بها، وإن كان دائم العمل لربه، فكفى بالعبادة شغلاً، لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة. ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المتقدم فيه، ولا يفعل شيئاً دون أن يأخذ رأيه فيه.

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الرباط، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقاً وتأديباً.

الباب التاسع عشر

في حال الصوفي المتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب. فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم، ولا يتسبب بكسب ولا سؤال، ومنهم من كان يكتسب، ومنهم من كان يسأل في وقت فاقته، ولهم في كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه. وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب، فلا ينبغي للفقير أن يسأل مهما أمكن.

فقد حث النبي عليه السلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب. فأما الترغيب فما روى ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لي واحدة أتكفل له الجنة. قال ثوبان: قلت: أنا. قال: لا تسأل الناس شيئاً» فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله، وينزل هو ويأخذها.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا خير من السفلى».

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ المقدسي قال: أخبرني والدي قال: أنا أبو محمد الصيرفي ببغداد قال: أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا على ابن الجعد قال: حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال: أتيت المدينة فنزلت دار أبي سعيد فضمني وإياه المجلس، فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام، فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا

من الجوع فقالت لى امرأتى: ائت رسول الله ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه.

قال: فأتيته وقلت التمس شيئاً، فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ويقول: «من يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن سألنا شيئاً فوجدناه أعطيناه وواسيناه، ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا». قال: فرجعت وما سألته، فرزقني الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

وأما من حيث الترهيب والتحذير، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن بمكانه فيعطى».

هذا هو حال الفقير الصادق. والمتصوف المحقق لا يسأل الناس شيئاً.

ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحيى من الله تعالى أن يسأله شيئاً من أمر الدنيا، حتى إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة، ويرى الإقدام على السؤال جراءة، فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال.

كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه جاءه جبريل وهو في الهواء قبل أن يصل إلى النار فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال له: فسل ربك، فقال: حسبي من سؤالى علمه بحالى؛ وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين، فيسوق الله تعالى إليه من القسم من غير سؤال مخلوق.

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول: إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء، لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه

إليه، فتتنبه النفس له، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنب وجد منه، فإذا وجد الفقير ذلك، والحث النفس بالمطالبة، فليقم وليسبغ الوضوء، ويصلى ركعتين ويقول: يا رب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فاستغفرك وأتوب إليك، وإن كانت لرزق قدرته لى فعجل وصوله إلى، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه، وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه.

فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق، فإما أن يرزقه الشيء أو الصبر، أو يذهب ذلك عن قلبه. فلله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة، وأبواب من طريق القدرة، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشيء بخرق العادة كما كان يأتي مريم عليها السلام ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...﴾.

حكى عن بعض الفقراء قال: جعت ذات يوم وكان حالى أن لا أسأل، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لى على يد بعض عباده شيئا، فلم يقدر، فنمت جائعا فأتى آت في منامى فقال لى: اذهب إلى موضع كذا وعين الموضع فثم خرقة زرقاء فيها قطعيات أخرجها في مصالحك.

فمن تجرد عن المخلوق وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لا يعجزه شيء، يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء. وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل، فإن الصادق تجيبه نفسه.

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له: أريد حبة، قال: فقلت له: ما تفعل بالحبة؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ثم قال عن إذنك اذهب واستقرض الحبة، قال: قلت: نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من اقرض. وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

إن شئت أن تستقرض للمال منفقا على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت فكل ممنوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفذ الفقير الجهد من نفسه، وأشرف على الضعف، وتحققت الضرورة، وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء، ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل، فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم.

نقل عن أبي سعيد الخراز انه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شيء لله. ونقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد انه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب او بابين، ويكون ذلك معلومة على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين.

ونقل عن إبراهيم بن ادهم انه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب.

ونقل عن سفيان الثورى انه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق، وقال: كنت أذكر لهم حديثاً فى الضيافة فيقدم إلى الطعام، فأتناول حاجتى، وأترك ما يبقى.

وقد ورد: من جاع ولم يسأل فمات دخل النار. ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا، بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم.

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصى ثم انتبه وتاب وحسنت توبته، وصار له حال مع الله تعالى، قال: عزمت أن أحج مع القافلة، ونويت أن لا أسأل أحداً شيئاً، واكتفى بعلم الله بحالى. قال: فبقيت أياماً فى الطريق ففتح الله على بالماء والزاد في وقت الحاجة، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة، فضعفت

عن المشي وبقيت أتأخر عن القافلة قليلاً قليلاً حتى مرت القافلة، فقلت في نفسي: هذا الآن مني إلقاء النفس إلى التهلكة وقد منع الله من ذلك، وهذه مسألة الاضطرار أسأل، فلما هممت بالسؤال انبعث من باطني إنكار لهذه الحال، وقلت عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها، وهان على الموت دون نقض عزيمتي، فقصدت شجرة وقعدت في ظلها، وطرحت رأسي استطراحاً للموت، وذهبت القافلة.

فبينما أنا كذلك إذ جاءني شاب متقلد بسيف وحركني، فقمت وفي يده أداوة فيها ماء فقال لي اشرب، فشربت ثم قدم لي طعاماً وقال كل، فأكلت، ثم قال لي أتريد القافلة؟ فقلت من لي بالقافلة وقد عبرت؟ فقال لي قم، وأخذ بيدي ومشى معي خطوات ثم قال لي: اجلس فالقافلة إليك تجئ، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورائي متوجهة إلي. هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق.

وذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله أن بعض الصوفية أول قول رسول الله ﷺ: «أحل ما أكل المؤمن من كسب يده» بأنه المسألة عند الفاقة، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفي، وذكر أن جعفراً الخالدي كان يحكي هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية، ووقع لي والله أعلم أن الشيخ الصوفي لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه. وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة، فهو من أجل ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله، وساق إليه رزقه.

وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿...رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.[1]

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال.

(١) سورة القصص، الآية ٢٤.

وقال محمد الباقر رحمه الله: قالها وإنه محتاج إلى شق تمرة.

وروى عن مطرف أنه قال: أما والله لو كان عند نبي الله شيء ما اتبع المرأة، ولكن حمله على ذلك الجهد.

وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن النصر اباذى أنه قال في قوله: ﴿... إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لم يسال الكليم الخلق، وإنما كان سؤاله من الحق، ولم يسأل غذاء النفس، إنما أراد سكون القلب.

وقال أبو سعيد الخراز: الخلق مترددون بين مالهم وبين ما إليهم، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والخفر. ألا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال: (أرني انظر إليك) ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وقال ابن عطاء: نظر من العبودية فخشع وخضع، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار، افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله، لا افتقار سؤال وطلب.

وقال الحسين: فقير لما خصصتني من علم اليقين أن ترقيني إلى عين اليقين وحقه.

ووقع والله أعلم في قوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة الرب، فيكون الإنزال عين الفقر، فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل، ومن صح فقره، ففقره في أمر آخرته كفقره في أمر دنياه، ورجوعه إليه في الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين، وتتساوى عنده الحاجتان، فما له مع غير الله شغل في الدارين.

الباب العشرون
في ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفي بالله، وكمل زهده لكمال تقواه، يحكم الوقت عليه بترك التسبب، وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه، حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطبقاً مما هو منهى عنه فى الشرع، يجد عقاب ذلك فى وقته أو يومه.

كان يقول بعضهم: إنى لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي.

وقيل: عن بعض الصوفية قرض الفار خفه فلما رآه تألم وقال:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية، حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية، ومخالفة حكم الوقت، ويتجرد له حكم فعل الله، وتنمحى عنده افعال غير الله، فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقاً وحالاً لا علماً وإيماناً، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة، ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى.

كما حكى عن بعضهم انه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق، فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة، فوقف متعجباً منها، متفكرا فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية، فبينما هو كذلك إذا انشقت الأرض وخرجت سكرجتان، في إحداهما سمسم نقي وفى

الأخرى ماء صاف، فأكلت من السمسم وشربت من الماء، ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان. قال: فلما رأيت ذلك سقط عن قلبي الاهتمام بالرزق.

فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام، يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويرى الدخول فى التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام، ويصير مسلوب الاختيار، غير متطلع إلى الأغيار، ناظرا إلى فعل الله تعالى، منتظرا لأمر الله فتساق إليه الأقسام، ويفتح عليه باب الإنعام، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله، وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب، ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة فى هذه التجليات إلى رتب في اليقين، ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أصفى من شيء.

فالتجلي بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم، والتجلي بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس، والتجلي بالذات يكسب الفناء والبقاء.

وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء، يعنون به فناء الإرادة والهوى، والإرادة ألطف أقسام الهوى، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود، يكون في تجلي الذات، وهو أكمل أقسام اليقين في الدنيا، فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة، وهو المقام الذي حظي به رسول الله ﷺ ليلة المعراج، ومنع عنه موسى بلن تراني.

فليعلم أن قولنا في التجلى إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة، فإذا ولى العبد إلى مبادئ أقسام التجلي، وهو مطالعة الفعل الإلهى مجردا عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح.

روى عن رسول الله ﷺ انه قال: «من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسالة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو احوج منه».

وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره. وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى. ثم إذا اخذ فمنهم من يخرجه إلى المحتاج، ومنهم من يقف في الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص، ليكون اخذه بالحق وإخراجه بالحق.

أخبرنا الشيخ أبو زرعه طاهر قال: أنبانا والدى الحافظ أو الفضل المقدسي قال: أنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال: أنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال: أنا أبو طاهر احمد بن محمد بن عمرو قال: أنا يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويطب بن عبد العزي عن عبيد الله السعدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فاقول له أعطه يا رسول الله من هو افقر مني، فقال رسول الله ﷺ: «خذه فتموله او تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشوف ولا سائل فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك» قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسال احدا شيئا ولا يرد شيئا اعطيه.

درج رسول الله ﷺ الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى، والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى.

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن علم الحال قال: هو ترك التدبير، ولو كان هذا في واحد لكان من أوتاد الأرض.

وروى يزيد بن خالد قال: قال رسول الله ﷺ «من جاءه معروف من اخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فيقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه».

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى في قبول ما ساق الحق آمن ما يخشى عليه إنما يخشى على من يرد، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه ان يرى بعين الزهد، ففي أخذه إسقاط نظر الخلق تحققاً بالصدق والإخلاص، وفي إخراجه إلى الغير إثبات حقيقة فلا يزال في كلا الحالتين زاهداً يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد.

ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه، فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه، ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل، ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم لتمام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته، وعلم حاله في ترك الاختيار، ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدمة العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله، ولكن يرزق شرباً من المحبة بطريق رؤية النعمة، وقد يتكدر شرب هذا بتغير معهود النعمة، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالتين الأولين، لأنه علة في المحبة ووليجة في الصدق عند الصديقين.

وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم في الإخراج أيضاً، كما ينتظر في الأخذ، لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ. واتم من هذا من يكون في إخراجه مختاراً، وفي اخذه مختاراً بعد تحققه بصحة التصرف، فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس، وهو ببقية هوى موجود، فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج إلى علم متجدد ويخرج كذلك، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه: «فإذا

احببته كنت له سمعاً وبصراً، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق» الحديث.

فلما صح تعرفه صح تصرفه، وهذا أعز في الأحوال من الكبريت الأحمر.

وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول: أنه لا آكل إلا من طعام الفضل، فكان يرى الشخص في المنام أن يحمل إليه شيئاً وقد كان يعين للرائي في المنام أن احمل إلى حماد كذا وكذا. وقيل إنه بقى زماناً يرى هو في واقعته أو منامه أنك أحلت على فلان بكذا وكذا.

وحكى عنه انه كان يقول: كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء، ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق. ومن كانت هذه حالته فهو غني بالله.

قال الواسطى: الافتقار إلى الله أعلى درجة المريدين، والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين.

وقال ابو سعيد الخراز: العارف تدبيره فني في تدبير الحق. فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله.

واحسن ما حكى في هذا ان بعضهم راى النووي يمد يده ويسأل الناس قال: فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له، فاتيت الجنيد فاخبرته فقال لى: لا يعظم هذا عليك، فإن النووى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة، فيؤجرون من حيث لا يضره.

وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ، لأنه يعطى الثواب.

قال: ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة، ثم قال احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يزن ليعرف مقدارها كيف خلط المجهول بالموزون وهو رجل حكيم، واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النوري، فقال هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك شيئاً، وأخذ ما زاد على المائة. قال فزاد تعجبي، فسألته عن ذلك فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه، وزن المائة لنفسه طلباً للثواب، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله، فأخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه. قال فرددتها على الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا.

ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا انه قال ذات يوم لأصحابه: نحن محتاجون إلى شيء من العلوم، فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى، وما فتح الله تعالى لكم ائتوني به، ففعلوا ثم جاءوه من بينهم شخص يعرف بإسماعيل البطائحى، ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة، وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى، فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدى الشيخ، ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحاً، فترك كل صحيح على دائرة وقال هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلاماً هذا معناه.

وسمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقال لفلان عندك طعام وذهب، ائتنى من ذلك بكذا ذهباً وكذا طعاماً، فقال الرجل: كيف أتصرف فى وديعة عندى ولو استفتيتك ما أفتيتني في التصرف؟ فألزمه الشيخ بذلك، فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب في بعض نواحى العرق أن أحمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا، وهو القدر الذى عينه

الشيخ عبد القادر فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال: ظننت بالفقراء ان إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم.

فالعبد إذا صح مع الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا، ويجعل الغنى في قلبه، ويفتح عليه أبواب الرفق، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء، لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية. فعلى قدر ما خلت من الهم بالله ابتليت بهم الدنيا، ولو امتلأت من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا وقنعت وارتقت.

روى ان عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقاً، وكان يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له ثلاثون صديقاً، يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد، فكان إخوانهم معلومهم، والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيده يكون نعمة هنيئة.

جاء رجل إلى الشيخ ابى السعود رحمه الله وكان من أرباب الأحوال السنية، والواقفين في الأشياء مع فعل الله تعالى، متمكناً من حاله، تاركاً لاختياره، ولعله سبق كثيراً من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار، راينا منه وشاهدنا احوالاً صحيحة عن قوة وتمكين، فقال له الرجل: اريد أن أعين لك شيئاً كل يوم من الخبز احمله إليك، ولكني قلت: الصوفية يقولون المعلوم شؤم، قال الشيخ: نحن ما نقول المعلوم شؤم، فإن الحق يصفى لنا، وفعله نرى، فكل ما يقسم لنا نراه مباركاً ولا نراه شؤماً.

اخبرنا ابو زرعة إجازة قال: انا ابو بكر بن احمد بن خلف الشيرازي إجازة قال: انا عبد الرحمن السلمي قال: سمعت ابا بكر بن شاذان قال: سمعت ابا بكر الكتاني قال: كنت انا وعمرو المكي وعياش بن المهدى نصطحب ثلاثين سنة، نصلى الغداة على طهر العصر، وكنا قعوداً بمكة على التجريد، مالنا على الأرض ما يساوى فلساً، وربما كان يصحبنا الجوع يوماً

ويومين وثلاثة واربعة وخمسة ولا نسال أحدا، فإن ظهر لنا شيء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه واكلناه وإلا طوينا، فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا النقصان في الفرائض قصدنا أبا سعيد الخراز فيتخذ لنا الواناً من الطعام، ولا نقصد غيره، ولا ننبسط إلا إليه، لما نعرف من تقواه وورعه.

وقيل لأبي يزيد : ما نراك تشتغل بكسب، فمن اين معاشك؟ فقال: مولاى يرزق الكلب والخنزير، تراه لا يرزق ابا يزيد.

قال السلمي: سمعت أبا عبد الله الرازي يقول: سمعت مظفرا القرميسني يقول: الفقير الذي لا يكون له عند الله حاجه.

وقيل لبعضهم: ما الفقر؟ قال: وقوف الحاجة على القلب، ومحوها من كل احد سوى الرب.

وقال بعضهم: أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يده، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته.

انبانا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي قال: انا عصام الدين أبو حفص عمر بن احمد بن منصور الصفار قال: أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال: انا ابو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت احمد بن على ابن جعفر يقول سمعت أن أبا سليمان الداراني كان يقول: آخر إقدام الزاهدين أول إقدام المتوكلين.

روى أن بعض العارفين زهد، فبلغ من زهده ان فارق الناس وخرج من الأمصار وقال لا أسال احدا شيئاً حتى ياتينى رزقي، فاخذ يسيح، فاقام في سفح جبل سبعاً لم ياته شيء حتى كاد ان يتلف، فقال يا رب إن احببتنى فاتنى برزقي الذي قسمت لى، وإلا فاقبضني إليك، فالهمه الله تعالى في قلبه: وعزتى وجلالى لا ارزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس، فدخل

المدينة وأقام بين ظهراني الناس، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فسمع هاتفاً: أردت أن تبطل حكمته بزهدك في الدنيا، أما علمت أنه يرزق العباد بأيدى العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدى القدرة.

فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدى الآدميين وأيدى الملائكة، واستوى عنده القدرة والحكمة، وطلب القفار، والتوصل إلى قطع الأسباب، من الارتهان برؤية الأسباب. وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب في عين الإنسان.

أخبرنا شيخنا قال: أنا أبو حفص عمر قال: أنا أبو عبد الرحمن قال: أنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبري قال: سمعت أحمد بن محمود بن اليسرى يقول: سمعت محمداً الإسكاف يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول: من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين.

قال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها، فحاك في صدرى من أين المعاش، فهتف بى هاتف لا أراه: تنقطع إلى وتتهمني في رزقك؟ على أن أخدمك ولياً من أوليائى، أو أسخر لك منافقاً من أعدائى، فلما صح حال الصوفى، وانقطعت أطماعه، وسكنت عن كل تشوف وتطلع، خدمته الدنيا، وصلحت له الدنيا خادمة، وما رضيها مخدومة.

فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنباً.

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن في ذلك الموضع من يحمله، فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: ادفع إلى أيوب من الخبز، فدفع

له رغيفين، فردهما، قال أحمد: ضعهما، ثم صبر قليلاً، ثم قال: خذهما فالحقه بهما، فلحقه فأخذهما، فرجع صالح متعجباً، فقال له أحمد: عجبت من رده وأخذه؟ قال: نعم، قال: هذا رجل صالح، فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده، ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل.

هذا حال أرباب الصدق، إن سألوا سألوا بعلم، وإن امسكوا عن السؤال أمسكوا بحال، وإن قبلوا قبلوا بعلم، فمن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم. فأما السائل مستكثرا فوق الحاجة لا في وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء.

سمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسال، فقال لمن عنده: الم اقل لك عش السائل؟ فقال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزا، فقال عمر: ألك عيال؟ فقال: لا، فقال عمر: لست بسائل ولكنك تاجر، ثم نثر مخلاته بين يدي أهل الصدقة وضربه بالدرة.

وروى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال: إن الله تعالى فى خلقه مثوبات فقر، وعقوبات فقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه، ويطيع ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره.

ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه، ويعصى ربه، ويكثر الشكاية، ويتسخط للقضاء.

فحال الصوفية حسن الأدب في السؤال، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب.

الباب الحادي والعشرون
في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفي يتزوج لله كما يتجرد لله، فلتجرده مقصد وأوان، ولتأهله مقصد وأوان. والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل، لان الطبع الجموح للصوفي ملجم بلجام العلم، فما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى التزوج، ولا يقدم على التزوج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها، وذلك إذا صارت منقادة مطواعة مجيبة إلى ما راد منها، بمثابة الطفل الذي يتعاهد بما يروق له، ويمنع عما يضره، فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد فاءت إلى امر الله، وتنصلت عن مشاحة القلب، فيصلح بينهما بالعد، وينظر في امرهما بالقسط.

ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله، ينتخب له الزوجة انتخاباً، ويهيئ الله له أعواناً وأسباباً، وينعم برفيق يدخل عليه، ورزق يساق إليه.

ومن استعجل المزيد، واستفزه الطبع، وخامره الجهل، بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم، وانحط من اوج العزيمة الذي هو قضية حاله وموجب إرادته، وشريطة صدق طلبه، إلى حضيض الرخصة التي هي رحمة من الله تعالى لعامة خلقه، يحكم عليه بالنقصان، ويشهد له بالخسران. ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال.

قال سهل بن عبد الله التستري: إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة، فدخل عليه الابتلاء، فرجوعه في الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث.

وسمعت بعض الفقراء وقد قيل له: لم لا تتزوج؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج؟

فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون.

وقد تعارضت الأخبار، وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج، وتنوع كلام رسول الله ﷺ في ذلك لتنوع الأحوال، فمنهم من فضيلته في التجريد، ومنهم من فضيلته في التأهل، وكل هذا التعارض في حق من نار توقانه برد وسلام لكمال تقواه، وقهره هواه.

وإلا ففي غير هذا الرجل الذي يخاف عليه الفتنة يجب النكاح في حال التوقان المفرط، ويكون الخلاف بين الأئمة في غير التائق.

فالصوفي إذا صار متأهلاً يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار، ومسامحته في الاستكثار، إذا رؤي ضعيف الحال قاصرا عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله.

أخبرنا أبو زرعة عن والده أبي الفضل المقدسي الحافظ قال: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال: أنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أخي ميمي قال: أنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن هارون قال: أنا أبو المغيرة قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه فيء قسمه في يومه، فأعطى المتأهل حظين والعزب حظاً واحداً، فدعينا وكنت أدعى قبل عمار بن ياسر فأعطاني حظين وأعطاه حظاً واحداً، فسخط حتى عرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهه ومن حضره، فبقيت معه سلسلة من ذهب، فجعل رسول الله ﷺ يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول: «كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا؟» فلم يجبه أحد، فقال عمار: وددنا يا رسول الله لو قد أكثر لنا من هذا.

فالتجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوقت للفقير، وأجمع لهمه، وألذ لعيشه.

ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع العلائق، ومحو العوائق، والتنقل في الأسفار، وركوب الأخطار، والتجرد عن الأسباب، والخروج عن كل ما يكون حجاباً. والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص، ورجوع من الترَوح إلى النغص، وتقيد بالأولاد والأزواج، ودوران حول مظان الإعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة.

قال ابو سليمان الداراني: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً، او تزوج امراة، أو كتب الحديث.

وقال: ما رايت احدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته.

اخبرنا الشيخ طاهر قال: انا والدي ابو الفضل قال: انا محمد بن إسماعيل المقرى قال: انا أحمد بن الحسن قال: انا حاجب الطوسي قال: حدثنا عبد الرحيم قال: حدثنا الفزاري عن سليمان التيمي عن ابي عثمان النهدي عن اسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وإن اخوف ما أخاف عيكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب، ولبسن ربط الشام وعصب اليمن، واتعبن الغنى، وكلفن الفقير ما لا يجد».

وقال بعض الحكماء: معالجة العزوبة خير من معالجة النساء.

وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] لأنه لا يصبر على النساء.

وقيل في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ...﴾[2] الغلمة، فإن قدر الفقير على مقاومة النفس، ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة النفس وصبر عنهن، فقد حاز الفضل، واستعمل العقل، واهتدى إلى الأمر السهل.

قال رسول الله ﷺ : «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ؟ قال: الذي لا أهل له ولا ولد».

وقال بعض الفقراء لما قيل له تزوج: أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزوج.

وقيل لبشر بن الحارث: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: ما يقولون؟ قيل: يقولون إنه تارك للسنة، يعني النكاح، فقال: قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة.

وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر.

والصوفي مبتلى بالنفس ومطالبتها، وهو في شغل شاغل عن نفسه، فإذا أضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه، وتكل إرادته، وتفتر عزيمته.

والنفس إذا أطعمت طمعت، وإذا أقنعت قنعت، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم، فإن للصوم أثرا ظاهرا في قمع النفس وقهرها.

---

(١) سورة النساء، الآية ٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

وقد ورد ان رسول الله ﷺ مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة، فقال: «يا معشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فليصم، فإن الصوم له وجاء» أصل الوجاء رض الخصيتين، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن. ومنه الحديث «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءين».

وقد قيل: هي النفس إن لم تشغلها شغلتك.

فإذا أدام الشاب المريد العمل، وأذاب نفسه في العبادة، تقل عليه خواطر النفس.

وأيضاً شغله بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة، ومحبة الإكثار منه، ويفتح عليه باب السهولة والعيش في العمل، فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة.

ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإنابة، فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة، ويؤيده بمراغمة النفس.

بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثواباً لحسن إنابته، فتسكن النفس عن المطالبة، ثم تعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول في المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان، وأخذ الشيء من غير وجهه، وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخواطر إلى ضبط امرأة وحراستها والكلف التي لا تنحصر.

وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال، وقلة المال.

وقد قيل: كثرة العيال أحد الفقرين، وقلة العيال أحد اليسارين.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار، ويتسلط عن الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار وكل هذا بعيد عن المتجرد.

وقد ورد: إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتي.

فإن توالت على الفقير خواطر النكاح، وزاحمت باطنه سيما في الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولاً، ثم بالمشايخ والإخوان، ويشرح الحال لهم، ويسألهم مسألة الله له في حسن الاختيار، ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد، ويستعظم الأمر، ولا يدخل فيه بقلة الإكتراث، فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[1] ويكثر الضراعة إلى الله تعالى، ويكثر البكاء بين يديه في الخلوات، ويكرر الاستخارة.

وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة في ذلك فهو الكمال والتمام، فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منحاً أو إطلاقاً في منامه أو يقظته أو على لسان من يثق إلى دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق، فعند ذلك يكون تزوجه مدبراً معاناً فيه.

وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال رسول الله ﷺ تزوج، فقال له ذلك الرجل: الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التزم بالعزيمة، فلا أعلم ما

---

(١) سورة التغابن، الآية ١٤.

قال الشيخ في جوابه، ولكني أقول رسول الله ﷺ يأمره بالرخصة وأمره على لسان الشرع.

فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه استخاره فيكاشفه الله بتنبيهه إياه في منامه، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة، لأنه من علم الحال لا من علم الحكم.

ويدل على صحة ما وقع له ما نقل عنه أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا اجترئ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله لي أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق عليّ إرادة ورغبة. فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل.

فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء، وورد عليه وارد من الله تعالى يإذن فيه، فهو الغاية والنهاية، وإن عجز عن الصبر إلى ما ورود الإذن، واستنفذ جهده في الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى، ويعان عليه لحسن نيته، وصدق مقصده، وحسن رجائه، واعتماده على ربه.

وقد نقل عن عبد الله بن عباس أنه قال: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[2].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

(٢) وهذا يتعارض مع ما ذكر سابقاً حول العزوبة وهو يتفق مع قوله ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام» وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «النكاح سنتي» .. الحديث.

وعموماً ما قيل عن العزوبة هي آراء وتصرفات شخصية لبعض أهل الطريق، يطبقونها على أنفسهم حسب ما تطمئن إليه قلوبهم، وما يرونه أصلح لحالهم.

ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان انه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين او ثلاث، فعوتب في ذلك فقال هل يعرف احد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة، او وقف وقفه في معاملته، فخطر على قلبه خاطر شهوة؟

فقالوا: قد يصيبنا ذلك، فقال: لو رضيت في عمرى كله بمثل حالكم في وقت واحد ما تزوجت قط، ولكن ما خطر على قلبى خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا نفذته لاستريح منه وأرجع إلى شغلى. ثم قال: منذ اربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية.

فالصادقون ما دخلوا فى النكاح إلا على بصيرة، وقصدوا حسن مواد النفس.

وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم، وتقبل قلوبهم، وللقلوب إقبال وإدبار.

يقول بعضهم: إن للقلوب إقبالاً وإدبارا، فإذا أدبرت روحت بالإرفاق، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق، فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير، ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس، وكفها عن المنازعة، وترك التشبث في القلوب.

فإذا اطمأنت النفوس واستقرت من طيشها ونفورها وشراستها، توفرت عليها حقوقها، وربما يصير من حقوقها حظوظها، لأن في أداء الحق إقناعاً، وفي اخذ الحظ اتساعاً، وهذا من دقيق علم الصوفية، فإنهم يتسعون بالنكاح المباح إيصالاً إلى النفس حظوظها، لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤها دواءها، وصارت الشهوات المباحة واللذات المشروعة لا تضرها ولا تفتر عليها عزائمها.

بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر، ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة، فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد للطمأنينة للنفس، وينشد:

إن السماء إذا اكتست كست الثرى حللاً يدبجها الغمام الراهم

وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار.

سمعت بعض الفقراء يقول: النفس تقول للقلب: كن معي في الطعام أكن معك في الصلاة. وهذا من الأحوال العزيزة لا تصلح إلا لعالم رباني.

وكم من مدع يهلك بتوهمه هذا في نفسه. ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص. والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه.

وقد كان الجنيد يقول: أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام.

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن في الصوفية، فقال: يا هذا ما الذي ينقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيراً، فقال: وأنت أيضاً لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون. ثم قال: ويتزوجون كثيراً، قال: وأنت أيضاً لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون. قال: وأي شيء أيضاً؟ قال: يسمعون القول، قال: وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون.

وكان سفيان بن عيينه يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة

وسبع عشرة سرية. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عابداً تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه، فذكر ذلك لنبي ذلك الزمان، فقال: نعم الجر لولا أنه تارك لشيء من السنة، فنمى ذلك إلى العابد، فأهمه فقال: ما تنفعني عبادتي وأنا تارك السنة؟ فجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال: نعم إنك تارك التزوج.

فقال: ما تركته لأني أحرمه، وما منعني منه إلا أني فقير لا شيء لي وأنا عيال على الناس، يطعمني هذا مرة وهذا مرة، فأكره أن أتزوج بامرأة أعضلها أو أرهقها جهداً[1]، فقال له النبي ﷺ: وما يمنعك إلا هذا؟ قال: نعم، فقال: أنا أزوجك ابنتي، فزوجه النبي عليه السلام ابنته.

وكان عبد الله بن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزباً.

وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين.

وقيل: إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن يقربها[2].

وقيل: إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له.

وقيل: إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب.

أخبرنا الشيخ الطاهر بن أبي الفضل قال أنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم المقومي القزويني قال أنا أبو طلحة القاسم بن

---

(١) وهكذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الهامش السابق من أن بعض أهل التصوف ترك الزواج لأسباب شخصية يراها في نفسه، وأن العزوبة هي أصلح لحاله. والزواج عموماً قد يكون فرضاً أو واجباً أو حراماً أو مندوباً أو مكروهاً حسب حالة كل مكلف: راجع في ذلك كتاب (دور المرأة في المجتمع الإسلامي) تأليف المستشار توفيق علي وهبه، ط٥، ص ١٥٦/١٥٨، الرياض، ١٤٠٦/١٩٨٣.

(٢) لا دليل على ذلك من كتاب أو سنة. ولأنه إذا فعل ذلك يكون قد ظلم من تزوجها ظلماً بيناً.

أبي البدر الخطيب قال حدثنا ابو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا احمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح سنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس منى، فتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء».

ومما ينبغى للمتاهل أن يحذر من الإفراط في المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن اوراده وسياسة اوقاته، فإن الإفراط في ذلك يقوى النفس وجنودها، ويفتر ناهض الهمة.

وللمتاهل بسبب الزوجة فتنتان: فتنة لعموم حاله، وفتنة لخصوص حاله. ففتنة عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب المعيشة.

كان الحسن يقول: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امراته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه في النار.

وفي الخبر: «ياتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل في المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك».

وروى أن قوماً دخلوا على يونس عليه السلام فاضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امراته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك وهابوه أن يسالوه، فقال: لا تعجبوا من هذا فإنى سالت الله فقلت يا رب ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لي فى الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها، فتزوجت بها وانا صابر على ما ترون.

فإذا افرط الفقير في المداراة ربما تعدى حد الاعتدال في وجوه المعيشة متطلباً رضا الزوجة، فهذا فتنة عموم حاله، وفتنة خصوص حاله الإفراط

في المجالسة والمخالطة، فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال، وتسترق الغرض بطول الاسترسال، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغلفة، ويستجلس مقار المهلة، فيقل الوارد لقلة الأوراد، ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال.

والطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضُور، وذلك ان للنفوس امتزاجاً وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة، وتلتهب نارها الخامدة. فدواء هذه الفتنة ان يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه، وعينان ظاهران يستعملهما في طريق هواه. وقد قالت رابعة في معنى هذا نظماً:

انى جعلتك في الفؤاد محدثى وابحت جسمى من اراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى في الفؤاد انيسى

والطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال، ويكون ذلك الاسترواح موقوفاً على الروح، ويصير ذلك وليجة في حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية، فتتبلد الروح، وينسد باب المزيد من الفتوح، وهذه البلادة في الروح يعز الشعور بها فلتحذر.

ومن هذا القبيل دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة. وإذا كان في باب الحلال وليجة في الحب يتولد منها بلادة الروح في القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية، فما ظنك فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروع، يغره سكون النفس. فيظن أنه لو كان من قبيل الهوى ما سكنت النفس، والنفس لا تسكن في ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها.

على أنى استبحثت عما يبتلى المفتونون بالمشاهدة، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة، إذ لو ذهبت علة الشراب ما

بقيت الرغوة. فليحذر ذلك جدا، ولا يسمع ممن يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدع.

ولهذا المعنى قال الأطباء: الجماع يسكن هيجان العشق، وإن كان من غير المعشوق فليعلم أن مستنده الشهوة. ويكذب من يدعى فيه حالاً. وهذه فتن المتأهل.

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره، وتصورهن في متخيله، ومن أعطى الطهارة في باطنه لا يدنس باطنه بخواطر الشهوة، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة واللياذ بالهرب. ومتى سامر الفكر كثف الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر، وعند ذلك يحذر إحساس العضو بالخاطر، فيصير ذلك عملاً خفياً. وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة، فيكون ذلك فاحشة الحال. وقد قيل: مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين.

والله أعلم.

الباب الثاني والعشرون
في القول في السماع قبولاً وإيثاراً

قال الله تعالى: ﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.(١)

قيل: احسنه اي اهداه وارشده.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ...﴾(٢) هذا السماع هو السماع الحق الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية واللب، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً والحزن حار، وتارة يثير شوقاً والشوق حار، وتارة يثير ندماً والندم حار، فإذا اثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين ابكى وادمع، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء، فإذا الم السماع بالقلب تارة يخف إلمامه، فيظهر اثره في الجسد، ويقشعر منه الجلد.

قال الله تعالى: ﴿...تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾(٣) وتارة يعظم وقعه ويتصوب اثره إلى فوق نحو الدماغ، كالمخبر للعقل، فيعظم وقع المتجدد الحادث، فتتدفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب اثره إلى الروح فتموج منه الروح موجاً يكاد يضيق عنه نطاق القلب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها احوال يجدها اربابها من اصحاب الحال، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس ارباب المحال.

---

(١) سورة الزمر، الآية ١٧ - ١٨ .
(٢) سورة المائدة، الآية ٨٣.
(٣) سورة الزمر، الآية ٢٣.

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم.

روى زيد بن أسلم قال: قرأ أبي بن كعب عند رسول الله ﷺ فرقوا، فقال رسول الله ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى».

وروت أم كلثوم قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

وورد أيضاً «إذا اقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار».

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها، إنما الاختلاف في استماع الأشعار بالألحان، وقد كثرت الأقوال في ذلك وتباينت الأحوال، فمن منكر يلحقه بالفسق، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق، ويتجاذبان في طرفي الإفراط والتفريط.

قيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقدَ أجازه وسمعه من هو خير منى، فقد كان جعفر الطيار يسمع، وإنما المنكر اللهو واللعب في السماع، وهذا قول صحيح.

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخواقي قال: أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب قال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه، وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد».

وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم.

وقد ذكر الشيخ ابو طالب المكي رحمه الله ما يدل على تجويزه.

ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم.

وقول الشيخ ابي طالب المكي يعتبر لوفور علمه، وكمال حاله، وعلمه بأحوال السلف، ومكان ورعه وتقواه، وتحريه الأصوب والأولى.

وقال: في السماع حرام وحلال وشبهة.

فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل، ويشهده طرفات الجليل فهو مباح.

وهذا قول الشيخ ابي طالب المكي وهو الصحيح، فإذا لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع، كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الإنكار، ولا يفسح فيه على الإطلاق، كفعل بعض المستهترين به المهملين شروطه وآدابه، المقيمين على الإصرار.

ونفصل الأمر فيه تفصيلاً، ونوضح الماهية فيه تحريماً وتحليلاً.

فأما الدف والشبابة وإن كان فيهما في مذهب الشافعي فسحة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف، وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار.

ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج، مما يثير كامن العزم من الغازى وساكن الشوق من الحاج. وأما ما كان فيه ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك.

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب جملة على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدد عنده عزم لما هو آت فكيف ينكر سماعه.

وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع، ويتقوى به على الطى والوصال، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه، كان يسمع الحادى يقول مثلاً:

انوب إليك يا رحمن إنى   أسأت وقد تضاعفت الذنوب

فأما من هوى ليلى وحبى   زيارتها فإنى لا أتوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى الممات، يكون في سماعه هذا ذكر الله تعالى.

قال بعض أصحابنا: كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين، وأحوال النبيين، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً.

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال: يتنبهون للمعاني التى تعزب عن غيرهم، فيشير إليهم فيتنعمون بذلك من الفرح، ويقع

الحجاب للوقت، فيعود ذلك الفرح بكاء، فمنهم من يمـزق ثيابه، ومنـهم مـن يبكى ومنهم من يصيح.

اخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول: المستمع بين استتار وتجل، فالاستتار يورث التلهب، والتجلى يورث المزيد، فالاستتار يتولد منه حركات المريدين، وهو محل الضعف والعجز، والتجلى يتولد منه السكون للواصلين، وهو محل الاستقامة والتمكين، وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى: سمعت جدى يقول: المستمع ينبغى أن يستمع بقلب حى ونفس ميتة، ومن كان قلبه ميتاً ونفسه حياً لا يحل له السماع.

وقيل في قوله تعالى: ﴿...يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ...﴾[1] الصوت الحسن.

وقال عليه السلام: «لله أشد أذناً بالرجل الحسن الصوت بالقرى، من صاحب قينة إلى قينته».

نقل عن الجنيد قال: رأيت إبليس في النوم فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء أو تنال منهم شيئاً؟ فقال: إنه يعسر على شأنهم ويعظم على أن أصيب منهم شيئاً إلا في وقتين، قلت: أى وقت؟ قال: وقت السماع، وعند النظر، فإنى استرق منهم فيه وأدخل عليهم به.

قال: فحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقالوا: لو رأيته. قلت له: يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، أتربح أن عليه شيئاً أو تظفر بشيء منه. فقلت: صدقت.

(١) سورة فاطر: الآية ١.

وروت عائشة رضى الله عنها قالت كانت عندى جارية تسمعنى، فدخل رسول الله ﷺ وهى على حالها، ثم دخل عمر ففرت، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثته حديث الجارية، فقال: لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله، فأمرها رسول الله ﷺ فأسمعته.

وذكر الشيخ أبو طالب المكى قال: كان لعطاء جاريتان تلحنان، وكان إخوانه يجتمعون إليهما، وقال: أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعدهن للصوفية.

وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب، فقال: وعندى اجتناب ذلك هو الصواب، وهو لا يعلم إلا بشرط طهارة القلب، وغض البصر، والوفاء بشرط قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[1]، وما هذا القول من الشيخ أبي طالب المكى إلا مستغرب عجيب، والتنزه عن مثل ذلك هو الصحيح.

وفي الحديث في مدح داود عليه السلام إنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه، وبتلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الخنازير.

وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعرى: «لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود».

وروى عنه عليه السلام أنه قال: «إن من الشعر لحكمه».

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم ينشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟ فقال: «من هذا مرة ومن هذا مرة».

وأنشد النابغة عند رسول الله ﷺ أبياته التى فيها:

---

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوة أن يكدرا
ولا خير في امرئ إذا لم يكن له حكيم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له رسول الله ﷺ: «أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك» فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس ثغراً.

وكان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد فيقوم على المنبر قائماً يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، ويقول النبي ﷺ: إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ.

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال: فقلت له ما تقول في السماع الذي يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء.

ونقل عن ممشاد الدينوري قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن.

فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذوني وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا على هم أصحابك. فكان ممشاد يفتخر ويقول: كناني رسول الله ﷺ.

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا فى مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب، حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم، ويعملون ما لهم وعليهم مشتغلين به.

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال، فاستأذنوه أن يقول شيئاً، فأذن له، فأنشد:

القوال صغير هواك عذبني ... فكيف به إذا احتنكا
وانت جمعت من قلبي ... هوى قد كان مشتركا
اما ترثى لكتئب ... إذا ضحك الخلى بكى

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال: اتق الذى يراك حين تقوم، فجلس الرجل وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجداً.

فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم في قيامه، وذلك إذا سمع إيقاعاً موزوناً بسمع يؤدى ما سمعه إلى طبع موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع، فيقوم يرقص موزوناً بتصنع، وهو محرم عند أهل الحق، ويحسب ذلك طيبة للقلب، وما رأى وجه القلب وطيبته بالله تعالى.

ولعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بلون النفس، ميال إلى الهوى، موافق للردى، لا يهتدى إلى حسن النية في الحركات، ولا يعرف شروط صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل:

الرقص نقص، لأنه رقص مصدره الطبع، غير مقترن بنية صالحة لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية، بل دلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم، وغير ذلك من الحركات التى لا يعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة.

أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه، وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتتراسل البواطن

المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه.

فأهل المواخير حينئذ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته، لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه ويريه عباده لمن لا يعلم ذلك.

أفترى أحداً من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره؟

فمن هذا الوجه توجه للمنكر الإنكار، وكان حقيقاً بالاعتذار، فكم من حركات موجبة للمقت، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب يمنعه عن مثل هذه الحركات، ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح.

وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال، ووجه نيته في ذلك إنه ربما يوافق بعض الفقراء في الحركة، فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالاً ووجداً، يجعل حركته في طرف الباطل لأنها وإن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللهو، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تجرى عليه من الضحك والمداعبة، وملاعبة الأهل والولد.

ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب، وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس، كما نقل عن ابي الدرداء انه قال: إني لأستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً لي على الحق.

ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات، ليستريح عمال الله، وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل، وتستطيب أوطان المهمل.

والآدمي تركيبه المختلف، وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته - وقد سبق شرحه في غير هذا الباب - لا تفي قواه بالصبر على الحق الصرف، فيكون التفسح في أمثال ما ذكرناه من المباح الذي ينزع إلى لهو ما باطلاً

يستعان به على الحق، فإن المباح وإن لم يكن باطلاً في حقيقة الشرع، لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.

ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق: الصادق يكون جهله مزيداً لعلمه، وباطلة مزيداً لحقه، ودنياه مزيداً لآخرته، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ النساء، ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة، الموهوب لها حظوظها، الموفر عليها حقوقها، لموضع طهارتها وقدسها، فيكون ما هو نصيب الباطل الصرف في حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع، المردودة بعزيمة الحال في حقه ﷺ متسماً بسمة العبادات.

وقد ورد في فضيلة النكاح ما يدل على أنه عبادة، وذلك من طريق القياس لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، على ما أطنب في شرحه الفقهاء في مسألة التخلي لنوافل العبادات.

فإذا يخرج هذا الراقص بهذه النية، المتبرئ من دعوى الحال في ذلك من زمن إنكار المنكر، فيكون رقصه لا عليه ولا له، وربما كان بحسن النية في الترويح يصير عبادة، سيما إن أضمر في نفسه فرحاً بربه، ونظر إلى شمول رحمته وعطفه، ولكن لا يليق الرقص بالشيوخ ومن يقتدى به، لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم، ويباين حال المتمكن مثل ذلك.

وأما وجه منع الإنكار في ا لسماع، فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن والآثار، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل.

أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضي الله عنها، وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك، وفي حركة بعض المتحركين

تعرف رخصة رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص، ونظر عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التى ذكرناها.

وقد روى ان رسول الله ﷺ قال لعلى رضى الله عنه: «أنت منى وأنا منك» فخجل. وقال لجعفر: «اشبهت خلقى وخلقى» فخجل. وقال لزيد: «انت أخونا ومولانا» فخجل. وكان خجل جعفر في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على وجعفر وزيد.

واما المنكر المغرور بما اتيح له من أعمال الأخيار فيقال: تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والنية لنظرك إلى ربك خوفاً أو رجاء.

فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه، إما فرحاً أو حزناً أو انكسارا أو افتقارا، كيف يقلب قلبه في أنواع ذلك ذاكرا لربه. ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت، وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر، وتسخيره حلقه، ومنشا الصوت، وتاديته إلى الأسماع، كان في جميع ذلك الفكر مسبحاً مقدساً. فإذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكرا وفكرا كيف ينكر ذلك.

حكى بعض الصالحين قال: كنت معتكفاً في جامع جده على البحر. فرايت يوماً طائفة يقولون في جانب منه شيئاً فانكرت ذلك بقلبى وقلت فى بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر، فرايت رسول الله ﷺ في المنام تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية والى جنبه أبو بكر، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت في نفسى: ما كان ينبغي لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وابو بكر الى جنبه يقول، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول هذا حق بحق، أو حق من حق.

بل إذا كان ذلك الصوت من امرد يخشى بالنظر إليه الفتنة، أو من امراة غير محرم، وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا، يحرم سماعه لخوف الفتنه لا لمجرد الصوت، ولكن يجعل سماع الصوت حريم الفتنة، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة، كالقبلة للشاب الصائم، حيث جعلت حريم حرام الوقاع، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك. فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه، فيجعل المنع حريم الحرام وهكذا.

وقد ينكر السماع جامد الطبع، عديم الذوق، فيقال له: العنين لا يعلم لذة الوقاع، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع، فماذا ينكر من محب تربى باطنه بالشوق والمحبة، ويرى انحباس روحه الطيارة في مضيق قفص النفس الأمارة، يمر بروحه نسيم انس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان، وهو بوجود النفس في دار الغربة يتجرع كاس الهجران، يئن تحت اعباء المجاهدة، ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال، لا يقرب من كعبة الوصال، ولا يكشف له للسبل من الحجاب، فيتروح بنفس الصعداء، ويرتاح باللائح من شدة البرحاء، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المانعان:

أيا جبلي نعمان بالله خليا	نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت	على قلب محزون تجلت همومها
اجد بردها أو تشف منى حرارة	على كبد لم يبق إلا صميمها
الا إن ادوائى بليلى قديمة	واقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول: هل المحبة إلا امتثال الأمر وهل يعرف غير هذا، وهل هناك إلى الخوف من الله، وينكر المحبة الخاصة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين، ولما تقرر فى فهمه القاصر أن المحبة تستدعى

مثالا وخيالا واجناسا وأشكالا، أنكر محبة القوم، ولم يعلم أن القوم بلغوا فى رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس، وجادوا من فرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس.

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل، فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله، قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله، قال: من خلق الجبال؟ قالت: الله، قال: من خلق الغيم؟ قالت: الله، فقال: إنى أسمع لله شأنا، ورمى بنفسه من الجبل فتقطع.

فالجمال الأزلى الإلهى منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلى فى طى الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب. وهذه الرتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة، وأعم منها رتبة المحبة الخاصة دون العامة من مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال، والاستقلال بالمنح والنوال.

والصفات المنقسمة إلى ما ظهر منها فى الآباد ولازم الذات فى الآزال، فللكمال جمال لا يدرك بالحواس، ولا يستنبط بالقياس، وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلى الصفات، ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع، والأولون منحوا قسطا من تجلى الذات، فكان وجدهم على قدر الوجود، وسماعهم على حد الشهود.

وحكى بعض المشايخ قال: رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع، ويجدون به، ويتولهون عنده[1].

وقال بعضهم: كنا على الساحل، فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمره ويجئ حتى رجع إلى مكانه.[2]

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها.[3]

(١، ٢، ٣) هذه كلها روايات مجهولة غير معروف راويها ولا من شاهدها وليس لها دليل نقلى أو عقلى يسندها.

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعة فجعلها فى عينه. قال الناقل: قربت من عينه انظر فرأيت نارا أو نورا يخرج من عينه يرد نار الشمعة.

وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع عن الأرض فى الهواء أذرعا يمر ويجئ فيه.

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه: إن أنكرنا السماع مجملا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين، إلا أنا لا نفعل ذلك، لأنا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون.

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار، مع اجتهاده وتحريه الصواب، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر.

وسمع الشبلى قائلا يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر يكون له علم بها أين تُنزل

فزعق الشبلى وقال: لا والله ما فى الدارين عنه مخبر.

وقيل: الوجد سر صفات الباطن، كما أن الطاعة سر صفات الظاهر، وصفات الظاهر الحركة والسكون، وصفات الباطن الأحوال والأخلاق.

وقال أبو نصر السراج: أهل السماع على ثلاث طبقات: فقوم يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع، فهم يسمعون لطيبة قلوبهم، ويليق بهم السماع، فهم أقرب الناس إلى السلامة،

وأسلمهم من الفتنة، وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

وسئل بعضهم عن التكلف فى السماع فقال: هو على ضربين: تكلف فى المستمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة، وتكلف فيه لطلب الحقيقة، كمن يطلب الوجد بالتواجد، وهو بمنزلة التباكى المندوب إليه.

وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة، يقال له: إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعة تزاحم سنة مأمورا بها، وما لم يكن هكذا فلا بأس به، وهذا كالقيام للداخل لم يكن، فكان فى عادة العرب ترك ذلك حتى نقل أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له[1].

وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به، لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة، ويكون بدعة لا بأس بها، لأنها لم تزاحم سنة مأمورة.

---

(١) سبق ذكر خلاف ذلك فكانوا فى بعض الأحيان يقومون، وكان الرسول ﷺ يقوم لبعضهم كما سبق وذكره المؤلف. ومعنى ذلك أن كلا التصرفين مباح بناء على ما ذكر آنفاً وما ذكر هنا.

الباب الثالث والعشرون
فى القول فى السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق، وحيث كثرت الفتنة بطريقة، وزالت العصمة فيه، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماع للسماع، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك، لا رغبة للقلوب فى السماع، كما كان من سير الصادقين، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس طلبا للشهوات، واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات، ويقطع ذلك على المريد طلب المزيد، ويكون بطريقة تضييع الأوقات، وقلة الحظ من العبادات، وتكون الرغبة فى الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واستروا حا لأولى الطرب واللهو والعشرة. ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق.

وكان يقال: لا يصح السماع إلا لعارف مكين، ولا يباح لمريد مبتدى، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة.

وقيل، إن الجنيد ترك السماع، فقيل له كنت تستمع، فقال مع من؟ قيل له تسمع لنفسك، فقال ممن، لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل، فلما فقد الإخوان ترك. فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشروط وقيود وآداب يذكرون به الآخرة، ويرغبون فى الجنة، ويحذرون من النار، ويزداد به طلبهم، وتحسن به أحوالهم، ويتفق لهم ذلك اتفاقا فى بعض الأحايين، لا ان يجعلوه دأبا وديدنا حتى يتركوا لأجله الأوراد.

وقد نقل عن الشافعى ﷺ انه قال فى كتاب القضاء: الغناء لهو مكروه يشبه الباطل. وقال: من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

واتفق أصحاب الشافعى أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها، سواء أكانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب.

ونقل عن الشافعى ﷺ انه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن. وقال: لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان.

وعند مالك ﷺ إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة.

وهكذا مذهب الإمام أبى حنيفة ﷺ.

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء، ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[1] قال عبد الله بن مسعود ﷺ: هو الغناء والاستماع إليه.

وقيل فى قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾[2] أى مغنون. رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وهو الغناء بلغة حمير، يقول أهل اليمن: سمد فلان إذا غنى.

وقوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾[3] قال مجاهد: الغناء والمزامير.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «كان ابليس أول من ناح وأول من تغنى».

---

(١) سورة لقمان: آية ٦.

(٢) سورة النجم: آية ٦١.

(٣) سورة الإسراء: آية ٦٤.

وروى عبد الرحمن بن عوف ﷺ ان النبى ﷺ قال: «انما نهيت عن صوتين فاجرين: صوت عند نعمة، وصوت عند مصيبة».

وقد روى عن عثمان ﷺ انه قال: ما غنيت ولا تمنيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ انه قال: الغناء ينبت النفاق فى القلب.

وروى ان ابن عمر ﷺ مر عليه قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى، فقال: الا لا سمع الله لكم، الا لا سمع الله لكم.

وروى ان إنسانا سال القاسم بن محمد عن الغناء فقال: أنهاك عنه واكرهه لك، قال: احرام هو؟ قال: انظر يا ابن أخى إذا ميز الله الحق من الباطل فى ايهما يجعل الغناء.

وقال الفضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا.

وعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب.

وقال بعضهم: إياك والغناء فإنه يزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر.

وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح، لأن الطبع الموزون يفيق بالغناء والأوزان، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقعة بالأصابع والتصفيق والرقص، وتصدر منه افعال تدل على سخافة العقل.

وروى عن الحسن انه قال: ليس الدف من سنة المسلمين.

والذى نقل عن رسول الله ﷺ انه سمع الشعر لا يدل على إباحة الغناء، فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور، فحسنه حسن وقبيحه قبيح، وإنما يصير غناء بالألحان.

وأن أنصف المنصف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان، وقعود المغنى بُدفه والمشبب بشبابته، وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه، لا شك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ واصحابه.

ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما اهملوها. فمن يشير بانه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة احوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، واستروح إلى استحسان بعض المتاخرين ذلك، وكثيرا ما يغلط الناس فى هذا. وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمتاخرين، وكان السلف اقرب إلى عهد رسول الله ﷺ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ وكثير من الفقراء يستمع عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدتى اسماء بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال قلت: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر احدهم مغشيا عليه، قالت: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط، قال: ما لهذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر رضى الله عهما: إنا لنخشى الله وما نسقط، إن الشيطان يدخل فى جوف احدهم، ما هكذا كان يصنع اصحاب رسول الله ﷺ.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وليس هذا القول منهم إنكارا على الإطلاق، إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للتصنع المتوهم في حق الأكثرين، وقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل ممزوج بهوى، يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس، ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا، تخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه، وهذا يباين الصدق.

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه، فشق منهم رجل قميصه، فقيل لموسى عليه السلام: قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه.

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد، فقد توجهت الفتنة، وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك.

قال بقية بن الوليد: كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل.

وقال عطاء: كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها.

وقال بعض التابعين: ما أنا أخوف على الشاب التائب من السبع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه.

وقال بعض التابعين أيضا: اللوطية على ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون ذلك العمل.

فقد تعين على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم، فإن التصوف صدق كله، وجد كله.

يقول بعضهم: التصوف كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه. والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه، وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها.

وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك.

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون، ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه.



الباب الرابع والعشرون
في القول في السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد، فمن لم يفقد لم يجد، وإنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه، فلو تمحض عبدا لتمحض حرا، ومن تمحض حرا أفلت من شرك الوجد. فشرك الوجد يصطاد البقايا، ووجود البقايا لتخلف شيء من العطايا.

قال الحصرى رحمه الله: ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه.

فالوجد بالسماع في حق المحق، كالوجد بالسماع في حق المبطل من حيث النظر إلى انزعاجه وتأثير الباطن به، وظهور أثره على الظاهر، وتغييره للعبد من حال إلى حال. وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل. إن المبطل يجد لوجود هوى النفس، والمحق يجد لوجوده إرادة القلب، ولهذا قيل: السماع لا يحدث في القلب شيئا وإنما يحرك ما في القلب، فمن تعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد بالهوى، ومن متعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب. فالمبطل محجوب بحجاب النفس، والمحق محجوب بحجاب القلب، وحجاب النفس حجاب أرضي ظلماني، وحجاب القلب حجاب سماوي نوراني. ومن لم يفقد بدوام التحقق بالشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود، فلا يسمع ولا يجد.

ومن هذه المطالعة قال بعضهم: الوجد نار دم كلي لا ينفذ في قول.

ومر ممشاد الدينوري رحمه الله بقوم فيهم قوال، فلما رأوه أمسكوا، فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فوالله لو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شفى ما بي.

فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة فى حق المبطل، وبالقلب تارة فى حق المحق، فمثار الوجد الروح الروحانى فى حق المحق والمبطل، ويكون الوجد تارة من فهم المعانى يظهر، وتارة من مجرد النغمات والألحان. فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطل، ويشارك القلب فى حق المحق، وما كان من قبيل مجرد النغمات، تتجرد الروح للسماع، ولكن فى حق المبطل تسترق النفس السمع، وفى حق المحق يسترق القلب السمع. ووجه استلذاذ الروح النغمات أن العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال، ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة، والألحان المتناسبة، تأثر به لوجود الجنسية، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة، ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلا وآجلا.

ووجه آخر: إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفى إشارة ورمزا بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى، ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1] وفى قوله سبحانه (منها) إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتلاف. والتعاشق والنغمات تستلذها الروح، لأنها مناغاة بين المتعاشقين.

وكما أن فى عالم الحكمة كونت حواء من آدم، ففى عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحانى، فهذا التآلف من هذا الأصل، وذلك أن النفس روح حيوانى تجنس بالقرب من الروح الروحانى. وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانى، فصارت نفسا، فإذا تكون النفس من الروح الروحانى فى عالم القدرة، كتكون حواء من آدم فى عالم الحكمة. فهذا التآلف والتعاشق، ونسبة الأنوثة والذكورة من ههنا ظهر،

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٩.

وبهذا الطريق استطابت الروح النغمات لأنها مراسلات بين المتعاشقين، ومكالمة بينهما. وقد قال القائل:

تكلم منا في الوجود عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة، وجدت النفس المعلولة بالهوى، وتحركت بما فيها لحدوث العارض، ووجد القلب المعلول بالإرادة، وتحرك بما فيها لوجود العارض في الروح.

شربنا وأهرقنا على الأرض وللأرض من كاس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه، وقلب المحق أرض لسماء روحه. فالبالغ مبلغ الرجال، والمتجوهر المتجرد من أعراض الأحوال، خلع نعلى النفس والقلب بالوادى المقدس، وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس، وحرق بنور العيان أجرام الألحان، ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه، لشغله بمطالعة آثار محبوبه. فالهائم المشتاق لا يسعه كشف ظلامة العشاق.

ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأسا. وإذا كانت الألحان لا تلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها وخفى لطف مناغاتها، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعانى وهو أكثف، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات.

وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام، الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله، ومن صار فى محل القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله. فالوارد من عند الله مشعر ببعد، والقريب واجد فما يصنع بالوارد. والوجد نار والقلب للواجد ربه نور، والنور ألطف من النار، والكثيف غير مسيطر على اللطيف.

فما دام الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته، غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع، فإن دخل عليه فتور

أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبلى المحسن، يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء، أى يدخل عليه وجود يدركه الواجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس.

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم انه وجد من السماع، فقيل له: اين حالك من هذا؟ فقال: دخل على داخل اوردنى هذا المورد.

قال بعض أصحاب سهل: صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن، فلما كان فى آخر عمره قرئ عنده ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾[1] فارتعد وكاد يسقط، فسألته عن ذلك، قال: نعم لحقنى ضعف. وسمع مرة ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾[2] فاضطرب، فسأله ابن سالم وكان صاحبه، قال: قد ضعفت، فقيل له: إن كان هذا من الضعف فما القوة؟ قال: القوة أن الكامل لا يرد وارد إلا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد.

ومن هذا القبيل قول أبى بكر ﷺ: هكذا كنا حتى قست القلوب، لما رأى الباكى يبكى عند قراءة القرآن. وقوله: قست، أى تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استغربته حتى تغير.

والواجد كالمستغرب، ولهذا قال بعضهم: حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة. إشارة منه إلا استمرار حال الشهود، فهكذا فى السماع كقبل السماع.

وقد قال الجنيد: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٥.
(٢) سورة الفرقان: آية ٢٦.

وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله انه كان يقول: البكاء من بقية الوجود. وكل هذا يقرب البعض من البعض فى المعنى لمن عرف الإشارة فيه وفهم، وهو عزيز الفهم، عزيز الوجود.

واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة. فمنهم من يبكى خوفا، ومنهم من يبكى شوقا، ومنهم من يبكى فرحا، كما قال القائل:

طفح السرور على حتى أننى   من عظم ما قد سرنى أبكانى

قال الشيخ ابو بكر الكتانى رحمه الله: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام.

وقال أيضا: الموارد ترد فتصادف شكلا او موافقا، فأى وارد صادف شكلا مازجه، وأى وارد صادف موافقا ساكنه، وهذه كلها مواجيد أهل السماع، وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع، وهذا الاختلاف منزل على اختلاف اقسام البكاء التى ذكرناها من الخوف والشوق والفرح، واعلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على اهله بعد طول غربته، فعند رؤية الأهل يبكى من قوة الفرح وكثرته.

وفى البكاء رتبة اخرى اعز من هذه، يعز ذكرها، ويكبر نشرها، لقصور الأفهام عن إدراكها، فربما يقابل ذكرها بالإنكار، ويخفى بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا، او فهمها نظرا كثيرا ومثولا، وهو بكاء الوجدان، غير بكاء الفرح، وحدوث ذلك فى بعض مواطن حق اليقين. ومن حق اليقين فى الدنيا المامات يسيرة، فيوجد البكاء فى بعض مواطنه، لوجود تغاير وتباين بين المحدث والقديم، فيكون البكاء رشحا هو من وصف الحدثان لوهج سطوة عظمة الرحمن.

ويقرب من ذلك مثلا في الشاهد قطر الغمام يتلاقى مختلف الأجرام. وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح في صرف الفناء.

نعم قد يتحقق العبد في الفناء متجردا عن الآثار، منغمسا في الأنوار، ثم يرتقي منه إلى مقام البكاء، ويرد إليه الوجود مطهرا، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا، بمشاكلة صورها، ومباينة حقائقها، بفرق لطيف يدركه أربابه، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم، وذلك القسم مقدور له، مقهور معه، يأخذه إذا أراد.

ويرده إذا أراد، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت واستنارت، وباينت طبيعتها، واكتسبت طمأنينتها، وأكسبها الروح معنى منه، فيكون سماعه نوع تمتع للنفس، كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات، لا أن يأخذ السماع منه أو يزيد به، أو يظهر عليه منه أثر، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد، يفرحه في بعض الأوقات ببعض مآربه.

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشي كان يشغل أصحابه بالسماع، وينعزل عنهم ناحية يصلي، فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا المصلي فتتدلى إليها النفس متنعمة بذلك، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك، لبعد النفس عن الروح في تمتعها، فإنها مع طمأنينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجبلتها، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفتوح، ويكون طروق الألحان سمعه في الصلاة، غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة، وفهم تنزيل الكلمات، وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ولا مزاحمة، وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان.

والله المحسن المنان.

ولهذا قيل: السماع لقوم كالدواء، ولقوم كالغذاء، ولقوم كالمروحة.

ومن عود أقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأبيّ «اقرأ»، فقال: اقرأ

عليك وعليك انزل؟ فقال «احب ان اسمعه من غيرى» فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾[1] فإذا عيناه تهملان.

وروى ان رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكى وقال «يا عمر ههنا تسكب العبرات».

والتمكن تعود إليه أقسام البكاء، وفى ذلك فضيلة سألها النبى ﷺ فقال «اللهم ارزقنى عينين هطالتين».

ويكون البكاء فى الله، فيكون لله، ويكون بالله وهو الأتم، لعوده إليه بوجود مستانف موهوب له من الكريم المنان فى مقام البقاء.



(١) سورة النساء: آية ٤١.

الباب الخامس والعشرون
فى القول فى السماع تأدبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب أدب السماع، وحكم التخريق وإشارات المشايخ فى ذلك، وما فى ذلك من المأثور والمحظور.

مبنى التصوف على الصدق فى سائر الأحوال، وهو جد كله لا ينبغى لصادق أن يتعمد الحضور فى مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى، ويتوقع به مزيدا فى إرادته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشىء من هواها، ثم يقدم الاستخارة للحضور، ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه، وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف.

قال أبو بكر الكتانى رحمه الله: المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح إليه، يهيج منه السماع وجدا أو شوقا أو غلبة أو واردا، والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون، فيتقى الصادق استدعاء الوجد، ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ.

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله، وكلما سمع شيئا زعق وتغير فقال له يوما: إن ظهر منك شىء بعد هذا فلا تصحبنى، فكان بعد ذلك يضبط نفسه، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه.

فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل، وذلك عين النفاق.

قيل: كان النصراباذى رحمه الله كثير الولع بالسماع، فعوتب فى ذلك، فقال: نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب، فقال له أبو عمرو بن بجيد وغيره من إخوانه: هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب

الناس، وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى، وترويح للحال بصريح الحال، وفى ذلك ذنوب متعددة.

منها: أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له، والكذب على الله من أقبح الزلات.

ومنها: أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن، والغرور خيانة. قال عليه السلام «من غشنا فليس منا».

ومنها: أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح، فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه، فيفسد عقيدته فى غيره ممن يظن به الخير من أمثاله، فيكون سببا إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته، فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها.

ومنها: أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده، فيكون متكلفا مكلفا للناس بباطله، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل، ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مداريا، ويكثر شرح الذنوب فى ذلك. فليتق الله ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذى لا يجد سبيلا إلى الإمساك، وكالعاطس الذى لا يقدر أن يرد العطسة، وتكون حركته بمثابة النفس الذى يدعوه إليه داعية الطبع قهرا.

قال السرى: شرط الواجد فى زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجه. وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات، وهو فى تمزيق الثياب آكد، فإن ذلك يكون إتلاف المال، وإنفاق المحال.

وهكذا رمى الخرقة إلى الحادى، لا ينبغى أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة، وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادى، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله ﷺ المسجد وأنشده أبياته التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ﷺ «من أنت»؟ فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فرمى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف، فوجه إليه: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا. فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفا وأخذ البردة، وهى البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم، عادت بركتها على أيامه الزاهرة.

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها، ورعايتها حسن الأدب فى الصحبة والمعاشرة. وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن كل شيء استحسنوه وتواطئوا عليه ولا ينكره الشرع لا وجه للإنكار فيه.

فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك فى السماع فوقعت منه خرقة أو نازله وجد ورمى عمامته إلى الحادى، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له فى كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ. وإن كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشبان، فإذا سكتوا عن السماع يرد الواجد إلى خرقته، ويوافقه الحاضرون برفع العمائم، ثم ردها على الرؤوس فى الحال للموافقة.

والخرقة إذا رميت إلى الحادى هي للحادى إذا قصد إعطاءه إياها، وإن لم يقصد إعطاءها للحادى فقيل هى للحادى، لأن المحرك هو، ومنه صدر الوجب لرمى الخرقة. وقال بعضهم: هى للجمع والحادى واحد منهم، لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فى إحداث الوجد، وإحداث الوجد لا يتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحدا منهم فى ذلك.

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من وقف بمكان كذا فله كذا، ومن قتل فله كذا، ومن أسر فله كذا، فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم، فقال الشيوخ: كنا ظهرا لكم وردء فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1].

وقيل: إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم.

وقيل: إذا كان القوال أجيرا فليس له منها شيء، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك. وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال فى ذلك. وللشيخ اجتهاد فيفعل ما يرى، فلا اعتراض لأحد عليه. وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به، وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك. وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له فى ذلك يؤثر بخرقته الحادى.

وأما تمزيق الخرقة المجروحة التى مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره، كغلبة النفس، فمن يعتمد إمساكه فنيتهم فى تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق، وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد، فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك

---

(١) سورة الأنفال: آية ١.

على الرؤوس إكراما واعزازا، تضوع أرواح تجد من ثيابهم يوم القدوم لقرب العهد بالدار، كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول «حديث عهد بربه».

فالخرقة المزقة حديثة العهد، فحكم المجروحة ان تفرق على الحاضرين، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح ان يحكم فيها الشيخ ان خصص بشيء منها بعض الفقراء فله ذلك، وإن خرقه خرقا فله ذلك، ولا يقال هذا تفريط وسرف، فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة.

وروى عن امير المؤمنين على بن ابى طالب ﷺ انه قال: أهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير فارسل بها إلى، فخرجت فيها فقال لى «ما كنت لأكره لنفسى شيئا ارضاه لك، فشققها بين النساء خمرا» وفى روية: اتيته فقلت ما اصنع بها البسها؟ قال: «لا ولكن اجعلها خمرا بين الفواطم» اراد فاطمة بنت اسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت حمزة. وفى هذه الرواية ان الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير. وهذا وجه فى السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقا.

حكى ان الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقة، وكان شيخ الفقهاء الشيخ ابا محمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ ابا القاسم القشيرى، فقسمت الخرقة على عادتهم، فالتفت الشيخ ابو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا: هذا سرف واضاعة للمال، فسمع ابو القاسم القشيرى، ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ثم استدعى الخادم وقال انظر فى الجمع من معه سجادة خرق انتنى بها، فجاءه بسجادة ثم احضر رجلا من اهل الخبرة فقال: هذه السجادة بكم تشترى فى للزاد؟ قال: بدينار، قال: ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى؟ قال: نصف دينار، ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال: هذا لا

يسمى إضاعة المال، والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين، من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقة.

روى طارق بن شهاب ان اهل البصرة غزوا نهاوند، وامدهم اهل الكوفة وعلى اهل الكوفة عمار بن ياسر، فظهروا، واراد اهل البصرة الا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا، فقال رجل من بنى تميم لعمار: ايها الأجدع تريد أن تشاركنا في غنائمنا؟ فكتب إلى عمر بذلك، فكتب عمر رضي ﷺ: أن الغنيمة لمن شهد الواقعة.

وذهب بعضهم إلى ان المجروح من الخرق يقسم على الجمع، وما كان من ذلك صحيحا يعطي للقوال، واستدل بما روى عن ابى قتادة قال: لما وضعت الحرب اوزارها يوم حنين، وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه» وهذا له وجه فى الخرقة الصحيحة. فاما المجروحة فحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم. ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له.

روى ابو موسى الأشعرى ﷺ قال: لما قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث فاسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا.

ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السماع، كمتزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر، او صاحب دنيا يحوج إلى المداراة والتكلف، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده.

اخبرنا ابو زرعة طاهر عن والده ابى الفضل الحافظ المقدسى قال: اخبرنا ابو منصور محمد بن عبد الملك المظفرى بسرجس قال: اخبرنا ابو على الفضل بن منصور بن نصر الكاغدى السمرقندى إجازة قال: حدثنا الهيثم بن كليب قال: اخبرنا ابو بكر عمار بن إسحاق قال: حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن انس قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه

جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم من ينشدنا؟ فقال بدوى: نعم يا رسول الله، فقال هات، فانشا الأعرابى:

لقد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه. قال معاوية بن أبى سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب. ثم قسم رداءه رسول الله ﷺ على من حاضرهم بأربعمائة قطعة. فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه. وقد تكلم فى صحته أصحاب الحديث. وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا. وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم. ويخالج سرى انه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا فى هذا الحديث ويأبى القلب قبوله والله أعلم بذلك.

الباب السادس والعشرون
فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئا مخصوصا لا يطلبونه فى غيرها، ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات احبوا تقييد الوقت بالأربعين، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين، على أن الأربعين خصت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ «من اخلص لله اربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه السلام، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[1] وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فيه تبيان الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

فلما فعل الله ذلك، وأهلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما، وهو ذو القعدة، فلما تمت الثلاثون ليلة، أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب، فقالت له الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة، وقال له: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك، ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل، بل طوى الأربعين من غير أكل، فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعدا لمكالمة الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٢.

والعلوم اللدنية فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من الكالة، ومن انقطع إلى الله أربعين يوما مخلصا متعاهدا نفسه بخفة المعدة، يفتح الله عليه العلوم اللدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك، غير أن تعيين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك، والتحديد والتقييد بالأربعين لحكمة فيه، ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك، أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء.

ويلوح فى سر ذلك معنى والله أعلم، وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد كما ورد: خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا، فكان آدم لما كان مستصلحا لعمارة الدارين، وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا.

كما أراد منه عمارة الجنة، كون من التراب تركيبا يناسب عالم الحكمة والشهادة وهذه الديار الدنيا.

وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه، وأربعين صباحا خمر طينه ليبعد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية، ومواطن القرب، إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا، فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى فى الأرض[1].

فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع، وعلى قدر زوال كل حجاب ينجذب ويتخذ منزلا فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها، فإذا تمت الأربعون ذات الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا.

---

(١) هذا اجتهاد من المصنف رحمه الله.

ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت أنوارا باتصال إكسير نوع العظمة الإلهية بها، فانقلبت اعيان حديث النفس علوما إلهامية، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية، لأن حديث النفس وعاء وجودي لقبول الأنوار، وما للقلب في ذاته لقبول العلم شيء. وقول رسول الله ﷺ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، اشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجها إلى النفس، باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب، فيستمد القلب العلوم المكونة في النفس، ويخرجها إلى اللسان الذي هو ترجمانه. فظهور العلوم من القلب لأنها متاصلة فيه.

فللقلب والروح مراتب من قرب الله سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام. فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم. وقد ورد في الخبر «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

ففي كل يوم بإخلاصه في العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية للبعد عن الله تعالى، إلى ان يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة في كل يوم طبقة من أطباق حجابه. وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص ان يزهد بعد الأربعين في الدنيا، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، لأن الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين انه قد اخل بالشروط، ولم يخلص لله تعالى، ومن لم يخلص لله ما عبد الله، لأن الله تعالى امرنا بالإخلاص كما امرنا بالعمل، فقال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[1].

---

(١) سورة البينة، آية ٥.

اخبرنا الشيخ طاهر بن ابى الفضل إجازة قال انا ابو بكر احمد بن خلف إجازة قال انا ابو عبد الرحمن السلمى قال انا ابو منصور الضبعى قال حدثنا محمد بن اشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زرعة صفوان بن عسال ﷺ عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة يجئ الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الرب عز وجل، فيقول الرب للإخلاص: انطلق انت واهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار».

وبهذا الإسناد قال السلمى: سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسالته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سالت احمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بن على الهجيمى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبى ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: هو سر من سرى أودعته قلب من احببت من عبادى».

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة، ميالة إلى مخالطة الخلق، فإذا أزعجها عن مقار عادتها، وحبسها عن طاعة الله تعالى، يعقب كل مرارة تدخل عليها حلاوة فى القلب.

قال ذو النون رحمه الله: لم ار شيئا ابعث على الإخلاص من الخلوة، ومن احب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص، وظفر بركن من أركان الصدق.

وقال الشبلى رحمه الله لرجل استوصاه: الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: الوحدة منية الصديقين.

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة، وتنجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد.

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أخبرنا الحافظ إسماعيل بن أحمد المقرى قال أنا جعفر بن الحكاك المكى قال أنا أبو عبد الله الصنعانى قال أنا أبو عبد الله البغوى قال أنا إسحاق الديرى قال أنا عبد الرازق عن معمر قال أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1]. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ما لى وأخبرها الخبر، فقال: قد خشيت على عقلى، فقالت: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له

---

(١) سورة العلق، آيات ١: ٥.

خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره الخبر رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى، يا ليتنى جذعا، ليتنى فيها أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم؟ قال ورقة: نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودى وأوذى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا».

وحدث جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه «فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبا، فرجعت فقلت: زملونى زملونى، فدثرونى فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ إلى ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾[1].

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مرارا كى يردى نفسه من شواهق الجبال، فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبرائيل عليه السلام: فقال: يا محمد إنك لرسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك.

فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين، فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضا من الله إياهم عما تركوا لأجله.

ثم خلوة القوم مستمرة وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادئ بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهبه السنية.

---

(١) سورة المدثر: آيات ١: ٥.

الباب السابع والعشرون
فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط فى طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان، وفتح عليهم بابا من الغرور، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تادية حق الخلوة بالإخلاص، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات، وظهرت لهم وقائع، وكوشفوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال. وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى.

نقل عن أبى عمرو الأنماطى أنه قال: لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول والمواطن التى ينبغى أن يعرف منها امزداد هو أم منتقص، فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكى لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريده.

أنبأنا طاهر بن أبى الفضل إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة قال أنبأنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربى يقول: من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد ربه، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الوراق وقال له: أوصنى، فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة، ووجدت شرهما فى الكثرة والاختلاط، فمن دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان، وسول له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور

والمحال، فظن أنه على حسن الحال، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة.

والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب، والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتني به الفلاسفة والدهريون خذلهم الله تعالى.

وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك، حتى يركن إليه الركون التام، ويظن انه فاز بالمقصود، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة، وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة.

وقد يفتح على الصادقين من خوارق العادات وصدق الفراسة، ويتبين ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد إيقانهم، والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على ما ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته، واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام،

ويظن ان المقصود من العبادات ذكر الله تعالى، ويترك متابعة الرسول ﷺ، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق، نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم ان العبد إذا أخلص لله واحسن نيته وقعد فى الخلوة اربعين يوما او اكثر، فمنهم من يباشر باطنه صفو اليقين، ويرفع الحجاب عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم رأى قلبى ربى.

وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات، وكف الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات، وتارة يبادئه الحق لموضع صدقه، وقوة استعداده ومبادئه، من غير عمل وجد منه، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار، لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقوله، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسنتها الراتبة فحسب، وسائر اوقاته مشغولة بالذكر الواحد، لا يتخللها فتور، ولا يوجد منه قصور، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزما به، حتى فى طريق الوضوء وساعة الأكل لا يفتر عنه.

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة:

لا إله إلا الله.

وهذه الكلمة لها خاصية فى تنوير الباطن وجمع الهمم إذا داوم عليها صادق مخلص، وهى من مواهب الحق لهذه الأمة، وفيها خاصية لهذه الأمة فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء قال انا أبو القاسم الدمشقى الحافظ قال انا عبد الكريم بن الحسين قال انا عبد الوهاب الدمشقى قال انا محمد بن خزيم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أنا عبد الرحمن بن زيد عن ابيه، أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: رب أنبئنى

عن هذه الأمة المرحومة، قال: أمة محمد عليه الصلاة والسلام، علماء حنفاء اتقياء حلماء اصفياء حكماء كانهم انبياء، يرضون منى بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وادخلهم الجنة بلا إله إلا الله، يا عيسى هم اكثر سكان الجنة، لأنها لم تذل السن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت السنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[1] وحرز للمؤمنين وكنزا للأميين، انت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتحوا أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه، مع مواطأة القلب، حتى تصير الكلمة متأصلة فى القلب، مزيلة لحديث النفس، ينوب معناها فى القلب عن حديث النفس، فإذا استولت الكلمة، وسهلت على اللسان يتشربها القلب، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب، ثم تتجوهر فى القلب، ويتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهرا، ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة، أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر، وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة.

وقد يحصل هذا من الخلوة لا بذكر الكلمة، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة، واجتهد فى مواطأة القلب حديث النفس، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة، ويتنور الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة،

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٤٥.

وبتجوهر نور الكلام فى القلب، ويكون منه أيضا ذكر الذات، ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى، ودون هذه الموهبة ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللدنية، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه، قد يغيب فى الذكر من كمال انسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم.

وقد تتجلى له الحقائق فى لبسة الخيال أولا، كما تتكشف الحقائق للنائم فى لبسة الخيال، كمن رأى فى المنام أنه قتل حية، فيقول له المعبر تظفر بالعدو، فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به، وهذا الظفر روح مجرد صاغ ملك الرؤيا له جسدا لهذا الروح من خيال الحية، فالروح الذى هو كشف الظفر أخبار الحق، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة، فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية، فافتقر إلى التعبير، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير، فكان يرى الظفر ويصح الظفر.

وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة، فيكون المنام أضغاث أحلام لا يعبر، وقد يتجرد لصاحب الخلوة المنبعث من ذاته، من غير أن يكون وعاء لحقيقة، فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال، فأما إذا غاب الصادق فى ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس، بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته فى الذكر.

فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف، فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى، وإما يفسره له شيخه كما يعبر المنام، ويكون ذلك واقعة، لأنه كشف حقيقة فى لبسة مثال، وشرط صحة الواقعة الإخلاص فى الذكر أولا، ثم الاستغراق

فى الذكر ثانيا، وعلامة ذلك الزهد فى الدنيا وملازمة التقوى، لأن الله جعله بما يكاشف به فى واقعة من غير لبسة المثال، فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع، وقد يسمع من باطنه، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهواتف، يعلم ذلك أمرا يريد الله إحداثه له أو لغيره، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه، أو يرى فى المنام حقيقة الشيء.

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب فى قدح، فوضعه من يده وقال: قد حدث فى العالم حدث ولا أشرب هذا دون أن أعلم ما هو، فانكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها.

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال: كنت راكبا حمارا لى يوما، وكان يؤذيه الذباب فيطاطئ راسه، فكنت أضرب راسه بخشبة كانت فى يدى، فرفع الحمار رأسه إلى وقال اضرب فإنك على رأسك تضرب. قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته؟ فقال: سمعته يقول كما سمعتنى.

وحكى عن أحمد بن عطاء الروزبارى قال: كان لى مذهب فى أمر الطهارة، فكنت ليلة من الليالى استنجي إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى، فتضجرت فبكيت وقلت: يا رب العفو، فسمعت صوتا ولم أر أحدا يقول: يا أبا عبد الله العفو فى العلم. وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه.

قيل: كان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص له قيمة، وكان يوما من الأيام راكبا فى السمارية فى دجلة، فهم إن يعطى الملاح قطعة، وحل الخرقة فوقع الفص فى الدجلة، وكان عنده دعاء للضالة مجرب، وكان يدعو به، فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتفحصها. والدعاء هو أن يقول: [**يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع على ضالتى**].

وسمعت شيخنا بهمذان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى جيحون، كاد يسقط فى الماء من السفينة، قال فزجرته فلم يسقط، وكان هذا الشخص بنواحى همذان وولده بجيحون، فلما قدم الولد اخبر انه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط.

وقال عمر ﷺ: يا سارية الجبل، على المنبر بالمدينة، وسارية بنهاوند، فاخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو، فقيل لسارية: كيف علمت ذلك؟ فقال: سمعت صوت عمر وهو يقول يا سارية الجبل.

سئل ابن سالم وكان قد قال: للإيمان اربعة أركان، ركن منه الإيمان بالقدرة، وركن منه الإيمان بالحكمة، وركن منه التبرى من الحول والقوة، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء. قيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدرة؟ فقال: هو ان تؤمن ولا تنكر ان يكون لله عبد بالمشرق قائما على يمينه، ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب، نؤمن بجواز ذلك وكونه.

وحكى لى فقير أنه كان بمكة وارجف على شخص ببغداد أنه قد مات، فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد، فاخبر إخوانه ان الشخص لم يمت، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص راكبا، قال رايته فى السوق وانا اسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد.

وكل هذه مواهب الله تعالى، وقد يكاشف بها قوم وتعطى، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا، لأن هذه كلها تقوية اليقين، ومن منح صرف اليقين لا حاجة له إلى شيء من هذا.

فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر فى القلب ووجود ذكر الذات، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للمريدين، وتربية للسالكين،

ليزدادوا بها يقينا يجنبون به إلى مراغمة النفوس، والسلو عن ملاذ الدنيا، ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارة الأوقات بالقربات، فيتروحون بذلك، ويرقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك، لمكان أن نفسه أسرع إجابة، وأسهل انقيادا، وأتم استعدادا.

والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر واستكشف، منهم ما استتر، وقد لا يمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة، ممن هو غير منتهج سبل الهدى، وراكب طريق الردى، ليكون ذلك في حقهم مكرا واستدراجا، ليستحسنوا حالهم، ويستقروا في مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال، والردى والوبال، حتى لا يغتر السالك بيسير شيء يفتح له، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي حق التقوى والزهد.

فأما من تعوق بخيال، أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور، ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحقرها، ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة، وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة، ويفتضح في الدنيا والآخرة.

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات، وكف الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد، وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحوب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنويعها، مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة، يريد المريد لله لا لنفسه، غير مبتلى بهوى نفسه، محبا للاستتباع. ومن كان محبا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه.

الباب الثامن والعشرون
فى كيفية الدخول فى الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه. وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك ارباب الصدق، فمن استمرت أوقاته على ذلك فجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا، فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا.

نقل عن سفيان الثورى فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه انه كان يقال: ما اخلص العبد الله أربعين صباحا إلا انبت الله سبحانه الحكمة فى قلبه، وزهده الله فى الدنيا، ورغبه فى الآخرة، بصره داء الدنيا ودواءها، فيتعاهد العبد نفسه فى كل سنة مرة.

وأما المريد الطالب إذا أراد ان يدخل الخلوة، فأكمل الأمر فى ذلك أن يتجرد من الدنيا، ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة، ويصلى ركعتين، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه، ببكاء وتضرع، واستكانة وتخشع، ويسوى بين السريرة والعلانية، ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة.

ثم يقعد فى موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطا، فإن وجود تفرقة فى خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة فى خلوته، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفردا البتة، فيترك الجماعة يخشى عليه آفات، وقد رأينا من يتشوش عقله فى خلوته، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة، غير انه ينبغى ان يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكر لا يفتر عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى، ولا يصغى إلى ما يسمع،

لأن القوة الحافظة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع، فيكثر ذلك الوسواس وحديث النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيره الإحرام، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته، ويتقى فى خروجه استجلاء نظر الخلق إليه، وعلمهم بجلوسه فى خلوته، فقد قيل: لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس.

وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر. ويكون فى خلوته جاعلا وقته شيئا واحدا موهوبا لله بإدامة فعل الرضا، إما تلاوة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة، وأى وقت فتر عن هذه الأقسام ينام، فإن أراد تعين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر، أتى بذلك شيئا فشيئا، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام، فإذا فتر عن ذلك ينام،وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة او ساعتين فعل.

ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء، ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات، فيكون هذا شغله ليله ونهاره، وإذا كان ذكرا لكلمة لا إله إلا الله وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان. وقد قال سهل بن عبد الله: إذا قلت لا إله إلا الله مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فاثبته وابطل ما سواه وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة، فليكن دائم التلزم بفعل الرضا.

وأما قوت من فى الأربعينية والخلوة، فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح، ويتناول كل ليلة رطلا واحدا بالبغدادى، يتناوله بعد العشاء الآخرة، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة، واعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل.

وان لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام، وإن كان الإدام شيئا يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك، وإن أراد التقلل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون اللقمة، بحيث ينتهي تقلله في العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل.

وإن قوى قنع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيرا كل ليلة بالتدريج، حتى يعود فطوره إلى ربع رطل في العشر الأخير.

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس، وقد جعل للجوع وقتان: أحدهما آخر الأربع والعشرين ساعة، فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة، يجعلها بعد العشاء الآخرة، أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا، والوقت الآخر على رأس اثنتين وسبعين ساعة، فيكون الطى ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغي أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سآمة وضجرا، وقلة انشراح في الذكر والمعاملة، فإذا وجد شيئا من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات. وقس على هذا، فهي إن أطعمت طمعت، وإن أقنعت قنعت.

وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها.
ومن الصالحين من كان يعير القوت بنوى التمر، وينقص كل ليلة نواة.

ومنهم من كان يعير بعود رطب، وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود.

ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف، حتى يفنى الرغيف فى شهر. ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل فى تقليل القوت، ولكن يعمل فى تأخيره بالتدريج، حتى تندرج ليلة فى ليلة، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيهم إلى سبعة ايام، وعشرة أيام، وخمسة عشر يوماً، إلى الأربعين.

وقد قيل لسهل بن عبد الله: هذا الذى يأكل فى كل اربعين وأكثر أكلة اين يذهب لهب الجوع عنه؟ قال: يطفئه النور. وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلاما بعبارة دلت على أنه يجد فرحا بربه ينطفئ معه لهب الجوع، وهذا فى الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعا فيذهب عنه الجوع. وهكذا فى طرق الخوف يقع ذلك.

ومن فعل ذلك ودرج نفسه فى شيء من هذه الأقسام التى ذكرناها لا يؤثر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه، إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص، وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى.

وقد قيل: حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل. ومتى عيبت النفس الخبز فليس بجائع، وهذا المعنى قد يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة ايام وهذا جوع الصديقين، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية، ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدريج. فأما من درج نفسه فى ذلك فقد يصير على أكثر من ذلك إلى الأربعين كما ذكرنا. وقد قال بعضهم: حد الجوع أن يبزق، فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسومة، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم ﷺ كانا يطويان ثلاثا ثلاثا، وكان أبوبكر الصديق ﷺ يطوى ستا. وكان عبد الله ابن الزبير ﷺ يطوى سبعة أيام.

واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمويه رحمه الله، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى انه كان يطوى أربعين يوما. واقصى ما بلغ فى هذا المعنى الطى رجل أدركنا زمانه، وما رايته كان فى ابهر يقال له الزاهد خليفة، كان يأكل فى كل شهر لوزة، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمة أحد بالطى والتدريج إلى هذا الحد، وكان فى أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود، ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين.

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين، وقد يسلك غير الصادق هذا لوجود هوى مستكن فى باطنه، يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استجلاء لنظر الخلق، وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك. والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى، فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى.

فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك، وهذا علامة الصادق، فمهما احس فى نفسه أنه يحب ان يرى بعين التقلل فليتهم نفسه، فإن فيه شائبة النفاق، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جانب الروح الروحانى، فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى، وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية.

وأما أثر جانب الروح إذا تخلف عن جانب النفس عند كمال طمأنينتها، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير، فأجل من

جذب المغناطيس للحديد، إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس، فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة، فإذا تجنست النفس يعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح، وأداها إلى النفس، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها، فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ «ابيت عند ربى يطعمنى ويسقينى».

ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام ايضا ضرورة، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيها نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعت إلى هواها. فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس، ورزق الحلم، سهل عليه الطى، وتداركته المعونة من الله تعالى، لا سيما إن كوشف بشيء من المنح الإلهية.

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبب. قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله على بتفاحة، قال فتناولت التفاحة وقصدت اكلها، فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها، فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياما. وذكر لى ان الحوراء خرجت من وسط التفاحة، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان، فسلم ولا تنكر.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: من طوى اربعين يوما ظهرت له القدرة من الملكوت وكان يقال: لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من الملكوت.

وقال الشيخ ابو طالب المكى رحمه الله: عرفنا من طوى أربعين يوما برياضة النفس فى تأخير القوت. وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف

سبع الليل، حتى يطوى ليلة فى نصف شهر، فيطوى الأربعين فى سنة واربعة اشهر، فتندرج الأيام والليالى حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد.

وذكر لى ان الذى فعل ذلك ظهرت له آيات من الملكوت، وكوشف بمعانى قدرة من الجبروت، تجلى الله بها له كيف شاء.

واعلم أن هذا المعنى من الطى والتقلل، لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدا من الأنبياء، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى اقصى غاياته، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر، ولكن لا ينحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك، فقد يكون من ياكل كل يوم افضل ممن يطوى اربعين يوما، وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معانى القدرة افضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله بصرف المعرفة. فالقدرة اثر من القادر.

ومن اهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء علم الحكمة، فإذا أخلص العبد لله تعالى اربعين يوما واجتهد فى ضبط احواله بشيء من الأنواع التى ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك، تعود بركة تلك الأربعين على جميع اوقاته وساعاته، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين. وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة، وهى أربعون موسى عليه السلام.

اخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال انا ابو منصور محمد ابن عبد الملك بن خيرون إجازة قال انا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال انا ابو عمر محمد بن العباس قال حدثنا ابو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الملك ابن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

الباب التاسع والعشرون
فى أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا فى الاقتداء برسول ﷺ، وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتداء وإحياء سنته على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام ابو أحمد عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروى قال أنا أبو نصر عبد العزيز ابن محمد الترياقى قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك ﷺ: قال لى رسول الله ﷺ «يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بنى وذلك من سنتى، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة».

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وفقوا فى بدايتهم لرعاية أقواله، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك أن تحققوا فى نهاياتهم بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا، قال مجاهد: [على خلق عظيم] أى على دين عظيم. والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة.

سئلت عائشة ﵂ عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: [كان خلقه القرآن].

---

(١) سورة القلم: آية ٤.

قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه، وفى قول عائشة: [كان خلقه القرآن]، سر كبير، وعلم غامض، ما نطقت بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى، وصحبة رسول الله ﷺ، وتخصيصه إياها بكلمة «خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء».

وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضرورتها، خلقت من تراب، ولها بحسب ذلك طبع، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادئ تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية. وإلى صفة الشيطنة فى الإنسان إشارة بقوله تعالى ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[1]. لدخول النار فى الفخار. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[2].

والله تعالى بخفى لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله ﷺ على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحارث أنها قالت فى حديث طويل: فبينا نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما ممتقعا لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا.

فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب، انطلقى بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت فاحتملناه، فما راع

---

(١) سورة الرحمن: آية ١٤.
(٢) سورة الرحمن: آية ١٥.

أمه إلا وقد قدمنا به عليها. قالت: ما ردكما، قد كنتما عليه حريصين؟ قلنا: لا والله لا ضير إلا ان الله عز وجل قد ادى عنا وقضينا الذى كان علينا وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى اهله.

فقالت: ما ذاك بكما فاصدقانى شأنكما، فلم تدعنا حتى اخبرناها خبره. فقالت: خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شان، الا اخبركما بخبره؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به فما حملت حملا قط اخف منه. قالت: فاريت فى النوم حين حملت به كانه خرج منى نور قد اضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعا لم يقعه المولود معتمدا على يديه رافعا راسه إلى السماء، فدعاه عنكما.

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر لها ظهور بصفات واخلاق مبقاه على رسول الله ﷺ رحمة للخلق، لوجود امهات تلك الصفات فى نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها تاديبا من الله لنبيه، رحمة خاصة له، وعامة للأمة، موزعة لنزول الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات، لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطراب، آية متضمنة لخلق صالح سنى، إما تصريحا أو تعريضا، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه، ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فانزل الله تعالى ﴿ لَيۡسَ لَكَ

---

(١) سورة الفرقان: آية ٣٢.

مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[1]. فاكتسى القلب النبوى لباس الاصطبار، وفاء بعد الاضطراب إلى القرار.

فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن، ويكون فى ابقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه السلام «إنما انسى لأسن» فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتاديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم، حتى تتزكى نفوسهم« وتشرف اخلاقهم: قال رسول الله ﷺ «الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا منحه منها خلقا».

وقال ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وروى عنه ﷺ «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا، من آتاه واحدا منها دخل الجنة».

فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى إلى النبى، المرسل، والله تعالى أبرز إلى الخلق اسماءه منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما ابرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء. ولا يبعد والله اعلم أن قول عائشة رضى الله عنها: [كان خلقه القرآن]، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقا باخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: [كان خلقه القرآن].

قال الجنيد رحمه الله: كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٨.

وقال الواسطى رحمه الله تعالى: لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق.

وقيل: لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه، وهذا ما قاله بعضهم فى معنى التصوف: التصوف الخلق مع الخلق، والصدق مع الحق.

وقيل: عظم خلقه حيث صغرت الأكوان فى عينيه بمشاهدة مكونها.

وقيل: سمى خلقه عظيما لاجتماعه مكارم الأخلاق فيه.

وقد ندب رسول الله ﷺ امته إلى حسن الخلق فى حديث اخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الهروى قال انا ابو نصر الترياقى قال انا ابو محمد الجراحى قال انا ابو العباس المحبوبى قال انا ابو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا احمد بن الحسين بن خراض قال حدثنا بن حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثنى عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر ﷺان رسول الله ﷺ قال «إن من احبكم إلى واقربكم منى مجلسا يوم القيامة احاسنكم اخلاقا، وإن ابغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفقيهقون؟ قال: المتكبرون» والثرثار هو المكثار من الحديث: والمتشدق: المتطاول على الناس فى الكلام.

قال الواسطى رحمه الله: الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم.

وقال ايضا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[1] لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك.

وقال أيضا: لأنك قبلت فنون ما اسديت إليك من نعمى احسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل.

---

(١) سورة القلم، آية ٤.

وقال الحسين: لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق.

وقيل: الخلق العظيم لباس التقوى، والتخلق بأخلاق الله تعالى، إذ لم يبق للأعواض عنده خطر.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ﴾[1]، اتم، لأنه حيث قال (وإنك) أحضره، وإذا احضره اغفله وحجبه. وقوله (لأخذنا) اتم، لأن فيه فناء. وفي قول هذا القائل نظر، فهلا قال: إن كان في ذلك فناء ففي قوله (وإنك) بقاء، وهو بقاء بعد فناء، والبقاء اتم من الفناء، وهذا أليق بمنصب الرسالة، لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مذموم، فإذا نزع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت، فأي عزة تبقى في الفناء، فيكون حضوره بالله لا بنفسه، فأي حجبة تبقى هنالك؟.

وقيل: من أوتي الخلق العظيم فقد أوتي أعظم المقامات، لأن للمقامات ارتباطا عاما، والخلق ارتباط بالنعوت والصفات.

وقال الجنيد: اجتمع فيه أربعة أشياء: السخاء، والألفة، والنصيحة، والشفقة.

وقال ابن عطاء: الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار، ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوفات.

وقال أبو سعيد القرشي: العظيم هو الله، ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان، ألا ترى إلى قوله عليه السلام «إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أتى بواحد منها دخل الجنة» فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[2].

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة القلم: آية ٤.

وقيل: عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق، وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات.

وقيل: لما بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات، وألقاه فى الغربة والجفوة، فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[1].

وأخبرنا الشيخ الصالح ابو زرعة بن الحافظ ابى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه قال انا ابو عمر المليحى قال انا ابو محمد عبد الله بن يوسف قال انا ابو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقى قال انا أيوب بن محمد الوزان قال حدثنى الوليد قال حدثنى ثابت عن يزيد عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت:

كان نبى ﷺ يقول «مكارم الأخلاق عشرة، تكون فى الرجل ولا تكون فى أبيه، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء».

وسئل رسول الله ﷺ عن اكثر ما يدخل الناس الجنة، قال «تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال «الغم والفرح» يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء. ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[2]. وهو الفرح الذى قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ

---

(١) سورة القلم: آية ٤.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٣.

قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[1]. لما راى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة. فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود ينافس فيه. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾[2].

وفسر عبد الله بن المبارك حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى اجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق. فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق. فنفوس العباد اجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية اجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

اخبرنا الشيخ ابو زرعة اجازة عن ابى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت ابا بكر الكتانى يقول: التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف.

فالعباد اجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان. والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين، وتاصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان والإيقان، فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس.

وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح. وللنفس وجه إلى القلب ووجه إلى الطبع والغريزة. والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله، ويكون ذا وجهين: وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيض كله

---

(١) سورة القصص: آية ٧٦.

(٢) سورة يونس: آية ١٠.

توجه إلى الروح بكله فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقا وتنورا، وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب، وعلامة تنورها طمانينتها.

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ، وبقاء شيء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع، كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه. وإذا تنور أحد وجهى النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سمى الأبدال أبدالا. والسر الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله، ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة، والقلب عرش فى عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التسترى: القلب كالعرش، والصدر كالكرسى.

وقد ورد عن الله تعالى «لا يسعنى أرضى ولا سمائى، ويسعنى قلب عبدى المؤمن».

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات، وصار بحرا مواجا من نسمات القرب، جرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبى على الفارمزى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى أنه قال: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك،

---

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٢٨.

وهو بعد فى السلوك غير واصل، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر.

وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير، وكل من توهم بذلك شيئا من الحلول تزندق والحد. وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذا بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق، فقال له «يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، وقصد العمل، ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليما، أو تكذب صادقا، أو تطمع آثما، أو تعصى إماما عادلا، أو تفسد أرضا. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية، بذلك أدب الله عباده، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب».

وروى معاذ أيضا عن رسول الله ﷺ قال «حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على بإسناده المتقدم إلى الترمذى ﷺ قال أنبأنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال سمعت النبى عليه السلام يقول «ما من شيء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة».

وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينال من الدنيا. وأكثر قوت عامه من أيسر ما

يجد من التمر والشعير، ويضع ما عدا ذلك في سبيل الله، لا يسأل شيئا إلا يعطى، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن.

وكان أشد الناس حياء، وأكثرهم تواضعا.

فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الباب الثلاثون
في تفصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع. ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقدارا يعلم أنه يقيمه. ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه، ومن رزق هذا فقد استراح وأراح، وما يعقلها إلا العالمون.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أنا عثمان بن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان قال حدثنا أبو حاتم الرازي قال حدثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا، ولا يبغي بعضكم على بعض».

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾[1]. قال «على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية، ولو أنها جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين.

وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال أنا أحمد بن علي المقري قال أنا محمد بن المنهال قال حدثني أبي عن محمد بن جابر اليماني عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وترد على من سلم عليك، وأن ترضى بالدون من المجلس، وألا تحب المدحة والتزكية والبر».

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

وورد أيضا عنه عليه السلام «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسكنة».

سئل الجنيد عن التواضع فقال: خفض الجناح، ولين الجانب.

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبله ممن قاله، وتسمع منه.

وقال أيضا: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقال وهب بن منبه: مكتوب في كتب الله: إني أخرجت الذر من صلب آدم، فلم أجد قلبا أشد تواضعا إلى من قلب موسى عليه السلام، فلذلك اصطفيته وكلمته.

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم يطمع في الغلو والشرف، ويسلك سبيل التواضع، فلا يخاصم من يذمه ويشكر الله لمن يحمده.

وقال أبو حفص: من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم، فمن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر.

وقال لقمان عليه السلام: لكل شيء مطية ومطية العمل التواضع.

وقال النوى: خمسة أنفس أعز الخلق في الدنيا: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني.

وقال الجلاء: لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر.

وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيته خيرا منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤوس الأسارى من الإفرنج وهم

فى قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ، قال للخادم: احضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم واقعدهم على السفرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا وجهة ما نازل باطنه من التواضع لله، والانكسار فى نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

اخبرنا ابو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت ابا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول: صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال: خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن.

فأما اللواتى فى الظاهر، فصدق فى اللسان، وسخاوة فى الملك، وتواضع فى الأبدان، وكف الأذى، واحتماله بلا إباء.

وأما اللواتى فى الباطن، فحب وجود سيده، وخوف الفراق من سيده، ورجاء الوصول إلى سيده، والندم على فعله، والحياء من ربه.

وقال يحيى بن معاذ: التواضع فى الخلق حسن،

ولكن فى الأغنياء أحسن، والتكبر سمج فى الخلق، ولكن فى الفقراء أسمج.

وقال ذو النون: ثلاثة من علامات التواضع: تصغير النفس معرفة بالعيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

وقيل لأبى يزيد: متى يكون الرجل متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه حقا ما ولا حالا من علمه بشرها وازدرائها، ولا يرى أن فى الخلق شرا منه.

قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء.

وقيل لبعض الحكماء: هل تعرف نعمة لا يحسد عليها، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه؟ قال: نعم، أما النعمة فالتواضع، وأما البلاء فالكبر.

والكشف عن حقيقة التواضع أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويقضى إلى تضييع حقه.

وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراد إلى حضيض التفريط، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال، ويكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر، فقل أن ينفك مريد من مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب. وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم، وانحصارهم فى مضيق سكر الحال، وعدم الخروج إلى فضاء الصحو فى ابتداء أمرهم، وذلك إذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلافة الحال.

فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب، كقول بعضهم: من تحت خضراء السماء مثلى؟ وقول بعضهم: قدمى على رقبة جميع الأولياء، وكقول بعضهم: أسرجت والجمت وطفت فى أقطار الأرض وقلت هل من مبارز، فلم يخرج إلى أحد، إشارة منه فى ذلك إلى تفرده فى وقته.

ومن اشكل عليه ذلك، ولم يعلم انه من استراق النفس السمع، فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله ﷺ وتواضعهم، واجتنابهم امثال هذه الكلمات، واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشيء من ذلك، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه في الصحة، ويقال إن ذلك طرح عليهم في سكر الحال، وكلام السكارى يحمل.

فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء الدفين، بالغوا في شرح التواضع إلى حد الحقوه بالضعة تداويا للمريدين. والاعتدال في التواضع أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان.

ولكن لما كان الجموح في جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار، فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار، احتاجت للتداوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه، لئلا يتطرق إليها الكبر. فالكبر ظن الإنسان أنه اكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا.

والكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة. وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2].

وقد ورد قول الله تعالى: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته» وفى رواية «قذفته فى نار جهنم».

---

(١) سورة النحل، الآية ٢٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٠.

وقال عز وجل ردا للإنسان في طغيانه إلى حده ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ ﴾[2].

وابلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ﴾[3].

وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين: أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة.

وقد نظم الشاعر هذا المعنى:

كيف يزهو من رجيعه ... أبد الدهر ضجيعه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر، انتشر أثره في بعض الجوارح، ويرشح الإناء بما فيه، فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل، وتارة في الخد بالتصعير، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾[4].

وتارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس. قال الله تعالى ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ ﴾[5].

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب، فكذلك بعضها أكثف من البعض، كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك، إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة. قال الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

(٢) سورة الطارق: الآيات ٥ - ٦.

(٣) سورة عبس: الآيات ١٧ - ١٩.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٥) سورة المنافقون: الآية ٥.

(٦) سورة المنافقون: الآية ٨.

والعزة غير الكبر، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها أن لا يضعها لأغراض عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها.

قال بعضهم للحسن: ما أعظمك فى نفسك، قال: لست بعظيم ولكننى عزيز.

ولما كانت العزة غير مذمومة، وفيها مشاكلة بالكبر، قال الله تعالى: ﴿ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[1] فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر، ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين، والسادة المقربين، ورؤساء الأبدال والصديقين.

قال بعضهم: من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه.

وقال الترمذى: التواضع على ضربين: الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع، والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله، فإن اشتهت نفسه شيئًا مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك. وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى.

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها. وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان القرب، كما روى عن عائشة ﵂ فى الحديث الطويل قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

فأخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا منى أنه عند بعض ازواجه، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده، فوجدته فى المسجد ساجدا كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده «سجد لك سوادى وخيالى، وآمن بك فؤادى، وقر بك لسانى، وها أنا ذا بين يديك يا عظيم يا غافر الذنب العظيم».

وقوله عليه السلام «سجد لك سوادى وخيالى» استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهرا وباطنا.

ومتى يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق. وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها. والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ومن أخلاق الصوفية المداراة، واحتمال الأذى من الخلق. وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق، بل وداه بمائة ناقة من قبله، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به.

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما، ولا ينهر خادما.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفضل الكرخى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنى قتيبة قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، وما قال لى لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته. وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا؛ وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

فالمداراة مع كل احد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية، وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس.

وقد قيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

اخبرنا ابو زرعة طاهر عن ابيه الحافظ المقدسي قال أنا أبو محمد الصرفيني قال انا ابو القاسم عبيد الله بن حبابة قال انا ابو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا علي بن الجعد قال انا شعبة عن الأعمش عن ابن عمر عن النبي ﷺ انه قال «المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على آذاهم».

وفي الخبر «ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم. قيل: ماذا كان يصنع ابو ضمضم؟ قال: كان إذا اصبح قال: اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني، فمن ضربني لا أضربه، ومن شتمني لا أشتمه، ومن ظلمني لا أظلمه».

واخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال انا ابو الفتح الهروي قال حدثنا الترياقي قال انا الجراحي قال انا المحبوبي قال انا ابو عيسى الترمذي قال حدثنا ابن ابي عمر قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: استاذن رجل على رسول الله ﷺ وانا عنده فقال «بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة» ثم اذن له فالان له القول، فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ثم ألنت له القول، قال «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه».

وروى ابو ذر عن رسول الله ﷺ انه قال «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

فما شيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة. والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها، ويستفزها الغيظ والغضب، وبالمداراة قطع حمة النفس، ورد طيشها ونفورها.

وقد ورد «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحوار شاء».

وروى جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال «الا اخبركم على من تحرم النار؟ على كل هين لين سهل قريب».

وروى أبو مسعود الأنصارى ﷺ قال: اتى النبى عليه السلام برجل فكلمه فأرعد فقال «هون عليك فإنى لست بملك إنما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية:

هينون لينون أيسار بنو يسر ... سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبى ﷺ قال «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير».

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال أنا أبو محمد بعد الله الحموى السرخسى قال أنا أبو عمر ابن عيسى ابن عمر السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال حدثنا عبد الرحمن محمد عن محمد بن إسحاق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال: زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة فوطئت بها

على رجل رسول الله فنفحنى نفحة بسوط فى يده وقال بسم الله أوجعتنى. قال: فبت لنفسى لايما أقول أوجعت رسول الله. قال: فبت بليلة كما يعلم الله، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان؟ قلت هذا والله الذى كان منى بالأمس. قال فانطلقت وأنا متخوف، فقال لى إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فنفحتك نفحة بالسوط، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها.

ومن أخلاق الصوفية الإيثار والمواساة، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا وقوة اليقين شرعا، يؤثرون بالموجود، ويصبرون على المفقود.

قال أبو يزيد البسطامى: ما غلبنى أحد ما غلبنى شاب من أهل بلخ، قدم علينا حاجا فقال لى: يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: وما حد الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

وقال ذو النون: من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار بالقوت.

روى عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وروى أبو هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد أصابه جهد فقال يا رسول الله إنى جائع فأطعمنى، فبعث النبى ﷺ إلى أزواجه هل عندكن شيء، فكلهن قلن والذى بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء، فقال

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

رسول الله ﷺ: ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة، ثم قال: من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله؟

فقام رجل من الأنصار فقال انا يا رسول الله، فاتى به منزله فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله ﷺ فاكرميه ولا تدخرى عنه شيئا، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: فقومى عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئا ثم أسرجى، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله، حتى يشبع ضيف رسول الله، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئا، ثم قامت فاثردت واسرجت، فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته، فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله، وظن الضيف انهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا غدوا الى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسم رسول الله ﷺ ثم قال: لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة، وانزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وقال انس ؓ: اهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهودا، فوهبه إلى جار له، فتداوله سبعة أنفس ثم عادا إلى الأول، فأنزلت الآية لذلك.

وروى انا ان الحسن الأنطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى، وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم، فكسروا الرغفان وأطفأوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل احد منهم إيثارا منه على نفسه.

وحكي عن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه، فإذا

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

انا به فقلت اسقيك؟ فاشار إلى نعم، فإذا رجل يقول آه، فقال ابن عمي: انطلق به إليه، فجئت إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت أسقيك؟ فسمع هشام آخر يقول: آه، فقال: انطلق به إليه، فجئت إليه فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فإذا هو ايضا قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي، فإذا هو أيضا قد مات.

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة، فقال: الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾[1].

قال ابن عطاء: يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2]. يعني جوعا وفقرا.

قال ابو حفص: الإيثار هو ان يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة.

وقال بعضهم: الإيثار لا يكون عن اختيار إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق اجمع على حقك، ولا تميز في ذلك بين اخ وصاحب وذي معرفة.

وقال يوسف بن الحسين: من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الإيثار، لأنه يرى نفسه احق بالشيء برؤية ملكه، إنما الإيثار ممن يرى الأشياء كلها للحق، فمن وصل إليه فهو احق به، فإذا وصل شيء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد امانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه.

وقال بعضهم: حقيقة الإيثار ان تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر.

ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه، فانكر أخوه ذلك منه، فقال: يا أخي سمعت أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

«إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا» فأردت ان اكون اقل بشرا منك ليكون لك الأكثر.

اخبرنا الشيخ ضياء الدين ابو النجم إجازة قال انا ابو حفص عمر بن الصفار النيسابورى قال انا ابو بكر احمد بن خلف الشيرازى قال انا الشيخ ابو عبد الرحمن السلمى قال سمعت ابا القاسم الرازى يقول سمعت ابا بكر بن ابى سعدان يقول: من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفى من يرى دمه هدرا، وملكه مباحا.

وقال رويم: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

قيل: لما سعى بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه، وقبض على الشحام والرقام والنورى، وبسط النطع لضرب رقابهم، تقدم النورى فقيل له: إلى ماذا تبادر؟ فقال: أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة.

وقيل: دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق، فقال: صوفى وله باب مغلق، اكسروا الباب، فكسروه وامر بجميع ما وجدوا فى البيت أن يباع، فانفذوه إلى السوق واتخذوا رفقا من الثمن وقعدوا فى الدار، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا، ودخلت امراته وعليها كساء فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت: هذا ايضا من بقية المتاع فبيعوه، فقال الزوج لها: لم تكلفت هذا باختيارك؟ قالت: اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا، ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وقيل: مرض قيس بن سعد، فاستبطأ إخوانه فى عيادته، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم يستحيون بمالك عليهم من الدين، فقال: اخزى الله مالا

يمنع الإخوان عن الزيارة، ثم أمر مناديا ينادى: من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل، فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده.

وقيل: أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب، فلما خرج قال: لماذا جئتني؟ قال: لأربعمائة درهم دين لى، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا، فقالت امراته، هلا تعللت حين شق عليك الإجابة؟ فقال: إنما ابكى لأنى لم اتفقد حاله حتى احتاج ان يفاتحنى به.

واخبرنا الشيخ أبو زرعة عن ابيه الحافظ المقدسى قال انا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان قال حدثنا ابو عبد الله الجرجانى قال انا ابو طاهر محمد بن الحسن المحمداباذى قال حدثنا ابو البحترى قال حدثنا ابو أسامة قال حدثنا بريدة بن أبى بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فى إناء واحد بالسوية، فهم منى وانا منهم».

وحدث جابر عن رسول الله ﷺ انه إذا اراد ان يغزو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة، فليضم أحدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة، فما لأحدكم من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة أحدكم» قال: فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جمله.

وروى أنس قال: لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبى عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع، فقال له: أقاسمك مالى نصفين، ولى امراتان فأطلق إحداهما، فإذا انقضت عدتها تتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك.

فما حمل الصوفى على الإيثار إلا طهارة نفسه، وشرف غريزته. وما جعله الله تعالى صوفيا إلا بعد ان سوى غريزته لذلك. وكل من كانت

غريزته السخاء والسخي يوشك أن يصير صوفيا، لأن السخاء صفة الغريزة، وفي مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس. قال الله تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]. حكم بالفلاح لمن يوقى الشح، وحكم بالفلاح لمن انفق وبذل فقال ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2]. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[3]. والفلاح اجمع اسم لسعادة الدارين.

والنبي عليه السلام نبه بقوله «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات» فجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا، بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا، فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها الترابي، وفي التراب قبض وإمساك، وليس ذلك بالعجب من الآدمي وهو جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة، وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم إلى البذل والإيثار.

والسخاء أتم وأكمل من الجود، ففي مقابلة الجود البخل، وفي مقابلة السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة، بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة. وكل سخي جواد وليس كل جواد سخيا.

والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء، لأن السخاء من نتيجة الغرائز، والله تعالى منزه عن الغريزة. والجود يتطرق إليه الرياء ويأتي به الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى.

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٥.

والسخاء لا يتطرق إليه الرياء، لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض دنيا وآخرة، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض، فما تمحض سخاء، فالسخاء لأهل الصفاء، والإيثار لأهل الأنوار.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾[1]. إنه نفى فى الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال (لا نريد) بعد قوله (لوجه الله) فما كان لله لا يشعر بطلب العوض، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا لعوض، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز.

روت أسماء بنت أبى بكر قالت قلت: يا رسول الله ليس لى من شيء إلا ما أدخل على الزبير، فأعطى؟ قال: «نعم لا توكى فيوكى عليك».

ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو، ومقابلة السيئة بالحسنة.

قال سفيان: الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيئا وهات شيئا.

وقال الحسن: الإحسان أن تعم ولا تخص، كالشمس والريح والغيث.

وروى أنس قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت قصورا مشرفة على الجنة، فقلت يا جبرائيل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

روى أبو هريرة ﷺ أن أبا بكر ﷺ كان مع النبى ﷺ فى مجلس فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى عليه السلام يتبسم، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذى قال، فغضب النبى وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله شتمنى وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت، فقال «إنك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه، فلما تكلمت وقع

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٩.

الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان. يا ابا بكر ثلاث كلهن حق: ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة)).

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا الكروخى قال انا الترياقى قال انا الجراحى قال انا المحبوبى قال انا ابو عيسى الترمذى قال حدثنا ابو هشام الرفاعى قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابى الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ ((لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس احسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس ان تحسنوا، وإن أساؤا فلا تظلموا)).

وقال بعض الصحابة: يا رسول الله الرجل امر به فلا يقرينى ولا يضيفنى، فيمر بى افاجزيه؟ قال: ((لا، اقره)).

وقال الفضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال رسول الله ﷺ ((ليس الواصل المكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها)).

وروى عن رسول الله ﷺ ((من مكارم الأخلاق: ان تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطى من حرمك)).

ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه.

الصوفى بكاؤه فى خلوته، وبشره وطلاقة وجهه مع الناس. فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه، وقد تنازل باطن الصوفى منازلات الهيبة، ومواهب قدسية، يرتوى منها القلب، ويمتلئ فرحا وسرورا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾[1].

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره. قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾[1]. أى مضيئة مشرقة ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى فرحة. قيل: أشرقت من طول ما اغبرت فى سبيل الله. ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة. فالوجه مشكاة، والقلب زجاج، والروح مصباح، فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه.

قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾[2]. أى نضارته وبريقه، يقال: أنضر النبات إذا أزهر ونور ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3]. فلما نظرت نضرت.

فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة، وانصقلت مرآة قلوبهم، وانعكس فيها نور الجمال الأزلى. وإذا أشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران. قال الله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[4]. وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهى القوالب فى قول الله تعالى: ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾[5]. كيف لا يتأثر بشهود الجمال.

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكروخى قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك».

---

(١) سورة عبس: الآية ٣٨.

(٢) سورة المطففين: الآية ٢٤.

(٣) سورة القيامة: الآيات ٢٢ - ٢٣.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٥) سورة الرعد: الآية ١٥.

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى: يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك. فاما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كانه يمن عليك فلا أكثر الله فى القراء مثله.

ومن أخلاق الصوفية السهولة، ولين الجانب، والنزول مع الناسَ إلى اخلاقهم وطباعهم، وترك التعسف والتكلف. وقد روى فى ذلك عن رسول الله ﷺ اخبار. وأخلاق الصوفية تحاكى اخلاق رسول الله ﷺ. وكان يقول عليه الصلاة والسلام «اما إنى امزح ولا اقول إلا حقا».

وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام، وكان بدويا، وكان لا ياتى إلى رسول الله إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله، فجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله ﷺ فى سوق المدينة يبيع سلعة له، ولم يكن أتاه ذلك اليوم، فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه، فالتفت فابصر النبى ﷺ فقبل كفيه ، فقال النبى عليه السلام: من يشترى العبد فقال: إذا تجدنى كاسدا يا رسول الله، فقال ولكن عند الله ربيح. ثم قال عليه السلام: لكل اهل حضر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام.

وأخبرنا ابو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه قال انا المطهر بن محمد الفقيه قال انا ابو الحسن قال انا ابو عمرو بن حكيم قال انا ابو امية قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله احملنى على جمل، فقال أحملك على ابن الناقة، قال اقول لك احملنى على جمل وتقول احملك على ابن الناقة؟ فقال عله السلام: فالجمل ابن الناقة.

وروى صهيب فقال: أتيت رسول الله ﷺ وبين يديه تمر ياكل فقال: أصب من هذا الطعام، فجعلت آكل من التمر، فقال: أتاكل وانت رمد فقلت: إذا أمضغ من الجانب الآخر، فضحك رسول الله ﷺ.

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم: يا ذا الأذنين.

وسئلت عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى البيت؟ قالت: كان ألين الناس، بساما ضحاكا.

وروت أيضا أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها؟ فقال: هذه بتلك.

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس ﷺ قال: إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى إنه كان يقول لأخ لى صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ والنغير عصفور صغير.

وروى أن عمر سابق زبيرا ﷺ فسبقه الزبير، فقال: سبقتك ورب الكعبة، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر، فقال عمر: سبقتك ورب الكعبة.

وروى عبد الله بن عباس قال قال لى عمر: تعال أنافسك فى الماء أينا أطول نفسا، ونحن محرومون.

وروى بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال. يقال بدح يبدح إذا رمى، أى يترامون بالبطيخ.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن أحمد الكرخى قال حدثنا أبو طالب محمد بن إبراهيم قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثنى إسحاق الحربى قال حدثنا أبو سلمة قال حدثنا حماد بن خالد قال أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة قال حدثنا أبو الحسن بن محصن الليثى عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة قال: إن عائشة

رضى الله عنها قالت: أتيت النبى ﷺ بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى ﷺ بينى وبينها: كلى فأبت، فقلت لها: كلى فأبت، فقلت لتأكلن أو لألطخن بها وجهك، فأبت، فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها، فضحك النبى ﷺ، فوضع فخذه وقال لسودة الطخى وجهها، فلطخت بها وجهى، فضحك النبى ﷺ، فمر عمر ﷺ على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله، فظن النبى ﷺ أنه سيدخل، فقال: قوما فاغسلا وجهكما، فقالت عائشة رضى الله عنها: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال: كان مع الصبى صبيا ومع الكهل كهلا، وكان فيه مزاحة إذا خلا.

وروى معاوية بن عبد الكريم قال: كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا، وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى.

فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب، وصحة حال الصوفية، وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط، وينزلون مع الناس على حسب طباعهم، لنظرهم إلى سعة رحمة الله، فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال، واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال. ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال إلى صوفى قاهر للنفس، عالم بأخلاقها وطباعها، سائس لها بوفور العلم، حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط.

ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين، لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس، وتعديهم حد الاعتدال. فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد، وتجنح إلى العناد. فالنزول إلى طباع الناس

يحسن بمن صعد عنهم، وترقى لعلو حاله ومقامه، فينزل اليهم وإلى طباعهم، حتى ينزل بالعلم.

فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم، وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الأمارة بالسوء إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها، واغتنمت مآربها، واستروحت إلى الرخصة، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته، وليس ذلك شأن المبتدى.

فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك، والشيء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد.

قال سعيد بن العاص لابنه: اقتصد فى مزاحك، فالإفراط فيه يذهب بالبهاء، ويجرئ عليك السفهاء، وتركه يغيظ المؤانسين، ويوحش المخالطين.

قال بعضهم: المزاح مسلبة للبهاء، مقطعة للإخاء.

وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك، والضحك من خصائص الإنسان، ويميزه عن جنس الحيوان، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب، والتعجب يستدعى الفكر، والفكر شرف الإنسان وخاصيته.. ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه فى العلم، ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب.

وقيل: وكثرة الضحك من الرعونة.

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء فى غير إرب.

وذكر فرق بين المداعبة والمزاح، فقيل: المداعبة ما لا يغضب جده، والمزاح ما يغضب جده.

وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة فى الصلاة من الذنب، وحكم ببطلان الوضوء بها وقال: يقوم الإثم مقام خروج الخارج.

فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتاتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم، فيعتدل الحال فيه ويستقيم، فالبسط والرجاء ينشآن المزاح والضحك، والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل.

ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس، وذلك يباين حال الصوفية، وفى بعضه خفى منازعة للأقدار، وعدم الرضا بما قسم الجبار.

ويقال: التصوف ترك التكلف.

ويقال: التكلف تخلف، وهو تخلف عن شاو الصادقين.

روى أنس بن مالك قال: شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم.

وروى عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقالوا: كلوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم الإدام الخل».

وعن سفيان بن سلمة قال: دخلت على سلمان الفارسى فأخرج إلى خبزا وملحا وقال: كل، لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم.

والتكلف مذموم فى جميع الأشياء، كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه، والتكلف فى الكلام، وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان، فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد. وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له، فقد يتملق الشخص إلى حد يخرجه إلى صريح النفاق، وهو مباين لحال الصوفى.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انبأنا ابو الفتوح الهروى قال انا ابو نصر التريياقى قال انا ابو محمد الجراحى قال انا ابو العباس المحبوبى قال انا ابو عيسى الترمذى حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن ابى امامة عن النبى ﷺ قال «الحياء والعى شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» البذاء الفحش. وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم، وإظهار التصفح، وذلك ليس من شأن أهل الصدق.

وحكى عن أبى وائل قال: مضيت مع صاحب لى نزور سلمان، فقدم إلينا خبز شعير وملحا جريشا، فقال صاحبى: لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب، فخرج سلمان ورهن مطهرته واخذ سعترا، فلما اكلنا قال صاحبى: الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة، وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا.

وفى حديث يونس النبى عليه السلام انه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا من خبز شعير، وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال: لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم.

قال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر.

وروى الزبير بن العوام قال: نادى مناد رسول الله ﷺ يوما «اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون، الا إنى برئ من التكلف وصالحو أمتى».

وروى ان عمر ﷺ قرا قوله تعالى ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ ﴾[1]. ثم قال: هذا كله قد عرفناه فما الاب؟ قال: وبيد عمر عصاة فضرب بها الأرض ثم قال: هذا لعمر الله هو التكلف، فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه، فما عرفتم اعملوا به، ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله.

ومن أخلاق الصوفية الإتقان من غير إقتار، وترك الادخار، وذلك ان الصوفى يرى خزائن فضل الحق، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء فى قربته وروايته.

روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال «ما من يوم إلا له ملكان يناديان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: الله اعط ممسكا تلفا».

وروى أنس قال: كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد.

وروى انه أهدى لرسول الله ﷺ ثلاث طوائر، فاطعم خادمه طيرا، فلما كان الغد أتاه به، فقال رسول الله: ألم أنهك ان تخبئ شيئا لغد، فإن الله تعالى يأتى برزق كل غد.

وروى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده صرة من تمر، فقال: ما هذا يا بلال؟ فقال: ادخر يا رسول الله، قال: أما تخشى، أنفق بلالا، ولا تخش من ذى العرش إقلالا.

وروى أن عيسى بن مريم كان يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويبيت حيث امسى، ولم يكن له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يخبئ شيئا لغد.

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله لصدق توكله، وثقته بربه.

---

(١) سورة عبس: الآيات ٣٧ ـ ٣١.

فالدنيا للصوفى كدار الغربة، ليس له فيها ادخار، ولا له منها استكثار.

قال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسى قال أنبانا أبو عمران السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن أبى المنكدر عن جابر قال: ما سئل النبى ﷺ قط فقال لا..

قال ابن عيينة: إذا لم يكن عنده وعد.

وبالإسناد عن الدارمى قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى قال: إن جبريل عليه السلام قال: ما فى الأرض أهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم، فما وجدت أحدا أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله ﷺ.

ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا.

قال ذو النون المصرى: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وقال بشر بن الحارث: لو لم يكن فى القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه.

وقال بنان الحمال: الحر عبد ما طمع، والعبد حر ما قنع.

وقال بعضهم: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال أبو بكر المراغي: العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف، ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل.

وقال يحيى بن معاذ: من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه.

وقال أمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه: القناعة سيف لا ينبو.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد قال أنا ابو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا ابو القاسم البغوى قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا ابو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن ابيه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد يقول «ما قل وكفى خير مما كثر والهى».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا».

وروى جابر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال «القناعة مال لا ينفد». وروى عن عمر ﷺ أنه قال: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع الحكمة، وعدوا أنفسكم فى الموتى، واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم، ولا يضركم الا يكثر لكم.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده أنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاوى قال أنا أحمد بنعلى الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال حدثنا مروان بن معاوية قد حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلمة الأنصارى قال أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدينه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا».

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[1]. هى القناعة.

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط، عالم بطبائع النفس، وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها.

وقال ابو سليمان الدارانى: القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد. ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة إلا بحق، واعتماد الرفق والحلم، وذلك أن النفوس تثبت وتظهر فى المارين. والصوفى كلما رأى نفس صاحبة ظاهرة قابلها بالقلب، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة، وانطفأت الفتنة. قال الله تعالى تعليما لعباده ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2].

ولا ينزع المراء إلا من نفوس زكية انتزع منها الغل، ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا. وقد يكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة. من استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغل من باطنه، ولا يبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال. قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة المتقين ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[3].

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وانست بذكره، فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس، وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخوانا.

فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧.

والناس رجلان:

رجل طالب ما عند الله تعالى، ويدعو إلى ما عند الله نفسه وغيره، فما للمحقق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل، فإن هذا معه فى طريق واحد، ووجهة واحدة، وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا.

ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما للصوفى مع هذا منافسة، لأنه زهد فيما فيه رغب. فمن شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل، ولا يماريه فى الظاهر على شيء، لعلمه بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال انا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا المحاربى عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «لا تمارى أخاك، ولا تعده موعدا فتخلفه».

وفى الخبر «من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى اعلاها».

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموى قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال حدثنا يحيى ابن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثنى النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «من طلب العلم ليباهى به

العلماء، أو يمارى به السفهاء، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه، أدخله الله تعالى جهنم».

انظر كيف جعل رسول الله ﷺ المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار، وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة، والقهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى.

وقال بعضهم: المجادل المارى يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشيء، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فما إلى قناعته سبيل. فنفس الصوفى تبدلت صفاتها، وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه».

انظر كيف جعل النبى ﷺ من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان.

وروى عنه عليه السلام «أنه مر بقوم وهم يجدون حجرا قال ما هذا؟ قالوا: هذا حجر الأشداء، قال: «ألا أخبركم بأشد من هذا؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه».

وروى أنه جاء كلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة، فقال أبو ذر: من كسر رجل هذه الشاة؟ فقال أنا؟ قال ولم فعلت ذلك؟ قال عمدا فعلت، قال ولم؟ قال أغيظك فتضربنى فتأثم، فقال أبو ذر: لأغيظن من حضك على غيظى، فأعتقه.

وروى الأصمعى عن أعرابى قال: إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك، فإن أكثر ما يكون الخطأ من متابعة الهوى.

اخبرنا ابو زرعة عن ابيه ابى الفضل قال انا ابو بكر محمد بن احمد بن على قال انا خورشيد قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية، والحكم بالحق عند الغضب والرضا، والاقتصاد عند الفقر والغنى، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه».

فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم ربانى، أمير على نفسه، يصرفها بعقل حاضر، وقلب يقظان، ونظر إلى الله بحسن الاحتساب.

نقل إنهم كانوا يتوضاون عن إيذاء المسلم يقول بعضهم: لأن اتوضأ من كلمة خبيثة احب إلى من اتوضأ من طعام طيب.

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الحدث حدثان: حدث من فرجك، وحدث من فيك.

فلا يحل حبوة الوقار والحلم إلا الغضب، ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد. فبالغضب يثور دم القلب، فإن كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد، واجتمع فى القلب، ويصير منه الهم والحزن والانكماد، ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا، لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى، فلا ينكمد ولا يغتم، والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة. والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط.

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال: مخرجهما واحد واللفظ يختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا،

ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا. الحرد غضب ايضا، ولكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه. وإن كان الغضب على من يشاكله ويماثله ممن يتردد في الانتقام منه يتردد دم القلب بين الانقباض والانبساط، فيتولد منه الغل والحقد، ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفي. قال الله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[1].

وسلامة قلب الصوفي وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة. وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب، والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب، وتذهب عنه الرقة والبياض، ومنه تحمر الوجنتان، لأن الدم في القلب ثار وطلب الاستعلاء، وانتفخت منه العروق، فظهر عكسه واثره على الخد، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم، ولا يكون هذا في الصوفي إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى، فاما في غير ذلك فينظر الصوفي عند الغضب إلى الله تعالى، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء.

قيل لبعضهم: من اقهر الناس لنفسه؟ قال: أرضاهم بالمقدور.

وقال بعضهم: أصبحت وما لي سرور إلا مواقع القضاء.

وإذا اتهم الصوفي النفس عند الغضب تداركه العلم، وإذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس، وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره، واعتدل الحال، وغاضت حمرة الخد، وبانت فضيلة العلم.

قال عليه السلام: «السمت الحسن والتودد والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزء من النبوة».

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧.

وروى حارثة بن قدامة قال: قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه، قال «لا تغضب» فأعاد عليه كل ذلك يقول «لا تغضب» قال عليه السلام «إن الغضب جمرة من النار، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، من وجد ذلك منكم فإن كان قائما فليجلس، وإن كان جالسا فليضطجع».

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنبأنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن المضل عن قرة بن خالد عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأشج عبد القيس «إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة».

ومن أخلاق الصوفية التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة. قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]. ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

والتودد والتآلف من ائتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر الذى أوردناه، فما تعارف منها ائتلف. قال الله تعالى ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3].

وقال سبحانه تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[4].

وقال عليه السلام «المؤمن آلف مألوف، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وقال عليه السلام «مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا».

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنى أحبك فى الله، فقال ابشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قيل من هؤلاء يا رسول الله؟ قال المتحابون فى الله».

وقيل: لو تحاب الناس وتعاطوا اسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة.

وقيل: العدالة خليفة المحبة، تستعمل حيث لا توجد المحبة.

وقيل: طاعة المحبة افضل من طاعة الرهبة، فإن طاعة المحبة من داخل، وطاعة الرهبة من خارج.

ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض فى البعض، لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق، ووقع القبول بينهم لوجود المحبة، فانتفع لذلك المريد بالشيخ، والأخ بالأخ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد، أهل كل درب وكل محلة، وفى الجامع فى الأسبوع مرة أهل كل بلد، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة للحج، كل ذلك لحكم بالغة، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين. وقال عليه السلام «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

اخبرنا أبو زرعة قال انا والدى ابو الفضل قال انا ابو نصر محمد بن سلمان العدل قال انا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى قال انا ابو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماتى قال حدثنا يحيى الكرمانى قال حدثنا حمادبن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ألا إن مثل المؤمنين فى توادهم وتحابهم

وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى».

والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحبة، والصحبة مع الأخيار مؤثرة جدا.

وقبل قيل: لقاء الإخوان لقاح.

ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض، بل بمجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا، والنظر فى الصور يؤثر اخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه، كدوام النظر إلى المخزون يحزن، ودوام النظر إلى المسرور يسر.

وقد قيل: من لا ينفك لحظه لا ينفك لفظه. والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول، فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف. والزروع تنفى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة. وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء، ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا.

وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر.

والتألف والتودد مستجلب للمزيد، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى، كما أن محبتهم محبة الله، والجامع معهم رابطة الحق، ومع غيرهم رابطة الطبع.

فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن، ومع الجنس كائن معاين. والمؤمن مرآة المؤمن، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية، غابت عن الأغيار، وأدركها أهل الأنوار.

ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الإحسان، والدعاء له، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم، وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ على ما ورد أن رسول الله ﷺ خطب فقال «ما من الناس أحد آمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا».

وقال «ما نفعنى مال كمال أبى بكر».

فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء.

فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد، وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء، ويحجبه الحق عن الخلق، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق، ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء، بعد أن يرى المسبب أولا، وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين، فيكون شكره للحق، لأنه المنعم والمعطى والمسبب، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب. قال رسول الله ﷺ «أول ما يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء».

وقال عليه السلام «من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال، دفع الله تعالى بها سبعين داء أهونها الجذام».

وروى جابر ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله إلا كان الحمد أفضل منها».

فقوله عليه السلام «كان الحمد أفضل منها» يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة، فتكون نعمة الحمد أفضل من

النعمة التى حمد عليها، فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له.

روى عن انس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا افطر عند قوم قال «افطر عندكم الصائمون، واكل طعامكم الأبرار، ونزلت عليكم السكينة».

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار قال انا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوى قال انا عمرو بن زرارة قال حدثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن ابى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «من قال لأخيه: جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء».

ومن اخلاق الصوفية بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة، فإذا كان الرجل وافر العلم، بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها، فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين. وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم، ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى.

روى عن زيد بن اسلم انه قال: كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس.

وقال عطاء: لأن يرانى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن اتم له من ان يخلص العمل لنجاة نفسه.

وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين، ولا يصح هذا إلا لعبد اطلع الله على باطنه، فعلم منه الا رغبة له فى شىء من الجاه والمال. ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ما طغى ولا استطال ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال.

وهذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق والأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم، ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم، فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى، فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس.

وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا، وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا إلى مقام البقاء، فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى، فهم على بصيرة من ربهم، وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب، فيأخذ وقته أبدا من الأشياء، ولم تأخذ الأشياء من وقته، ولا يكون فى قطر من الأقطار إلى واحد متحقق بهذا الحال.

قال أبو عثمان الحيرى: لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه.

قال سهل بن عبد الله: لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال: يصرف جهله عن الناس، ويحتمل جهل الناس، ويترك ما فى أيديهم، ويبذل ما فى يده لهم.

وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى.

الباب الحادي والثلاثون
في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله ﷺ انه قال «ادبني ربي فأحسن تاديبي».

فالأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا.

وإنما سميت المادبة مادبة لاجتماعهما على أشياء.

ولا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق. ومكارم الأخلاق مجموعها في تحسين الخلق، فالخلق صورة الإنسان، والخلق معناه. فقال بعضهم: الخلق لا سبيل إلى تغييره كالخلق. وقد ورد: فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل. وقال تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[1]. والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال «حسنوا أخلاقكم» وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهياه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق. ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجود النخل في النوى. ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار، وكما جعل في نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد.

فقال سبحانه وتعالى﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾[2]. فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا. ثم قال عز وجل ﴿

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٢) سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ٨.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾[1]. فإذا تركت النفس تدبرت بالعقل، واستقامة أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت الأخلاق، وتكونت الآداب.

فالأدب استخراج ما فى القوة إلى الفعل، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه، والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها، كتكون النار فى الزناد، إذ هو فعل الله المحض، واستخراجه بكسب الآدمى، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة، والمنح الإلهية.

ولما هيا الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها، توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج ما فى النفوس مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل، فصاروا مؤدبين مهذبين. والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة، لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم، كما قال رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة، لنقصان قوى أصولها فى الغريزة، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ، لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل. قال الله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: فقهوهم وأدبوهم.

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾[3].

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة التحريم: الآية ٦.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

قال يوسف بن الحسين: بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى.

قيل: لما ورد أبو حفص العراق، جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره، لا يخطئ أحد منهم، فقال يا أبا حفص: أدبت أصحابك أدب الملوك، فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن.

قال أبو الحسين النورى: ليس لله فى عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب.

قال عبد الله بن المبارك: أدب الخدمة أعز من الخدمة.

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقى وأمد رجلى، فجاءتنى عائشة المسكينة فقالت لى: يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم، اقبل منى كلمة، لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب. قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده إلى حسن المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس، وغفل عن الرعاية، ومهما أعانه فهو شريكها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

اخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الهروى قال انا ابو النصر الترياقى قال انا ابو محمد الجراحى قال انا العباس المحبوبى انا ابو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع».

وروى ايضا انه قال عليه السلام «ما نحل والد ولدا من نحلة افضل من أدب حسن».

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن أدبه».

وقال ابو على الدقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى.

قال ابو القاسم القشيرى رحمه الله: كان الأستاذ ابو على لا يستند إلى شيء، فكان يوما فى مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيت غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبدا.

وقال الجلالى البصرى: التوحيد يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا، فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا.

قال بعضهم، هو غلام الدقاق: نظرت إلى غلام أمرد، فنظر إلى الدقاق وأنا انظر إليه، فقال لتجدن غبها ولو بعد سنين. قال فوجدت غبها بعد عشرين سنة أن نسيت القرآن.

وقال سرى: صليت وردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب، فنوديت: يا سرى هكذا تجالس الملوك. فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لا مددت رجلى أبدا. وقال الجنيد: فبقى ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا.

قال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وسئل السرى عن مسالة فى الصبر، فجعل يتكلم فيها، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها، فقيل له الا تدفعها عن نفسك؟ قال: أستحى من الله أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه.

وقيل: من أدب رسول الله ﷺ انه قال «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها» ولم يقل رأيت.

وقال يس بن مالك: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات. قيل: ما معناه؟ قال: أن تعامل الله سرا وعلنا بالأدب، فإذا كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا، ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى: منذ عشرين سنة ما مددت رجلى فى الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله أحسن وأولى.

وقال أبو على: ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

الباب الثاني والثلاثون
في آداب الحضرة الإلهية

كل الآداب تتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا.

وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1].

وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ.

أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال، أعرض عما سوى الله، وتوجه إلى الله وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها، والسموات والدار الآخرة بحظوظها.

فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الغائب في إعراضه: قال الله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾[2].

فهذا الخطاب للعموم، وما زاغ البصر إخبار عن حال النبي عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاب به العموم.

فكان ما زاغ البصر حاله في طرف الإعراض، وفي طرف الإقبال تلقى ما ورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب.

ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا، وطوى نفسه بفراره في مطاوي انكساره وافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى.

فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ ﴾[3].

---

(١) سورة النجم: الآية ١٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٣) سورة العلق: الآيات ٦ - ٧.

والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب.

فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد طرفى ما زاغ البصر، وما التفت إلى ما فاته، وما طغى متأسفا لحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح، واسترقت النفس السمع، وتطلعت إلى القسط والحظ.

فلما حظيت النفس استغنت، وطفح عليها ما وصل إليها، وضاق نطاقها، فتجاوز الحد من فرط البسط، وقال: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾[1]. فمنع ولم يطلق فى فضاء المزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام.

وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية، فكل قبض يوجد عقوبة، لأن كل قبض سد فى وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط.

ولو حصل الاعتدال فى البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى عليه السلام من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار.

فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب، حظى به رسول الله ﷺ، فما قوبل بالقبض، فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى.

ويشاكل الشرح الذى شرحناه قول أبى العباس ابن عطاء فى قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٢) سورة النجم، الآية ١٧.

قال: لم يره بطغيان يميل بل رآه على شروط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدا بكليته لربه، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل.

وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل ابن عبد الله.

ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال: أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابورى. قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج قال أنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الجريرى.

قال: التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة، والوقوف على حد الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الإقبال مساءة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بعد، والاستسلام عند التلاقى جراءة، والانبساط فى محل الأنس غرة. وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها.

وفى قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وجه آخر ألطف مما سبق (ما زاغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصر البصيرة، فيتجاوز حده، ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، الظاهر مع الباطن، والقلب مع القالب، والنظر مع القدم.

---

(١) سورة النجم: الآية ١٧.

ففى تقدم النظر على القدم طغيان، والمعنى بالنظر علم، وبالقدم حال القالب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا.

فلما اعتدلت الأحوال، صار قلبه كقالبه، وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه، وباطنه كظاهرة، وبصره كبصيرته، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه، ونوره على ظاهره، وأتى البراق ينتهي خطوه حيث ينتهى نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره.

كما جاء فى حديث المعراج، فكان البراق بقالبه مشاكلا لمعناه، ومتصفا بصفته، لقوة حاله ومعناه.

وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء، ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى بعض السموات، فمن هو فى بعض السموات يكون قوله: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾[1].

تجاوزا للنظر عن حد القدم، وتخلفا للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2].

فرسول الله حمل مقترنا قدمه ونظره فى حجال الحياء والتواضع ناظرا إلى قدمه، قادما على نظره، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع، وتطاول بالنظر متعديا حد القدم، تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء، فلم يزل ﷺ متجلس حجاله فى خفارة ادب حاله.

حتى خرق حجب السموات، فانصبت إليه أقسام القرب انصبابا، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا، حتى استقام على

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٢) سورة النجم، الآية ١٧.

صراط: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[1]. فمر كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف، وهذا غاية فى الأدب، ونهاية فى الأرب.

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال: لا يجاوز همه قدمه، فحيث وقف قلبه يكون مقره.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة: قال: أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال حدثنا القاضى أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال حدثنا محمد بن رزام الأبلى قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾[2].

قال: «يا موسى إنه لا يرنى حى إلا مات، ولا يابس إلى تدهده، ولا رطب إلى تفرق، إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم».

ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب. وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق.

لأن الله تعالى أمر بالدعاء وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما فى القرب، وأذن له فى الانبساط وقال: اطلب منى ولو ملحا لعجينك، فلما بسط وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[3].

---

(١) سورة النجم، الآية ١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
(٣) سورة القصص، الآية ٢٤.

لأنه كان يسأل حوائج الآخرة، ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها، وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات.

ولهذا مثال فى الشاهد. فإن الملك المعظم يسأل المعظمات، ويحتشم فى طلب المحقرات، فلما رفع بساط حجاب الحشمة، صار فى مقام خاص مَن القرب، يسأل الحقير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصرى: أدب العارف فوق كل أدب، لأن معروفه مؤدب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتى ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب.

وقول القائل هذا يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب، لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس، ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار، ويكون معنى العطب التحقق بالفناء، وفى ذلك العطب نهاية الأرب.

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]. لم يقل ارحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب.

وقال عيسى عليه السلام: «إن كنت قلته فقد علمته» ولم يقل لم أقل رعاية لأدب الحضرة.

وقال أبو نصر السراج: أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٢.

الخواطر والعوارض والبوادى والعوائق، واستواء السر والعلانية، وحسن الأدب فى مواقف الطلب، ومقامات القرب، وأوقات الحضور.

والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل. فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب.

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وقال أيضا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف.

وقال النووى: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقال ذو النون: إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

وقال ابن المبارك أيضا: قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس. وهذه إشارة منه إلى أن النفس هى منبع الجهالات. وترك الأدب من مخامرة الجهل.

فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد ((من عرف نفسه فقد عرف ربه)) ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم.

وحينئذ يتأدب، ومن قام بآدب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر.

الباب الثالث والثلاثون
في آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفة:﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(١).

قيل فى التفسير: يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنايات والنجاسات بالماء.

قال الكلبى: هو غسل الأدبار بالماء.

وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء، ولا ينامون بالليل على الجنابة.

روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية: «إن الله تعالى قد اثنى عليكم فى الطهور فما هو؟ قالوا إنا نستنجى بالماء».

وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله ﷺ «إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار».

وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء.

قيل لسلمان: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

فقال سلمان: أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو نستنجى باليمين، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو نستنجى برجيع أو عظم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أنا أبو منصور الحريمى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا ابن المبارك

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال ﷺ «إنما أنا بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطيب بيمينه».

وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

والفرض في الاستنجاء شيئان: إزالة الخبث، وطهارة الذيل، وهو ألا يكون رجيعا وهو الروث، ولا مستعملا مرة أخرى، ولا رمة، وهي عظم الميتة. ووتر الاستنجاء سنة، فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع، واستعمال الماء بعد الحجر سنة.

وقد قيل في الآية: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾[1].

ولما سئلوا عن ذلك قالوا: كنا نتبع الماء الحجر.

والاستنجاء بالشمال سنة، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا.

وكيفية الاستنجاء أن يأخذ بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمره بالمسح، ويدير الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع.

يفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر المخرج، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح إلى المقدمة، ويأخذ الثلث ويديره حول السرية. وإن استجمر بحجر ذي ثلاث شعب جاز.

وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة برفق لئلا يندفق بقية البول، ثم ينتره ثلاثا، ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحنح ثلاثا، لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما فى مجرى البول، فإن مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس، ولكن يراعى حد العلم، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضي الوقت، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن يرى الرطوبة.

وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال: لا يزال تهر منه الرطوبة مادام يمد، فيراعى الحد فى ذلك، ويراعى الوتر فى ذلك أيضا.

والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر، وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين.

وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر وينقع الحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة.

وفى ترك الاستنقاء فى الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، اما هذا فكان لا يستبرئ من البول، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة. ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

والسبب الجريد. وإذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون.

روى جابر ﷺ أن النبى ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد.

وروى المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر فاتى النبى عليه السلام حاجته فأبعد فى المذهب.

وروى أن النبى عليه السلام كان يتبوا لحاجته كما يتبوا الرجل المنزل، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض، أو كوم من الحجارة.

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته فى الصحراء أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش.

ويستحب البول فى أرض دمثة، أو على تراب مهيل.

قال أبو موسى: كنت مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبول، فأتى دمثا فى أصل جدار فبال ثم قال: «إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله».

وينبغى ألا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستقبل الشمس والقمر، ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان، والأول اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك فى البنيان أيضا، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض، ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش.

قال رجل لبعض الصحابة من الأعرب وقد خاصمه: لا أحسبك تحسن الخراءة، فقال بلى وأبيك إنى بها لحاذق. قال فصفا لى.

فقال: أبعد الشر، وأعد المدر، واستقبل الشيح، واستدبر الريح، وأقعى إقعاء الظبى، وأجفل إجفال النعام، يعنى استقبل أصول النبات من الشيخ وغيره، وأستدبر الريح احترازا من الرشاش والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال أن يرفع عجزه.

يقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وطهر قلبى من الرياء، وحصن فرجى من الفواحش.

ويكره أن يبول الرجل فى المغتسل.

روى عبد الله بن مغفل أن النبى عليه السلام نهى ن يبول الرجل فى مستحمه وقال: «إن عامة الوسواس منه».

وقال ابن المبارك: يوسع فى البول فى المستحم إذا جرى فيه الماء.

وإذا كان فى البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث.

حدثنا شيخنا شخ الإسلام ابو النجيب السهروردى قال انا ابو منصور المقرى قال أنا أبو بكر الخطيب قال انا ابو عمرو الهاشمى قال انا ابو على اللؤلؤى قال انا ابو داود قال حدثنا عمر وهو ابن مرزوق البصرى قال حدثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث».

وأراد بالحشوش الكنف. وأصل الحش جماعة النخل الكثيف، كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل ان تتخذ الكنف فى البيوت. وقوله محتضرة أى يحضرها الشياطين.

وفى الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى، ولا يتولغ بيده، ولا يخط الأرض والحائط وقت قعوده، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك، ولا يتكلم، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان، فإن الله تعالى يمقت على ذلك».

ويقول عند خروجه: غفرانك، الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى».

ولا يستصحب معه شيئا عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره، ولا يدخل حاسر الراس.

روت عائشة رضى الله عنها عن ابيها ابى بكر ﷺ انه قال: استحبوا من الله فإنى لأدخل الكنيف فألزق ظهرى وأغطى راسى استحياء من ربى عز وجل.

الباب الرابع والثلاثون
فى آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك.

حدثنا شيخنا أبو النجيب قال أنا ابو عبد الله الطائى قال أنا الحافظ الفراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد المليحى قال أنا أبو منصور محمد بن احمد ابن عبد الجبار قال ثنا حميد بن زنجويه قال ثنا يعلى بن عبيد قال ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء إلى ثلث الليل، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة».

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب».

ويستحب السواك عند كل صلاة، وعند كل وضوء، وكلما تغير الفم من أزم وغيره، وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض. وقيل للسكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم، ويكره للصائم بعد الزوال.

ويستحب له قبل الزوال. وأكثر استحببه مع غسل الجمعة، وعند القيام من الليل. ويندى السواك اليابس بالماء. ويستاك عرضا وطولا، فإن اقتصر فعرضا.

فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء. والأولى أن يكون مستقبل القبلة، ويبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول: رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

ويقول عند غسل اليد: اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من التؤم والهلكة ويقول عند المضمضة: اللهم صل على محمد وعلى ل آل محمد واعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك.

ويقول عند الاستنشاق: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدنى رائحة الجنة وأنت عنى راض.

ويقول عند الاستنثار: اللهم صل على محمد وعلى آهل محمد، وأعوذ بك من روائح النار سواء الدار.

ويقول عند غسل الوجه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهى يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجهى يود تسود وجوه أعدائك.

وعند غسل اليمين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا.

وعند غسل الشمال: اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى.

وعند مسح الرأس: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشنى برحمتك وانزل على من بركاتك، وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك.

ويقول عند مسح الأذنين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى ممن يسمع القول فيتبع أحسنه، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار.

ويقول فى مسح العنق: اللهم فك رقبتى من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند اليسرى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين.

وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوء وظلمت نفسى، أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا.

وفرائض الوضوء: النية عند غسل الوجه، وحد الوجه تستطيع الوجه إلى منتهى الذقن. وما ظهر من اللحية، وما استرسل منها، من مبتدأ ومن الأذن عرضا، ويدخل فى الغسل البياض الذى بين الأذنين واللحية، وموضع الصلع، وما انحسر عنه الشعر، وهما النزعتان من الرأس.

ويستحب غسلهما مع الوجه، ويوصل الماء إلى شعر التحذيف، وهو القدر الذى يزيله النساء من الوجه، ويوصل الماء إلى العنفقة والشارب والحاجب والعذار، وما عدا ذلك لا يجب، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة.

وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته، وإن كانت كثيفة فلا يجب، ويجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين.

الواجب الثالث: غسل اليدين إلى المرفقين، ويجب إدخال المرفقين في الغسل، ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين، وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح.

الواجب الرابع: مسح الراس ويكفي ما يطلق عليه اسم المسح، واستيعاب الرأس بالمسح سنة، وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس، ويمدهما إلى القفا، ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا.

الواجب الخامس: غسل القدمين، ويجب إدخال الكعبين في الغسل، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين، ويقنع غسل القدمين من الكعبين، ويجب تخليل الأصابع الملتفة، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم، ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى.

وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها، وإن ترك فيها عجينا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشيء.

الواجب السادس: الترتيب على النسق المذكور في كلام الله تعالى.

الواجب السابع: التتابع في القول القديم عند الشافعي رحمه الله تعالى. وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء.

وسنن الوضوء ثلاثة عشر: التسمية في أول الطهارة، وغسل اليدين إلى الكوعين، والمضمضة، والاستنشاق، والمبالغة فيهما، فيغرغر في المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة، ويستمد في الاستنشاق الماء بالنفس إلى الخياشيم، ويرفق في ذلك إن كان صائما.

وتخليل اللحية الكثيفة، وتخليل الأصابع المنفرجة، والبدء بالميامن، وإطالة الغرة، واستيعاب الراس بالمسح، ومسح الأذنين، والتثليث، وفى القول الجديد التتابع. ويجتنب ان يزيد على الثلاث، ولا ينفض اليد، ولا يتكلم فى اثناء الوضوء، ولا يلطم وجهه بالماء لطما.

وتجديد الوضوء مستحب بشرط ان يصلى بالوضوء ما تيسر، وإلا فمكروه.



الباب الخامس والثلاثون
فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء
آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام

آدابهم فى الوضوء: حضور القلب فى غسل الأعضاء.

سمعت بعض الصالحين يقول: إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة.

ومن آدابهم: استدامة الوضوء سلاح المؤمن. والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو اثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها.

قال عدى بن حاتم: ما اقيمت صلاة منذ اسلمت إلا وانا على وضوء.

وقال انس بن مالك: قدم النبى ﷺ المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فقال لى «يا بنى إن استطعت الا تزال على الطهارة فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة».

فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت، ومن الاستعداد لزوم الطهارة.

وحكى عن الحصرى انه قال: مهما انتبه من الليل لا يحملنى النوم إلا بعد ما اقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة.

وسمعت من صحب الشيخ على بن الهيثمى انه كان يقعد الليل جميعه، فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك، وكلما انتبه يقول: لا أكون أسات الأدب، فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين.

وروى ابو هريرة ان رسول اله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر «يا بلال حدثنى بارجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة.

. قال ما عملت عملا فى الإسلام ارجى عندى انى لم اتطهر طهرا فى ساعة ليل أو نهار إلى صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن اصلى».

ومن آدابهم فى الطهارة: ترك الإسراف فى الماء، والوقوف على حد العلم.

اخبرنا الشيخ العلام ضياء الدين بعد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا ابو نصر الترياقى قال اخبرا ابو محمد الجراحى قال أنا ابو العباس المحبوبى قال أنا ابو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن بشار.

قال حدثنا ابو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ انه قال: «للوضوء شيطان يقال له الولهان، فابقوا وساوس الماء».

قال ابو عبد الله الروذبارى: إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع اعمال بنى آدم، فلا يبالى ان يأخذ نصيب بأن يزدادوا فيما امروا به او ينقصوا عنه.

وحكى عن ابن الكرنبى انه اصابته جنابة ليلة من الليالى، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة، فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد، فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد، فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال: عقدت الا انزعها من بدنى حتى تجف على.

فمكثت عليه شهرا لثخانتها وغلظها. ادب بذلك نفسه لما حرنت عن الانتمار لأمر الله تعالى.

وقيل: إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس، وإماتة الشهوات، وكسر القوة.

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء.

قيل: كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء، وربما كان لا يشرب منها إلا القليل، يحفظ الماء للوضوء.

وقيل: إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم، يحفظ الماء للوضوء، ويقنع بالقليل للشرب.

وقيل: إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كرز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى.

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار، فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضي حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه.

وقيل: مات الخواص في جامع الري في وسط الماء، وذلك أنه كان به علة البطن، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه، فدخله مرة ومات فيه، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم به قيام، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة، كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين.

وقيل: إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا وقت البراز، يراعي الأدب في الخلوات.

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا إن الوضوء يوزن.

وأجازه بعضهم، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذى.

قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الوهاب بن وهب عن زيد بن حيان عن أبى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء.

وروى معاذ بن جبل قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه.

واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة، لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم.

وتوضأ عمر ﷺ من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون على الأرض من غير سجادة، ويمشون حفاة فى الطرق، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا.

وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الأوقات. وكان أمرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل، واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة.

وهكذا شغل الصوفية. وقد يكون فى بعض الأشخاص تشدد فى الطهارة، ويكون مستندا ذلك رعونة النفس، فلو اتسخ ثوبه تحرج ولا يبالى بما فى باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حلقيا مع وجود رخصة الشرع، ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه.

وكل ذلك من قلة العلم وترك التـأدب بصحبـة الصادقين مـن العلمـاء الراسخين.

وكانوا يكرهون كثرة الدلك في الاستبراء، لأنه ربما يسترخي العرق ولا يمسك البول، ويتولد منه القطر المفرط.

ومن حكاية المتصوفة في الوضوء والطهارات، أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة، وكان لا يتغوط في الحرم، ويخرج إلى الحل، وأقل ذلك فرسخ.

وقيل: كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة، لأن الماء كان يضره، وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة.

وبعضهم نزل في عينه الماء، فحملوا إليه المداوي، وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه، فقال المداوي: يحتاج إلى ترك الوضوء أياما، ويكون مستلقيا على قفاه، فلم يفعل ذلك، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء.

الباب السادس والثلاثون
فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما خلق الله تعالى جنة عدن، وخلق فيها ما لا عين رات، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال لها تكلمى، فقالت: (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ثلاثا)).

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين.

وقال رسول الله ﷺ ((اتانى جبريل لدلوك الشمس حي زالت وصلى بى الظهر)).

واشتقاق الصلاة قيل فى الصلى وهو النار، والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم. وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها احرقت من ادركته يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه.

بل يتحقق به معراجه. فالمصلى كالمصطلى بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم.

اخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال أنا ابو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخليلى قال أنا ابو سعيد الفرخزاذى قال أنا ابو إسحاق احمد بن محمد قال انا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن.

قال انا ابو زكريا يحيى بن محمد بن العنبرى قال حدثنا جعفر بن احمد بن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال حدثنا آدم بن أبى إياس عن ابن

سمعان عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم.

قال الله عز وجل: مجدني عبدي.

فإذا قال الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، فإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، فإذا قال مالك يم الدين، قال فوض إلى عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال هذا بيني وبين عبدي.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فالصلاة صلة بين الرب والعبد، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية.

وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلمح له طوالع التجلي فيخشع. والفلاح للذين هم في صلاتهم خاشعون، وبانتفاء الخشوع ينتفي الفلاح.

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[1]. وإذا كانت الصلاة للذكر، كيف يقع فيها النسيان. قال الله تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[2].

فمن قال ولا يعلم ما يقول، كيف يصلي وقد نهاه الله عن ذلك، فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل، والغافل يصلي لا بحضور عقل، فهو كالسكران.

---

(١) سورة طه: الآية ١٤.
(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[1] قيل: نعليك همك بامراتك وغنمك، فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة.

وقيل: كان اصحاب رسول الله ﷺ يرفعون ابصارهم إلى السماء فى الصلاة، وينظرون يمينا وشمالا، فلما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2].

جعلوا وجوههم حيث يسجدن، وما رؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض.

وروى أبو هريرة ﷺ عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن، فإذا التفت قال له الرب: إلى من تلتفت؟ إلى من هو خير لك متى؟ ابن آدم أقبل إلى فأنا خير لك ممن تلتفت إليه».

وابصر رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه».

وقد قال رسول الله ﷺ «إذا صليت فصل صلاة مودع».

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه، يودع هواه ودنياه وكل شيء سواه. والصلاة فى اللغة هى الدعاء.

فكان المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه، فصارت أعضاؤه كلها السنة يدعو بها ظاهرا وباطنا، ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والهيئات فى تملقات متضرع سائل محتاج.

فإذا دعا بكليته اجابه مولاه لأنه وعده فقال: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآية ١٢.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢.

كان خالد الربعى يقول: عجبت لهذه الآية: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط.

والاستجابة والإجابة هي نفوذ دعاء العبد، فإن الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه، فتخرق الحجب، وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة.

وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب، وفيها تقديم الثناء على الدعاء، ليكون أسرع إلى الإجابة، وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء.

وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم. قيل: سميت مثانى لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، وكان لرسول الله ﷺ بكل مرة نزلة منها فهم آخر، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر.

وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها، وتقذف لهم كل مرة درر بحارهاز

وقيل: سمت مثانى لأنها استثنيت من الرسل وهى سبع آيات.

وروت أم رومان قالت: رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة فزجرنى زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتى، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود، فإن سكوت الأطراف من تمام الصلاة».

وقال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البدن ونفاق القلب».

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢.

فأما تميل اليهود، قيل كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما فى باطنهم، فكان يهيئ الأمور ويعظمها.

ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب، ووقع لى والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته، فيموج به باطنه كبحر ساكن، تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسمات القلب.

وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية فتهم الاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج، فيضطرب القلب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهرة فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك.

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكارا على أهل الوسوسة: ((هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه، وإن الرجل على صلاته دائم، ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهيا لاهيا)).

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس، وقد قال رسول ﷺ: ((الصلاة عماد الدين، فمن ترك الصلاة فقد كفر)).

فالصلاة تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة.

قال سهل بن عبد الله: يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن، ويحتاج إلى الآداب النوافل، ومن الأدب ترك الدنيا.

والذى ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقبالها على الله فيها.

وقد ورد فى الأخبار، أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجه بوجهه الكريم، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه.

وان المصلى لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلى من يناجي ما التفت أو ما انفتل.

وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة ما فرق على أهل السموات، فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة.

وهكذا فى السجود والقيام والقعود، والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم، وفى السجود بصفة الساجدين، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم.

وفى غير الفريضة ينبغى للمصلى أن يمكث فى ركوعه متلذذا بالركوع، غير مهتم بالرفع منه.

فإن طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها، ويستديم تلك الهيئة، ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة، ليصير قلبه بلون الهيئة.

وربما يتراءى للراكع المحقق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفى الهيئة حقها، فيكون همه الهيئة، مستغرقا فيها، مشغولا بها عن غيرها من الهيئات، فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة.

فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح، ويقف فى هاب النفحات الإلهية، حتى يتكامل حظ العبد، فتنمحى آثاره بحسن الاسترسال، ويستقر فى مقعد الوصال.

وقيل: فى الصلاة اربع هيئات، وستة اذكار. فالهيئات الأربع: القيام، والقعود، والركوع، والسجود.

والأذكار الستة: التلاوة، والتسبيح، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام.

فصارت عشرة كاملة، تفرق هذه العشرة على صفوف من الملائكة كل صف عشرة آلاف، فيجتمع فى الركعتين ما يفرق على ما الف من الملائكة.



الباب السابع والثلاثون
فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى الفصل كيفية الصلاة بهيئاتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال، بأقصى ما ينتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه، مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شيء من ذلك.

إذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود، فنقول وبالله التوفيق:

ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء، ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة، فذلك من المحافظة عليها.

ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال، وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره.

ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الأول من النهار، فإذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس.

وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر. ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب.

فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة، ففى ذكر سر، وحكمة ذلك والله أعلم أن العبد تشعث باطنه، وتفرق همه، لما بلى به من المخالطة من الناس، وقيامه بمهام المعاش، أو سهو جرى بوضع الجبلة.

أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة.

فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة، ويتهيأ للمناجاة، ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن، فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة.

فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات، وتطرق النفحات، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله.

ومن الذنوب عامة وخاصة، فالعامة: الكبائر والصغائر مما أوما إليه الشرع، ونطق به الكتاب والسنة، والخاصة ذنوب حال الشخص، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها. وقيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم لا يصلي إلا جماعة. قال رسول الله ﷺ «تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة».

ثم يستقبل القبلة بظاهره، والحضرة الإلهية باطنه، ويقرأ قل أعوذ برب الناس، ويقرا في نفسه آية التوجه.

وهذا التوجه قبل الصلاة، والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه إلى القبلة، وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة، ثم يرفع يديه حذو منكبيه، بحيث تكون كفاه حذو منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، ورءوس الأصابع مع الأذنين، ويضم الأصابع، وإن نشرها جاز، والضم أولى.

فإنه قيل: النشر نشر الكف لا نشر الأصابع.

ويكبر، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا، ويجزم أكبر، ويجعل المد في الله، ولا يبالغ في ضم الهاء من الله، ولا يبتدئ بالتكبير إذا استقرت اليدان حذو المنكبين، ويرسلهما مع التكبير من غير نفض.

فالوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالأولى والأصوب، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير، بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها.

وحكى عن الجنيد انه قال: لكل شيء صفوة وصفة الصلاة التكبيرة الأولى.

وانما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية واول الصلاة.

قال أبو نصر السراج: سمعت ابن سالم يقول: النية بالله الله ومن الله، والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وإن قل.

وسئل أبو سعيد الخراز: كيف الدخول فى الصلاة؟ فقال: هو ان نقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدى الله ليس بين يدى الله ليس بينك وبين ترجمان، وهو مقبل عليك، وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف، فإنه الملك العظيم.

وقيل لبعض العارفين: كيف تكبر التكبيرة الأولى؟

فقال: ينبغى إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك فى الله التعظيم مع الألف، والهيبة مع اللام، والمراقبة والقرب مع الهاء.

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء، وامتلأ باطنه نورا، وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم تلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس، وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فالقيت فكيف تزاحم الوسوسة، وحديث النفس مثل هذا العبد.

وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة.

والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة بالطف صفاتها، مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فى ضوء الشمس، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلها بين السرة والصدر، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد، ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين.

وقد فسر امير المؤمنين على ﷺ قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[1]. قال إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر، وذلك ان تحت الصدر عرقا يقال له الناحر، اى ضع يدك على الناحر.

وقال بعضهم: (وانحر) اى استقبل القبلة بنحرك.

وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب، وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه، وجعله محل نظره ومورد وحيه، ونخبة ما فى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا، أرضيا سماويا منتصب القامة.

مرتفع الهيئة، فنصفه الأعلى من حسد الفؤاد مستودع أسرار السموات، ونصفه الأسفل مستودع اسرار الأرض، فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل، ومحل روحه الروحانى والقلب والنصف الأعلى.

فجوانب الروح مع جوانب النفس يتطاردان ويتحاذبان، وباعتبار تطاردهما وتعاليهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان.

---

(١) سورة الكوثر، الآية ٢.

ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع، فيكاشف المصلي الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجوانب النفس، متصاعدة من مركزها.

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة، فيوضع اليمنى على الشمال حصر النفس، ومنع من صعود جواذبها. وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة، وزوال حديث النفس فى الصلاة.

ثم إذا استوت جوانب الروح، وتملكت من الفرق إلى القدم عند كمال الأنس، وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة، تصير النفس مقهورة ذليلة، ويستنير مركزها بنور الروح، وتنقطع حينئذ جوانب النفس.

وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العادة، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال، فيسهل حينئذ.

ولعل ذلك الله اعلم ما نقل عن رسول الله ﷺ انه كان مسبلا، وهو مذهب مالك رحمه الله.

ثم يقرأ: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾[1] الآية. وهذا التوجه إبقاء لوه قلبه، والذى قبل الصلاة لوجه قالبه. ثم يقول: سبحانك الله وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، اللهم انت الملك لا إله إلا أن سبحانك وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى.

فاغفر لى ذنوبى جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا انت، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا انت، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا انت، لبيك وسعديك فالخير كله بيديك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٩.

ويطرق راسه فى قيامه، ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض، فهذا من خشوع سائر الأجزاء.

ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع، ويراوح بين القدمين بمقدار اربع أصابع، فإن ضم الكعبين هو الصفد المنهى عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصفن المنهى عنه. نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد. وإذا كان الصفن منهيا عنه ففى زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصفن، فالأولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد على الرجلين جميعا، ويكره اشتمال الصماء.

وهو أن يخرج يده من قبل صدره، ويجتنب السدل، وهو أن يرخى أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء، وقيل هو الذى يلتفت بالثوب ويجعل يديه من داخل، فيركع ويسجد كذلك. وفى معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص.

ويجتنب الكف، وهو أن يرفع ثيابه بيده عند السجود.

ويكره الاختصار، وهو أن يجعل يده على الخاصرة.

ويكره الصلب، وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافى العضدين.

فإذا وقف فى الصلاة على الهيئة التى ذكرناها مجتنبا للمكاره فقد تمم القيام وكمله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم.

ومواطأة بين القلب واللسان، بحظ وافر من الصلة والدنو، والهيبة والخشوع، والخشية والتعظيم والوقار، والمشاهدة والمناجاة. وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما فى السكتة الثانية: اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب.

ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد، فحسن، وإن قالها فى السكتة الأولى فحسن.

روى عن النبى عليه السلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة.

ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان، ومعناها نطق القلب. وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما فى قلبه، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تعذر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا.

فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا، ولا القارئ متكلما قاصدا إسماع الله حاجته، ولا مستمعا إلى الله، فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول.

فينبغى أن يكون متكلما مناجيا أو مستمعا واعيا، فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمع بين القلب واللسان فى التلاوة، ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها.

قال بعضهم: ما دخلت فى صلاة قط فاهمنى فيها غير ما أقول.

وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد فى الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف على الأسنة أحب إلى من أن أجد فى الصلاة ما تجدون.

وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة، لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[1]. فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه.

ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام، فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه، ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم، ولذيذ نعمة الإصغاء،ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها.

معانى تلطف عن تفصيل الذكر، وتتشكل بخفى الفكر، ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس.

فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها، لكونها معانى ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة.

ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب، وتختص إلى الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لحج الأشواق.

كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد البصرة فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك.

---

(١) سورة الروم: الآية ٣١.

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع، ثم يرجع منطوى القامة والنصف الأسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين، ويجافى مرفقيه عن جنبيه، ويمد عنقه مع ظهره، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع.

روى مصعب بن سعد قال: صليت إلى جنب سعد بن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما، فضرب بيدى وقال اضرب بكفيك على ركبتيك، وقال يا بنى إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب.

ويقول: سبحان ربى العظيم ثلاثا، وهو أدنى الكمال، والكمال أن يقول إحدى عشرة، وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع.

ويكون فى ركوعه ناظرا نحو قدميه، فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود، وإنما ينظر إلى موضع سجوده فى قيامه، ويقول بعد التسبيح: اللهم لك ركعت، ولك خشعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخى وعصبى، ويكون قلبه فى الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات، ثم يرفع رأسه قائلا: سمع الله لمن حمده، عالما بقلبه ما يقول؟

فإذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ثم يقول: أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد: لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد؟

فإن أطال فى النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربى الحمد، مكررا ذلك مهما شاء، فأما فى الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة، ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب.

ورد عن رسول الله ﷺ انه قال: «لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود».

ثم يهوى ساجدا، ويكون فى هوية مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله. فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين، متغيبا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء، واستشعار روحه عظيم الكبرياء.

كما ورد أن جبريل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى. ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان، ويسرح قلبه فى فضاء الكشف والعيان، فيهوى دون هوية أطباق السموات، وتنمحى لقوة لشهوده تماثيل الكائنات، ويسجد على طرف رداء العظمة، وذلك اقصى ما ينتهى إليه طائر الهمة البشرية، وتفى بالوصول إليه القوى الإنسانية، ويتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة، واستشعار كنهها، لكل منهم على قدره حظ من ذلك، وفوق كل ذى علم عليم.

ومن الساجدين من يتسع وعاؤه، وينتشر ضياؤه، ويحظى بالصنفين، ويبسط الجناحين، فيتواضع بقلبه إجلالا، ويرفع بروحه إكراما وإفضالا، فيجتمع له الأنس والهيبة، والحضور والغيبة، والفرار والقرار، والإسرار والجهار.

فيكون فى سجوده سابحا فى بحر شهوده، لم يتخلف منه عن السجود شعرة، كما قال سيد البشر فى سجوده «سجد لك سوادى وخيالى» ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[1]. الطوع للروح والقلب لما فيه من الأهلية، والكره من النفس لما فيه من الأجنبية.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٥.

ويقول فى سجوده: سبحان ربى الأعلى ثلاثا إلى العشر الذى هو الكمال، ويكون فى السجود مفتوح العينين، لأنهما يسجدان.

وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه فى السجود، فهو أبلغ فى الخشوع للساجد، ويباشر بكفيه المصلى، ولا يلفهما فى الثوب، ويكون رأسه بين كفيه، ويداه حذو منكبيه، غير متيامن ومتياسر بهما.

ويقول بعد التسبيح: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك. وإن قال «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» فحسن.

روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك. ويجافى مرفقيه عن جنبيه، ويوجه أصابعها فى السجود نحو القبلة، ويضم أصابع كفيه مع الإبهام، ولا يفرش ذراعيه على الأرض، ثم يرفع رأسه مكبرا، ويجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما.

ويقول: رب اغفر لى، وارحمنى، واهدنى، واجبرنى، وعافنى، واعف عنى، ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة، أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا: رب اغفر وارحم مكررا ذلك.

ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا.

ويكره الإقعاء فى القعود، وهو ههنا أن يضع إليتيه على عقبيه.

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة، ويفعل فى بقية الركعات هكذا ثم يتشهد.

وفى الصلاة سر المعراج، وهو معراج القلوب، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدريج طبقات السموات،والتحيات سلام على رب البريات، فليذهبن لما يقول، ويتادب مع من يقول، ويدور كيف يقول، ويسلم على النبى ﷺ، ويمثله بين عينى قلبه، ويسلم على عباد الله الصالحين.

فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة، ويرفع المسبحة فى الشهادة فى إلا الله لا فى كلمة النفى، ولا يرفعها منتصبة بل مائلة براسها إلى الفخذ منطوية، فهذه هيئة خشوع المسبحة.

ودليل سراية خشوع القلب إليها. ويدعو فى آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين، إن كان إماما ينبغى أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن ورائه، فإن الإمام المتيقظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الجوائج يسال لهم ويعرض حاجاتهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا.

وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه :
﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾[1].

وفى وصف هذه الأمة فى الكتب السالفة صفهم فى صلاتهم كصفهم فى قتالهم.

حدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال انا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ قال أنا محمد عبد الله بن أحمد السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى قال أنا أبو محمد

---

(١) سورة الصف: الآية ٤.

عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمي قال أنا مجاهد بن موسى قال حدثنا معن هو ابن عيسى أنه سأل كعب الأحبار كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟

قال: نجد محمد بن عبد الله يولد بمكة، ويهاجر لطيبة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحاش ولا سخاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل سراء، ويكبرون الله على كل نجد، يوضئون أطرافهم، ويأتزرون في أوساطهم، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، دويهم في مساجدهم كدوي النحل، يسمع مناديهم في جو السماء.

فالإمام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان، فهو أولى المصلين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهرا وباطنا.

والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم، وتتناصر وتتعاضد، وتسري من البعض إلى البعض أنوار وبركات، بل جميع المسلمين المصلين في أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان، بل يمدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله ﷺ بالملائكة المؤمنين.

فحاجاتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم إلى محاربة الكفار، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتداركهم الأملاك، بل بأنفاسهم الصادقة تتماسك الأفلاك، فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن.

ويجعل خده مبينا لمن على يمينه بإلواء عنقه، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يسار، فقد ورد النهي عن المواصلة، والمواصلة خمس، اثنان

تختص بالإمام، وهو الا يوصل القراءة بالتكبير، والركوع بالقراءة. واثنان على المأموم، وهو الا يوصل تكبيره الإحرام بتكبيره الإمام، ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة على الإمام والمأمومين، وهو أن يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل، ويجزم التسليم ولا يمد مدا.

ثم يدعو بعد التسليم بما شاء من أمر دينه ودنياه، ويدعو قبل التسليم أيضا فى صلب الصلاة فإنه يستجاب.

ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة. وكل المقامات والأحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة، وهى سر الدين، وكفارة المؤمن، وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله إجازة.

قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله بن المبارك.

قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى يقول: سمعت أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ «الصلوات الخمس كفارات للخطايا، واقرءوا إن شئتم﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾»[1].

---

(١) سورة هود، الآية ١١٤.

الباب الثامن والثلاثون
في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلى أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر، لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا.

لأن الدنيا واشتغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة، ورغبة في أوطان القربات، وإذعانا بالباطن لرب البريات، لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر، وفراغ القلب في الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن.

فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن، حتى لا يختل إذعانهم، فتنخرم عبوديتهم، فيجتنب أن يكون باطنه مرتهنا بشيء ويدخل الصلاة.

وقيل: من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة، ولهذا ورد «إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء».

ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول، ولا حازق يطالبه الغائط، والحزق أيضا ضيق الخلق. ولا يصلى أيضا من وخفه ضيق يشغل قلبه.

فقد قيل: لا رأى لحازق. قيل: الذى يكون معه ضيق.

وفي الجملة: ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغضب.

وفي الخبر: لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مقطب، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان.

فلا ينبغي أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيئات.

واحسن لبسة المصلى سكون الأطراف، وعدم الالتفات، والإطراق، ووضع اليمين على الشمال، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز.

وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة.

وقد حركت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين، فلما انصرفت من الصلاة انكر على وقال: عندنا ان العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادا لا يتحرك منه شيء.

وقد جاء فى الخبر: سبعة اشياء فى الصلاة من الشيطان: الرعاف، والنعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحكاك، والالتفات، والعبث بالشيء من الشيطان أيضا. وقيل: السهو والشك.

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال: إن الخشوع فى الصلاة الا يعرف المصلى من على يمينه وشماله.

ونقل عن سفيان انه قال: من لم يخشع فسدت صلاته.

وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له.

وقال بعض العلماء: من قرا كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة. قال بعضهم: لأن ذلك عدوه عملا.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1].
قيل: هو سكون الأطراف والطمأنينة.

---

(١) سورة المعارج: الآية ٢٣.

قال بعضهم: إذا كبرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك، عالم بما فى ضميرك، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك، والنار عن شمالك.

وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس، فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب السهروردى إجازة قال أنبأنا عمر ابن أحمد الصفار قال أنا ابو بكر بن خلف قال انا ابو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت محمد بن الحسين يقول.

قال سهل: من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان، فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة، فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده.

قال أبو سعيد الخراز: إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شيء أعظم من الله تعالى، ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء.

وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك.

وقال أيضا: ويكون معه فى الخشية ما يكاد يذوب به.

قال السراج: إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى، أو كأنه يقرأ على الله تعالى.

وقال السراج ايضا: من أدبهم قبل الصلاة المراقبة، ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض، ونفى كل شيء غير الله تعالى.

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة، فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب، فكأنهم أبدا في الصلاة، فهذا هو أدب الصلاة.

وقيل: كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى.

وقيل: للصلاة أربع شعب: حضور القالب في المحراب، وشهود العقل عند الملك الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب.

لأن عند حضور القلب رفع الحجاب، وعند شهود العقل رفع العتاب، وعند حضور النفس فتح الأبواب، وعند خضوع الأركان وجود الثواب.

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطئ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى الصلاة لمكتوبة، مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره، انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها، وبغسل يديه خطيئة أصابها، وبغسل رجليه خطيئة أصابها، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر».

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال: «أي السرقة أقبح فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته، قالوا:

كيف يسرق الرجل من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها».

وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال: لا أصلح، فلما ألحوا عليه كبر فغشى عليه، فقدموا إماما آخر، فلما أفاق سئل فقال: لما قلت استووا هتف بى هاتف هل استويت أنت مع الله قط.

وقال عليه السلام «إن العبد إذا أحسن الوضوء، وصلى الصلاة لوقتها، وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها، قالت: حفظك الله كما حفظتنى، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء.

وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها، وإذا أضاعها قالت: ضيعك الله كما ضيعتنى، ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها».

وقال أبو سليمان الدارانى: إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى: «ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى، فإذا التفت يقول الله: أرخوها فيما بينى وبينه، وخلوا عبدى وما اختار لنفسه».

وقال أبو بكر الوراق: ربما أصلى ركعتين فانصرف منهما وأنا أستحى من الله حياء رجل انصرف من الزنا. قوله هذا لعظيم الأدب عنده. ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب.

وقيل لموسى بن جعفر: إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بممرهم بين يديك، قال: إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدى.

وقيل: كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه، فيقال له ذلك، فيقول: أتدرون بين يدى من أريد أن أقف؟.

وروى عمار بن يسار عن رسول الله ﷺ انه قال: ((لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل)).

قد ورد في لفظ آخر ((منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف، والثلث، والربع، والخمس، حتى يبلغ العشر)).

وقال الخواص: ينبغي للرجل أن ينوي نوافله لنقصان فرائضه، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء.

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. يقول الله تعالى: ((بدأ بالهدية قبل قضاء الدين)).

وقال أيضا: انقطع الخالق عن الله تعالى بخصلتين: إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها.

وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق.

وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين، إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع.

وإن تثاءب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان، ولا يلزق ذقنه بصدره، ولا يزاحم في الصلاة غيره.

قيل: ذهب المزحوم بصلاة المزاحم.

وقيل: من ترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فقام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وقيل: إن ابراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل.

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره ازيز كازيز المرجل، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة.

وسئل الجنيد: ما فريضة الصلاة؟ قال: قطع العلائق، وجمع الهم، والحضور بين يدى الله.

وقال الحسن: ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال «إذا دخلت الصلاة فهب لى من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع، فإنى قريب».

وقال أبو الخير الأقطع: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام.

فقلت يا رسول الله أوصنى، فقال «يا أبا الخير عليك بالصلاة فإنى استوصيت ربى فأوصانى بالصلاة وقال لى إن أقرب ما أكون وأنت تصلى».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة.

وقيل إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الأصم واقفا يعظ الناس فقال له يا حاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى؟

قال: نعم.

قال: كيف تصلى؟

قال: أقوم بالأمر، وأمشى بالخشية، وأدخل بالهيبة، وأكبر بالعظمة وأقرأ بالترتيل، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأقعد للتشهد بالتمام، وأسلم على السنة، وأسلمها إلى ربى، وأحفظها أيام حياتى، وأرجع باللوم على نفسى، وأخاف ألا تقبل منى، وأرجو أن تقبل منى، وأنا بين الخوف والرجاء، وأشكر من علمنى، وأعلمها من سألنى، وأحمد ربى إذ هدانى.

فقال محمد بن يوسف، مثلك يصلح ان يكون واعظا.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[1].

قيل: من حب الدنيا، وقيل من الاهتمام.

وقال عليه السلام: ((من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه)).

وقال ((إن الصلاة تمسكن وتواضع، وتضرع وتنادم، وترفع يديك وتقول اللهم اللهم، فمن لا يعمل ذلك فهى خداج)) أى ناقصة.

وقد ورد ان المؤمن إذا توضا للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض خوفا منه، لأنه تاهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه ابليس.

قيل: يضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال الله أكبر، اطلع الملك فى قلبه، فإذا لم يسكن فى قلبه اكبر من الله تعالى يقول صدقت الله فى قلبك كما تقول، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش.

ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

وإن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين، كما تحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الله على قلبه، فإذا كان شيء فى قلبه اكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول.

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه من الملكوت، فيزداد ذلك الحجاب صلابة، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه ويزين، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وفى الخبر ‹‹لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء››.

والقلوب الصافية التى كمل أدبها لكمال أدب قوالبها، تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين، فالقلب السماوى لا سبيل للشيطان إليه، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان.

والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب، وتعرج فى طبقات السموات، وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات، ويقف أمام العرش، فعند ذك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش.

وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار، وتتادى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب.

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا، وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى.

وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة، وسلكوا طرقا من الضلال، وركنوا إلى أباطيل الخيال، ومحوا الرسوم والأحكام ورفضوا الحلال والحرام.

وقوم آخرون سلكوا فى ذلك طريقا أدتهم إلى نقصان الحال، حيث سلموا من الضلال، لأنهم اعترفوا بالفرائض، وأنكروا فضل النوافل واغتروا بيسير روح الحال، أعملوا فضل الأعمال، ولم يعلموا أن الله فى كل هيئة من الهيئات، وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لا توجد فى شيء من الأذكار.

فالأحوال والأعمال روح وجسمان، ومادام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال.



الباب التاسع والثلاثون
فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رول الله ﷺ انه قال: ((الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر)).

وقيل: ما فى عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص.

ويقول الله تعالى يوم القيامة: هذا لى فلا يقتص أحد منه شيئا.

وفى الخبر ((الصوم لى وأنا أجزى به)).

قيل: اضافه إلى نفسه، لأن فه خلقا من اخلاق الصمدية. وايضا لأنه من أعمال السر من قبيل التروك، لا يطلع عليه أحد إلا الله.

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾[1]. الصائمون، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

هم الصائمون، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم، ويفرغ للصائم إفراغا، ويجازف له مجازفة.

وقيل: احد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3] كان عملهم الصوم.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢.
(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.
(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

وقال يحيى بن معاذ: إذا ابتلى المريد بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له، ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة.

وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها فى كف الشيطان متعلق بها، فإذا جوع بطنه، وأخذ حلقه، وراض نفسه، يبس كل عضو أو احترق بنار الجوع، وفر الشيطان من ظله.

وإذا أشبع بطنه، وترك حلقه فى لذائذ الشهوات، فقد رطب أعضاءه، وأمكن للشيطان. والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين، والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة، وينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما، فكيف إذا كان نائما. فقلب المريد الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشرب.

دخل رجل إلى الطيالسى وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جريش، فقال له كيف تشتهى هذا؟ قال: أدعه حتى أشتهيه.

وقيل: من أسرف فى مطعمه ومشربه، يعجل الصغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته.

وقال بعضهم: الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء.

وقال بشر: إن الجوع يصفى الفؤاد، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق.

وقال ذو النون: ما أكلت حتى شبعت، ولا شربت حتى رويت، إلا عصيت الله أو هممت بمعصية.

وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يأتى علينا الشهر ونصف الشهر ما ندخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره.

قال: قلت سبحان الله، فباى شيء كنتم تعيشون؟ قالت: بالتمر والماء. وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما واسونا بشيء.

وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لأبيها: إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك، ولبست ثيابا الين من ثيابك؟

فقال إنى أخاصمك إلى نفسك، ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا يقول مرارا، فبكت، فقال قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء.

وقال بعضهم: ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاصز

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة ايام من خبز بر حتى مضى لسبيله.

وقالت عائشة رضى الله عنها: أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا: كيف نديم؟ قالت: بالجوع والعطش والظمأ.

وقيل: ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق، فقال ما هذه؟

قال: الشهوات التى أصيب بها ابن آدم. قال هل تجد لى فيها شهوة؟ قال: لا غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر.

فقال: لا جرم أنى لا أشبع أبدا. قال إبليس: لا جرم أنى لا أنصح أحدا أبدا.

وقال شقيق: العبادة حرفة، وحانوتها الخلوة، وآلاتها الجوع.

وقال لقمان لابنه: إذا ملئت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين الأدمين فإنه من طعام المنافقين.

وقال بعضهم: أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته الوان الأغذية.

فيكره للمريد أن يوالى فى الإفطار أكثر من أربعة أيام، فإن النفس عند ذلك تركن إلى العادة، وتتسع بالشهوة.

وقيل: الدنيا بطنك، فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا.

وقال عليه السلام: ((ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.

وقال فتح الموصلى: صحبت ثلاثين شيخا كل يوصينى عند مفارقتى إياه بترك عشرة الأحداث، وقلة الأكل.

الباب الأربعون
فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى.

وكان أبو عبد الله بن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر، فجهد به أصحابه يوما فأفطر فاعتل من ذلك أياما.

فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع للإفطار جانبا، فهو عون حسن له على ما يريد.

روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا» وعقد تسين، أى لم يكن له فيها موض.

وكره قوم صوم الدهر، هو ألا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره. وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله ﷺ.

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما. وقد ورد «أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما».

واستحسن ذلك قوم من الصالحين، ليكون بين حال الصبر وحال الشكر.

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما، أو يصوم يوما ويفطر يومين ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة.

وقيل: كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما مرة، وفى رمضان يأكل أكل واحدة، وكان يفطر بالماء القراح للسنة.

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام، فإذا دخل عليه إخوانه افطر معهم ويقول: ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم غير ان هذا الإفطار يحتاج إلى علم.

فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لا نية الموافقة. وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب.

وسمعت شيخنا يقول: لي سنين ما أكلت شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء، بل يقدم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله، فأوافق الحق في فعله.

وذكر أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر، ومن عادته تقديم الطعام إليه. قال ففتحت باب البيت الذي فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها.

فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك، فقت: هذا عقوبة لي على تصرفي في أخذ الرمانة.

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أي وقت أحضر الطعام أكل منه، ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق، لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه.

وكان حاله الوقوف مع فعل الحق، وقد كان له في ذلك بداية يعز مثلها، حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه، ولا يتسبب إلى تناول شيء، وينتظر فعل الحق ليساق الرزق إليه، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان.

ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة، وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه، وهو يرى في ذلك فضل الحق والموافقة. سمعته يقول: أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم، وينقض الحق على محبتي الصوم بفعله فأوافق الحق في فعله.

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان.

وقال أبو نصر السراج: أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا، واستحسنه آخرون، لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع، وألا يتمتع برؤية الصوم.

ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل، والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[1].

ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون، والصدق محمود لعينه كيف كان، والصادق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون.

والصدق محمود لعينه كيف كان، والصادق في خفارة صدقه كيف تقلب.

وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا.

وقيل: إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقا به، ولا يحملوا حاله على حالهم وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك.

وقيل: إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه، حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه.

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٣.

وحكى عن أبى الحسن المكى انه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة، وكان قوته فى كل شهر اربع دوانيق، يعمل بيده حبال الليف ويبيعها.

وكان الشيخ او الحسن بن سالم يقول: لا أسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل. وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس.

وقال بعضهم: ما اخلص لله عبد قط إلا احب أن يكون فى جب لا يعرف، ومن اكل فضلا من الطعام اخرج فضلا من الكلام.

وقيل: اقام ابو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحاب سبعة أيام لم يأكلوا، فخرج بعض اصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فاخذه وأكله، فرآه إنسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم، فقال الشيخ: من جنى منكم هذه الجناية؟

فقال الرجل انا وجدت قشر بطيخ فأكلته، فقال: كن انت مع جنايتك ورفقك، فقال: أنا تائب من جنايتى، فقال لا كلام بعد التوبة.

وكانوا يستحبون صيام أيام البيض، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

روى ان آدم عليه السلام لما اهبط إلى الأرض اسود جسده من أثر المعصية، فلما تاب الله عليه امره ان يصوم أيام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه، حتى ابيض جميع جسده بصيام ايام البيض.

ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان، وإفطار نصفه الأخير، وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به، ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين.

وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان.

ويستحب صوم العشر من ذى الحجة، والعشر من المحرم، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم.

وورد فى الخبر «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت بعد من النار سبعمائة عاما».



الباب الحادي والأربعون
في آداب الصوم

آداب الصوفية في الصوم ضبط الظاهر والباطن، وكف الجوارح عن الآثام، كمنع النفس عن الطعام، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام.

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقة وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه.

ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار، وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام.

قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصيامهم، ولذرة من ذي يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغتربين.

ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذي كان يأكله وهو مفطر، وإلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما فوت.

ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة.

والنفس من طبعها أنها إذا أقهرت لله تعالى في شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها، فيصير بالأكل النوم ضرورة، والقول والفعل ضرورة، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده.

ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها إلا عبد يري الله تعالى أن يقر به ويدينه، ويصطفيه ويربيه. ويمتنع في صومه من ملاعبة الأهل بالملامسة، فإن ذلك أنزه للصوم، ويتسحر استعمالا للسنة.

وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لمعنيين، أحدهما عود بركة السنة عليه، والثاني التقوية بالطعام على الصيام.

روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: ((تسحروا فإن في السحور بركة)).

ويعجل الفطر عملا بالسنة، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر، أو يأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين، فإحياء ذلك له فضل كثير، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قل أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى.

قال حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن قرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه: ((قال الله عز وجل: أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا)).

وقال عليه السلام: ((لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)).

والإفطار قبل الصلاة سنة، كان رسول الله ﷺ يفطر على جرعة من ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات.

وفى الخبر: كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام.

وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة.

قال سفيان: من اغتاب فسد صومه.

وعن مجاهد: خصلتان تفسدان الصوم: الغيبة، والكذب.

قال الشيخ ابو طالب المكى: قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم باكل الحرام، فقال ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[1].

وورد فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا ان تهلكا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستاذنانه فى الإفطار.

فارسل إليهما قدحا وقال قولوا لهما قيئا فيه ما اكلتما، فقاءت احدهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه، فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ((هاتان صامتا وافطرتا على ما حرم الله عليهما)).

وقال عليه الصلاة والسلام: ((إذا كان يوم صوم احدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم)).

وفى الخبر: إن الصوم امانة، فليحفظ أحدكم أمانته.

والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم، ولا يدرى متى يساق إليه الرزق، فإذا ساق الله الرزق تناوله الأدب، وهو دائم المراقبة لوقته.

وهو فى إفطاره افضل من الذى له معلوم معد، فإن كان مع ذلك يصوم فقد اكمل الفضل.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.

حكى عن رويم قال: اجتزت فى المهاجرة ببعض سكك بغداد، فعطشت، فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد، فلما أردت أن أتناوله من يدها قالت: صوفى ويشرب بالنهار؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت.

قال رويم: فاستحيت من ذلك ونذرت الا افطر ابدا.

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم، فيرون الفضل فى الا تركن النفس إلى عادة، وراوا ان إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس.

ومن أدب الفقراء ان الواحد إذا كان بين جمع وفى صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم.

فإن صام بإذن الجمع وفتح عليهم بشيء لا يلزمهم ادخاره للصائم، مع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك، فإن الله تعالى ياتى للصائم برزقه، إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك.

وهكذا الصائم لا يليق ان يأخذ نصيبه فيدخره، لأن ذلك من ضعف الحال، فإن كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره.

والذى ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم، فأما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام، ولا يلزمهم موافقة الجمع مع الإفطار، وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار.

فأما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل: مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام.

وأمر القوم مبناه على الصدق، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس، فكل ما صحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة هو الأفضل.

فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما وافطر للموافقة، وإن صام ولم يوافق فله وجه.

فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبى الفضل الحافظ المقدسى.

قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال حدثنا عبد الله بن حماد قال حدثنا عبد اله بن صالح قال حدثنى عطاء بن خالد عن حماد اب حميد عن محمد بن المنكدر عن أبى سعيد الخدرى قال: اصطنعت لرسول الله ﷺ «دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول إنى صائم، أفطر واقض يوما مكانه».

وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله ﷺ وأصحابه اكلوا وبلال صائم، فقال رسول الله ﷺ «ناكل رزقنا، ورزق بلال فى الجنة».

فإذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو فضلى يرجى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه.

فإذا لم يجد هذا المعنى لا ينبغى أن يلتبس عليه الشره وداعية النفس فليتم صومه. وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه.

ومن أحسن آداب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته، ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة، فيعالج مزاج القب المتغير بإذهاب التغير عنه.

ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها، أو بأذكـار واستعف يأتي به، فقد ورد في الخبر: أذيبوا طعامكم بالذكر.

ومـن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن إلا أن يكون متمكنـا مـن الإخلاص فلا يبالي ظهر أم بطن.



الباب الثانى والأربعون
فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته، وصحة مقصده، ووفور علمه، وإتيانه بآدابه، تصير حاداته عبادة.

والصوفى موهوب وقته لله، ويريد حياته لله، كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[(١)].

فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته، وضرورة بشريته، ويحف بعاداته نور يقظته، وحسن نيته، فتتنور العادات، وتتشكل بالعبادات، ولهذا ورد: نوم العالم عبادة، ونفسه تسبيح. هذا مع كون النوم عين الغفلة.

ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة. فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة.

وقد ورد: أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس. والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين.

والله تعالى ركب الآدمى بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات،

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢.

وجعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

فكون الطبائع وهي الحرارة والرطوبة، والبرودة واليبوسة، وكون بواسطتها النبات، وجعل النبات قواما للحيوانات، وجعل الحيوانات مسخرة للآدمي، يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه.

فالطعام يصل إلى المعدة، وفي المعدة طباع أربع.

فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن اخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام، فتاخذ الحرارة للبرودة، والرطوبة لليبوسة، فيعدل المزاج، ويأمن الاعوجاج.

وإذا أراد الله تعالى إفناء قالب وتخريب بنية، اخذت كل طبيعة جنسها من المأكول، فتميل الطبائع، ويضطرب المزاج، ويقسم البدن ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[2].

روى عن وهب بن منبه قال: وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام: إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء: من رطب، ويابس وبارد وسخن.

وذلك لأني خلقته من التراب وهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم، بإذني وبهن قوامه، فلا يقوم الجسم إلا بهن، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن: المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٩.

(٢) سورة الأنعام: آية ٩٦.

ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة فى البلغم.

فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه، فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته.

فإن زادت منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن، ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها، حتى يضعف عن طاقتهن، ويعجز عن مقدارهن.

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالا، وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر واتعب طلب الحلال.

ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعم، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام. قال رسول الله ﷺ «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر».

وإنما كان موجبا لنفى الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب، وذلك من شكر النعمة.

والشكر يستوجب المزيد، فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة، مذهبا للفقر.

وقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكثر خير بيته، فليتوضأ إذا حضر غداؤه، ثم يسمى الله تعالى».

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[1]. تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان. واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله فى وجوب ذلك.

وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير ألا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر. فقرونه فريضة وقته وأدبه، ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه.

روت عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله فإن نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره».

ويستحب أن يقول فى أول لقمة بسم الله، وفى الثانية بسم الله الرحمن، وفى الثانية يتم، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس، يقول فى أول نفس الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم.

وكما أن للمعدة طباعا تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام، فللقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة، يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة.

تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول.

وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة.

وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة.

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٢١.

فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ، ويرى تغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب فللقلب اهم واولى. وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب. ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب. واسم الله تعالى دواء نافع مجرب بقى الأسواء، ويذهب الداء، ويجلب الشفاء.

حكى: أن الشيخ محمدا الغزالى لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى عبد صالح، فقصده زائرا، فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض.

فلما راى الشيخ محمدا جاء إليه واقبل عليه، فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى، فامتنع ولم يعطه البذر.

فسأله الغزالى عن سبب امتناعه، فقال: لأنى ابذر هذا البذر بقلب حاضر، ولسان ذاكر، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا.

فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر.

وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن تحضر الوقت بذلك، حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر، ولا يعقب الطعام مكروه، ويتغير مزاج القلب.

وقد كان شيخنا ابو النجيب السهروردى يقول: انا آكل وانا أصلى، يشير إلى حضور القلب فى الطعام.

وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الأكل، ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثرا كبيرا لا يسعه الإهمال له.

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان المعينة على الأكل، فمنها الكاسرة، ومنها القاطعة، ومنها الطاحنة، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغير الذوق.

كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لا يفسد، وكيف جُعل النداوة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد.

والكبد بمثابة النار، والمعدة بمثابة القدر، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة، ولا يفسد الطعام، ولا ينفصل، ولا يصل إلى كل عضو نصيبه. وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين، ويطول شرح ذلك.

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الأعضاء وتعاونها، وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء واستجذاب القوة منه للأعضاء، وانقسامه إلى الدم والثفل واللبن، لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فالفكر فى ذلك وقت الطعام، وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر.

ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام، ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة.

ويكون من دعائه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ما تحب، وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما تحب.

الباب الثالث والأربعون
فى آداب الأكل

فمن ذلك ان يبتدى بالملح ويختتم به.

روى عن رسول الله ﷺ انه قال لعلى رضى الله عنه: «يا على ابدا طعامك بالملح واختم بالملح، فإن الملح شفاء من سبعين داء، منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس».

وروت عائشة رضى الله عنها قالت: لدغ رسول الله ﷺ فى ابهامه من رجله اليسرى لدغة فقال: «على بذلك الأبيض الذى يكون فى العجيب».

فجئنا بملح فوضعه فى كفه، ثم لعق منه ثلاث لعقات، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه.

ويستحب الاجتماع على الطعام، وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها.

روى جابر عن رسول الله ﷺ انه قال «من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى».

وروى انه قيل يا رسول الله: إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تفترقون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»..

ومن عادة الصوفية الأكل على السفر، وهو سنة رسول الله ﷺ.

اخبرنا الشيخ ابو زرعة عن المقومى بإسناده إلى ابن ماجة الحافظ القزوينى قال انبانا محمد بن المثنى قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثنا ابى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن انس بن مالك قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة. قال: فعلام كانوا يأكلون؟

قال: على السفر.

ويصغر اللقمة، ويجود الأكل بالمضغ، وينظر بين يديه، ولا يطالع وجوه الآكلين، ويقعد على رجله اليسرى، وينصب اليمنى، ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز. نهى رسول الله ﷺ ان يأكل الرجل متكئا.

وروى انه أهدى لرسول الله ﷺ شاة، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه يأكل.

فقال أعرابي: ما هذه الجلسة يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقني عبدا ولم يجعلني جبارا عنيدا».

ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ.

روى حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ.

ويأكل باليمين.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، وليعط بيمينه.

فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، ويعطي بشماله».

وإن كان المأكول تمرا أو ماله عجم، لا يجمع من ذلك ما يرمى وما يؤكل على الطبق ولا في كفه، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه.

ولا يأكل من ذروة الثريد.

روى عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه، فإن البركة تنزل في وسطه».

ولا يعيب الطعام.

روى أبو هريرة ﷺ قال: ما عاب رسول ﷺ طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

وإذا سقطت اللقمة يأكلها.

فقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان».

ويلعق أصابعه.

فقد روى جابر عن النبي ﷺ قال «إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه فإنه لا يدرى فى أى طعامه تكون البركة».

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة، وهو مسحها من الطعام.

قال أنس ﷺ: أمر رسول ﷺ بإسلات القصعة.

ولا ينفخ فى الطعام.

فقد روت عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «النفخ فى الطعام يذهب بالبركة».

وروى عبد الله بن عباس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ نفخ فى طعام ولا فى شراب.

ولا يتنفس فى الإناء، فليس من الأدب ذلك.

والخل والبقل على السفرة من السنة. قيل إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل.

روت أم سعد رضى الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال «هل من غداء؟

فقالت: عندنا خبز وتمر وخل، فقال عليه السلام: نعم الإدام الخل.

اللهم بارك فى الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلى، ولم يفقر بيت فيه خل».

ولا يصب على الطعام، فهو من سيرة الأعاجم.

ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين، ففيه نهى.

ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع، فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل، فإن الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له فى الطعام حاجة».

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره.

فقد روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ «أكرموا الخبز، فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم».

ومن أحسن الأدب وأهمه ألا يأكل إلا بعد الجوع، ويمسك عن الطعام قبل الشبع.

فقد رى عن رسول الله ﷺ «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه».

ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم، وهو سنة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ «إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه ولى حره ودخانه».

وإذا فرغ من الطعام تحمد الله تعالى.

روى أبو سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما قال «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».

وروى عن رسول الله ﷺ انه قال ((من اكل طعاما فقال ((الحمد لله الذى اطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه)).

ويتخلل، فقد روى عن رسول الله ﷺ ((تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنة)).

ويغسل يديه، فقد روى ابو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ((من بات وفى يده غمر لم يغسل فاصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه)).

ومن السنة غسل الأيدى فى طست واحد.

روى ابن عمر رضى الله عنهما انه قال: قال رسول الله ﷺ ((اترعوا الطسوس وخالفوا المجوس)).

ويستحب مسح العينين ببلل اليد.

روى ابو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ((إذا توضاتم فاشربوا اعينكم الماء، ولا تنفضوا فإنها مراوح الشياطين، قيل لأبى هريرة فى الوضوء وغيره؟ قال: نعم فى الوضوء وغيره.

وفى غسل اليد ياخذ الأسنان باليمين، وفى الخلال لا يزدر ما يخرج بالخلال من الأسنان. وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به.

ويجتنب التصنع فى اكل الطعام، ويكون اكله بين الجمع كاكله منفردا، فإن الرياء يدخل فى العبد فى كل شيء.

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه، قيل له تعلم به بأسا؟ قال: نعم، رايته يتصنع فى الأكل، ومن تصنع فى الأكل، لا يؤمن عليه التصنع فى العمل.

وإن كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

اللهم اطعمنا طيبا، واستعملنا صالحا. وإن كان شبهة يقول: الحمد لله على كل حال، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك. وليكثر الاستغفار والحزن. ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك، فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك.

ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد، ولإيلاف قريش.

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم، فقد ورد ((من مشى إلى طعام لم يدع إليه مش فاسقا وأكل حراما)) وسمعنا لفظا آخر ((دخل سارقا وخرج مغيرا)) إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته.

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار. ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار، ويجتنب المضيف التكلف، إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا.

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب ((أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة)).

وروى أيضا: عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار، يصلون بالليل ويصومون بالنهار. كان بعض الصحابة يقول ذلك.

ومن الأدب ألا يستحقر ما يقدم له من طعام.

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول: ما ندرى أيهم أعظم وزرا، الذى يحتقر ما يقدم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه.

ويكره أكل المباهاة، وما تكلفه للأعراس والتعازى، فما عمل للنوائح لا يؤكل، وما عمل للعزاء لا بأس به وما يجرى مجراه.

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه فى التصرف فى شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه. قال الله تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[1].

قيل: دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا، فدخل سفيان ففرح وقال: ذكرتمونى أخلاق السلف، هكذا كانوا.

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة، وأوكد ذلك الوليمة. وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ، وإن عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر.

روى أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق، وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته، فلما مر بهم سلم عليهم، فردوا عليه السلام وقالوا: هلم الغداء يا ابن رسول الله.

فقال: نعم إن الله لا يحب المتكبرين، ثم ثنى وركه، فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل، ثم سلم عليهم وركب.

وكان يقال: الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

وروى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطست.

فلما فرغ قال: يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك؟ قال: لا، قال: أمير المؤمنين، قال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت أهل العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم.

---

(١) سورة النور: آية ٦١.

الباب الرابع والأربعون
فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضروراتها لدفع الحر والبرد، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع.

وكما أن النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات، فهكذا فى اللباس تتفنن فيه، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة. فالصوفى يرد النفس فى اللباس إلى متابعة صريح العلم.

قيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزق، قال: ولكنه من وجه حلال. وقيل له: وهو وسخ، قال: ولكنه طاهر.

فنظر الصدق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال، لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)) أى لا فريضة ولا نافلة.

ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا، لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة، وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد، لأن ذلك مصلحة النفس، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق.

والصادق لا ينبغى أن يلبس الثوب إلا لله، وهو ستر العورة، أو لنفسه لدفع الحر والبرد.

حكى أن سفيان الثورى ﷺ خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا، فقيل له، ولم يعلم بذلك، فهم أن يخلعه ويغيره، ثم تركه وقال: حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله الآن، فما أغيره إلا لنظر الخلق، فلا أنقض النية الأولى بهذه.

والصوفية خصوا بطهارة الأخلاق، وما رزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم.

وفى طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع، لوجود تناسب هيئة النفس، وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[1].

فالتناسب هو التسوية. فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم، وطعامهم مشاكلا لكلامهم، وكلامهم مشاكلا لمقامهم، لأن التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم، والتشابه والتماثل فى الأحوال يحكم به العلم، ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مزج الهوى.

وما عندهم من التطلع إل التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب.

قال أبو سليمان الدارانى: يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم. أنكر ذلك لعدم التناسب.

فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه. وإذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحراف، لوجود هوى كامن فى أحد الطريق.

إما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق.

وإما فى طرف المأكول لفرط الشره، وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال.

لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا، فقال له أحمد: لو لبست ثوبا أجود من هذا؟ فقال: ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب.

فكان الفقراء يلبسون المرقع، وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح.

---

(١) سورة الحجر: آية ٢٩.

وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه، فكما كانت رقاعهم م المزايل كانت لقمهم من الأبواب.

وكان أبو عبد الله الرفاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم، فيقال له فى ذلك، فيقول: أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة، ثم يخرج بين العشاءين لطلب الكسر من الأبواب.

وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة.

وحكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث، فقال لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له، فسكتوا كلهم، فقال له غلام منهم: الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له.

والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب، ولا يملك غير ثوبه الذى عليه.

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم، ثم قطع كمه من رءوس أصابعه.

وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب: إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك، واخصف نعلك، وقصر أملك، وكل دون الشبع.

وحكى عن الجريرى قال: كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف، فسئل عن ذلك فقال: قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب، فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة.

فاردت ان اجلس معهم، فإذا بجماعة من الملائكة اخذوا بيدى واقامونى وقالوا لى: هؤلاء اصحاب ثوب واحد وانت لك قميصان، فلا تجلس معهم، فانتبهت ونذرت الا البس إلا ثوبا واحدا إلى ان القى الله تعالى.

وقيل: مات ابو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى كان عليه وكان عارية، فردوه إلى صاحبه.

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا انه بقى زمانا لا يلبس الثوب إلا مستاجرا، حتى انه لم يلبس على ملك نفسه شيئا.

وقال ابو حفص الحداد: إذا رايت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره.

وقيل: مات ابن الكرنبى وكان استاذ الجنيدى وعليه مرقعته. قيل كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا، فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن.

وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء، ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال، او خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة.

وقيل: كان ابو حفص الحداد يلبس الناعم، ولا بيت فرش فيه الرمل، لعله كان ينام عليه بلا وطاء.

وقد كان قوم من اصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا، ويكون لبس ابى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها،

وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعرض عليهم.

غير ان لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد «من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه البسه الله تعالى من حلل الجنة».

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله، يصير بصفات نفسه، متفقد خفى شهوات النفس، يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك، فلحسن النية فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها.

ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته، بل يلبس ما يدخل الحق عليه فيكون بحكم الوقت، وهذا حسن، وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه، فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار.

فعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئة من الملبوس، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار. وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير، ويلبس العمامة بدانق.

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس.

وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد.

وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام، ولكن فى لبسه وهيئته نية صالحة. وشرح تفاوت الأقدام فى ذلك يطول.

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار، وقد يساق إليه الثوب التام فيلبسه، وكان يقال له: ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك فى لبسك هذا الثوب، فيقال لا نلقى إلا أحد رجلين:

رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع، فنقول له هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه، فيقول: لا.

ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة، فنقول له: هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا، أو ترى عندنا فيه شهوة، فيقول: لا.

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن، ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة، فيكثر اللجوء إلى الله والافتقار إليه، ويسأله ان يريه أحب الزى إلى الله تعالى، وأصلحه لدينه ودنياه، لكونه غير صاحب غرض وهى فى زى بعينه.

فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا، فيلتزم بذلك الزى، فيكون لبسه بالله، ويكون هذا اتم وأكمل ممن يكون لبسه لله.

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم، وينبسط بما بسطه اله، فيلبس الثوب عن علم وإيقان، ولا يبالى بما لبسه ناعما لبس او خشنا.

وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ، وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه، موهوبا له، يوافقه الله تعالى فى إرادة نفسه، ويكون هذا الشخص تام التزكية، تام الطهارة، محبوبا مرادا، يسارع الله تعالى إلى مُراده ومحابه.

غير أن ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين.

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى انه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره، ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم.

فقيل لأبى يزيد ذلك فقال: مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف.

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه، وكل احوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، آية ٨٤.

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد، والأبعد من الآفات.

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه، فرأيت قميصه وسخا، فقلت لامرأته فاطمة: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت: نفعل إن شاء الله. قال: ثم عدته فإذا القميص على حاله.

فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوه؟ قالت: والله ما له قميص غير هذا.

وقال سالم: كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم إليه الخلافة، فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها.

وقيل: لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعين رقعة، وكان عطاؤه أربعة آلاف.

وقال زيد بن وهب: لبس علي بن أبي طالب قميصا رازيا، وكان إذا مد كمه بلغ أطراف أصابعه، فعابه الخوارج بذلك، فقال: أتعيبوني على لباس هو أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي به المسلم.

وقيل: كان عمر ﷺ إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال: دعوا هذه البراقات للنساء.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «نوروا قلوبكم بلباس الصوف، فإنه مذلة في الدنيا ونور في الآخرة، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم».

وروى أن رسول الله ﷺ احتذى نعلين، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما، فسجد لله تعالى، فقيل له في ذلك، فقال «خشيت أن يعرض عني ربي

فتواضعت له لا جرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من اجلهما» فاخرجهما فدفعهما إلى اول مسكين لقيه ثم امر فاشترى له نعلان مخصوفتان.

وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف، واحتذى المخصوف، وأكل من العبيد.

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفى شهواتها وكامن هواها عسر جدا، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط، وترك ما يريب إلى ما لا يريب، ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة إلا بعد إتقان علم السعة وكمال تزكية النفس.

وذاك إذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع، وتخلصت النية، وتسدد التصرف بعلم صريح واضح.

وللعزيمة اقوام يركبونها ويراعونها، لا يرون النزول الى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا واللباس الناعم من الدنيا.

وقد قيل: من رق ثوبه رق دينه. وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع.

روى علقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ انه قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر، فقال رجل: ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، فقال النبى عليه السلام: ان الله جميل يحب الجمال».

فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا يهوى نفسه فى ذلك، غير مفتخر به ومختال، فاما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد.

روى ابو هريرة أن رسول الله ﷺ قال <<إزرة المؤمن إلى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة. فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه إذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة>>.

ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته فى مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه، وفى كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى. وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى.



الباب الخامس والأربعون
في ذكر فضل قيام الليل

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[1] نزلت هذه الآية في المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب.

وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب، وأصابهم الظمأ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله.

وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم، فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادي، فشرب المسلمون منه واغتسلوا، وتوضئوا وسقوا الدواب وملئوا الأسقية، ولبد الأرض حتى ثبتت به الأقدام.

قال الله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ۝﴾[2] أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين.

ولكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع، الله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة في تلك الواقعة والحادثة، فهو رحمة نعم المؤمنين.

والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين، وهو أمنة لقلوبهم من منازعات النفس، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب، إذ في

---

(١) سورة الأنفال، آية ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ١١، ١٢.

شكايتها وتعبها تكدير القلب، وباحترامها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب.

لما بين القلب والنفس من المواطاة عند طمأنينتها للمريدين السالكين، فقد قيل: ينبغي أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد، فيكون ثمان ساعات للنوم، ساعتان من ذلك يجعلهما المريد بالليل ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف.

وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة. وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس، فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ، ويسكن من الحرارة واليبس الحادث في المزاج، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم، فإذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه.

لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم، وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة، كما يقال: سنة الوصل سنة، وسنة الهجر سنة، فيقصر الليل لأهل الروح.

نقل عن علي بن بكار أنه قال: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر.

وقيل لبعضهم: كيف أنت والليل؟ قال: ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

وقال أبو سليمان الداراني: أهل الليل في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم.

وقال بعضهم: ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل.

وقال بعض العارفين: إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين في الأسحار فيملؤها نورا، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين.

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه: إن لي عبادا يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك. قال: يا رب وما علامتهم؟

قال: يراعون الظلام بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جهنم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوا إلي بإنعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي.

أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثاني لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالث أقبل بوجهي عليهم، افترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

فالصادق المريد إذا خلا ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره في حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبه في قبة من قباب الحق مسددا حركاته، موفرة سكناته.

وقد ورد: من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار، ويجوز أن يكون لمعنيين:

أحدهما: أن المشكاة تستنير بالمصباح، فإذا صار سراج اليقين في القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل، فيزداد المصباح إشراقا، وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء.

كان يقول سهل بن بعد الله: اليقين نار، والإقرار فتيلة، والعمل زيت وقد قال الله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[2].

فنور اليقين من نور الله في زجاجة القلب، يزداد ضياء بزيت العمل، فتبقى زجاجة القلب كالكوب الدرى.

وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب. وأيضا يلين القلب بنار النور، ويسرى لينه إلى القالب، فيلين القالب للين القلب، فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما. قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين، فإذا امتلأ القلب بالنور، ولأن القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور، ينـدرج الزمان والمكان في نور القلب، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور، وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها، إذ يصير القلب سماء، والقالب أرضا.

ولذة تلاوة كلام الله في محل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود في مزاحمة صفو الشهود، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث، ولا يسمع للهاجس حسيس، وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس، وذلك هو الفضل العظيم.

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٩.

(٢) سورة النور: آية ٣٥.

(٣) سورة الزمر: آية ٢٣.

الوجه الثانى لقوله عليه السلام: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار» معناه ان وجوه اموره التى يتوجه إليها تسحن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه، ويكون معانا فى مصدره ومورده، فيحسن وجه مقاصده وافعاله، وينتظم فى سلك السداد مسددا اقواله، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب.



الباب السادس والأربعون
فى ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند الغروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجئ الليل وصلاة المغرب، مقيما فى ذلك على أنواع الأذكار، ومن أولاها التسبيح والاستغفار. قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝﴾[1].

ومن ذلك أن يواصل بين العشاء بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر، وأفضل ذلك الصلاة، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار، من رؤية الخلق ومخالطتهم، وسماع كلامهم.

فإن ذلك كله له أثر وخدش فى القلوب، حتى النظر إليهم يعقب كدرا فى القلب، يدركه من يرزق صفاء القلب، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى فى العين للبصر. وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر.

ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين، ويقيد من قيام الليل.

سيما إذا كان عريا عن يقظة القلب. ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل.

حكى لى بعض الفقراء عن شيخ لى بخراسان أنه كان يغتسل فى الليل ثلاث مرات، مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم،

---

(١) سورة غافر: آية ٥٥.

ومرة قبل الصبح. فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل.

ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه، إلا أن يكون واثقا من نفسه وعادته، فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين.

وبهذا وصف المحبون، قيل: نومهم نوم الغرقى، وأكلهم أكل المرضى، وكلامهم ضرورة، فمن نام عن غلبة بهم مجتمع بقيام الليل يوفق لقيام الليل، وإنما النفس إذا أطمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل فى الاستقرار، وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو التجافى الذى قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1].

لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والوضع نبوا وتجافيا.

وقد قيل: للنفس نظران، نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية.

فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية، فأعطوا النفوس حقها من النوم، ومنعوها حظها، فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[2].

---

(١) سورة السجدة: آية ١٦.

(٢) سورة غافر: آية ٦٧.

وللآدمي بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له، والرسوب صفة التراب، والكسل والتقاعد والتناوب بسبب ذلك طبيعة في الإنسان. فأرباب الهمة العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾[1]. حتى قال ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم، فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها، ورقوها بالنظر إلى الذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها، فتجافت جنوبهم عن المضاجع، وخرجوا من صفة الغافل الهاجع.

ومن ذلك أن يغير العادة، فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء. وقد كان بعضهم يقول: لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلى من أن أرى وسادة، فإنها تدعوني إلى النوم.

ولتغير العادة في الوسادة والغطاء والوطاء تأثير في ذلك، ومن ترك شيئا من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته ينيبه على ذلك بتيسير ما رام.

ومن ذلك خفة المعدة من الطعام، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل، لأن بالذكر يذهب داؤه.

فإن وجد للطعام ثقلا على المعدى ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر، فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار.

قال بعضهم: لأن أنقص من عشائي لقمة أحب إلى من أن أقوم ليلة.

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لا يدري ماذا يحدث، ويعد طهوره وسواكه عنده، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة.

---

(١) سورة الزمر: آية ٩.

(٢) سورة الزمر: آية ٩.

قال رسول الله ﷺ ‹‹إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق››.

والمريد المتأمل إذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوؤه باللمس، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل فى التذاذ النفس باللمس، ولا يعدم يقظة القلب.

فأما إذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتنحجب الروح أيضا لمكان صلافته.

ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى، وكدورة محبة الدنيا، والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد.

وقد ورد: من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم.

وإذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب، وقابل اللوح المحفوظ فى النوم، وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء. ففى الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة، فيأمره الله تعالى وينهاه، ويفهمه فى المنام ويعرفه، ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى كالأمر والنهى الظاهر، يعصى الله تعالى إن أخلبها.

بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وقعا، لأن المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهذه لوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى.

فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة، ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت، فإن ابتلى العبد فى بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح

اعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين.

وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد ان يستاك ويمسح اعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين، ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه.

روى ان رسول الله ﷺ كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه، ويستقبل القبلة فى نومه. وهو على نوعين، فإما على جنبه الأيمن كالملحود.

وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى، ويقول: باسمك اللهم ربى وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن امسكت نفسى فاغفر لها وارحمها.

وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت امرى إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى انزلت، ونبيك الذى أرسلت، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك، الحمد لله الذى حكم فقهر، الحمد لله الذى بطن فخبر، الحمد لله الذى ملك فقدر.

الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك، وشر عبادك، وشر الشيطان وشركه.

ويقرأ خمس آيات من البقرة الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١].

وآية الكرسى، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[٢].

و﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، آية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٥.

(٣) سورة الأعراف، آية ٥٤.

و﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ ﴾[1].

واول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر؛

و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾[2].

و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[3] والمعوذتين، وينفث بهن في يديه، ويمسح بهما وجهه وجسده.

وإن أضاف إلى ما قرأ عشرا من أول الكهف، وعشرا من آخرها فحسن.

ويقول: اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال إليك التي تقربني إليك زلفى، وتبعدني من سخطك بعدا، أسألك فتعطيني، واستغفرك فتغفر لي، وادعوك فتستجيب لي، اللهم لا تؤمني مكرك، ولا تولني غيرك، ولا ترفع عني سترك، ولا تنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين.

ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلى ودعا أمنوا دعاءه، وإن لم يقم تعبدت الأملاك في الهواء.

وكتب لهم ثواب عبادتهم، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الإسراء، آية ١١٠.

(٢) سورة الكافرون، آية ١.

(٣) سورة الإخلاص، آية ١.

الباب السابع والأربعون
فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلى ركعتين خفيفتين بين الأذان والإقامة.

وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين فى البيت، يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة، كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنا منهم أنهما سنة.

وإذا صلى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب، يعجل بهما فإنهما يرفعان مع الفريضة، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل، مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين.

اكتبا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وأشهد أن الجنة حق،والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، والصراط والميزان حق، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها. اللهم احطط بها وزرى، واغفر بها ذنبى، وثقل بها ميزانى، وأوجب لى بها أمانى، وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين.

فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه، وأقرب إلى الإخلاص، وأجمع للهم فليفعل.

وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1] فقال «هي الصلاة بين العشاءين».

وقال عليه السلام «عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار، وتهذب آخره».

ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق، ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة، والآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2] إلى آخر الآيتين، وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[3].

وفي الثانية آية الكرسي، و ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[4]، وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

ويقرأ في الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة، ويصلي بعد ذلك ما شاء، فإن أراد أن يقرأ شيئا من حزبه في هذا الوقت في الصلاة أو غيرها، وإن شاء صلى عشرين ركعة فحسن، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة، مثل أن يقرأ مكررا ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾[5].

أو آية أخرى في معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء، ففي ذلك جمع للهم، وظفر بالفضل، ثم يصلي قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعا أخرى.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٣.

(٣) سورة الإخلاص: آية ١.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٨٥.

(٥) سورة الممتحنة: آية ٤.

وقد كان رسول الله ﷺ يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا، ويقرأ فى هذه الأربع سورة لقمان، ويس، وحم الدخان، وتبارك الملك.

وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى، وآمن الرسول، وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة، يقرأ فيها ثلاثمائة آية من القرآن، من ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ ﴾[1] إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية.

هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله. وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات. وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير.

وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر.

ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون واثقا من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد، فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل.

وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره، ثم يتنقل ما شاء، ويوفى آخر ذلك.

وإذا كان الوتر من أول الليل يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما بإذا زلزلت، والهاكم.

وقيل: فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر، حتى إذا أراد التهجد يأتى به ويوتر فى آخر تهجده. ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك. وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون فى كيفية نيتهما.

---

(١) سورة الطارق: آية ١.

وإن قرأ في كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير ستا، فقد كان العلماء يقرأون هذه السور ويترقبون بركتها.

فإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله، ويصرف فكره إلى أمر الله، قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله، ويشغل اللسان بالذكر، فالصادق كالطفل الكلف بالشيء إذا نام ينام على محبة الشيء.

وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلف به وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما همه، فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر، إن كان همه الله فهمه هو، وإلا فهمه غير الله.

والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة التي انتبه عليه، ويكون فارا إلى ربه بباطنه خوفا من ذكر الأغيار، ومهما وفى الباطن بهذا المعيار.

فقد انتفى طريق الأنوار، وطرق النفحات الإلهية، فجدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا، ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا، ويقول باللسان: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران، ثم يقصد الماء الطهور. قال الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[2] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الماء القرآن، والأودية القلوب، فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت. والماء مطهر والقرآن مطهر، والقرآن بالتطهير أجدر، فالماء يقوم غيره مقامه، والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسده.

---

(١) سورة الأنفال: آية ١١.

(٢) سورة الرعد: آية ١٧.

فالماء الطهور يطهر الظاهر، والعلم والقرآن يطهران الباطن، ويذهبان رجز الشيطان.

فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع، وجدير أن يكون من رجز الشيطان، لما فيه من الغفلة عن الله تعالى.

وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض، فكانت القبضة جلدة الأرض، والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة. قال الله تعالى ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[1].

فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته، والأدمة عبارة عن باطنه وآدميته. والآدمية مجمع الأخلاق الحميدة. كان التراب موطئ أقدام إبليس.

ومن ذلك اكتسب ظلمة، وصارت تلك الظلمة معجونة فى طينة الآدمى، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة، ومنها الغفلة والسهو.

فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل.

فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير فى تكدير القلب، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار.

وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للإثم، والإثم رجز من الشيطان، والماء يذهب رجز الشيطان، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب، لظهور النفس وتصرف الشيطان فى هذه المواطن.

---

(١) سورة الرعد: آية ١٧.

ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام، أو مساكنة إلى مخالطة الناس، أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة، كالخوض فيما لا يعنى قولا وفعلا، عقب ذلك بتجديد الوضوء، لثبت القلب على طهارته ونزاهته.

ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر، وما يعلقها إلا العالمون.

فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره. ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم، لكان أزيد فى تنوير قلبه، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة، باذلا مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله.

ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة، وقد قال اله تعالى ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[1] قدم الإنابة للدخول فى الصلاة، ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج، وعوض بالوضوء عن الغسل، وجوز أداء متفرضان بوضوء واحد، دفعا للحرج عن عامة الأمة، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى، وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى.

فإذا قام إلا الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، ويقول: سبحان الله، والحمد لله، الكلمات عشر مرات.

ويقول: الله أكبر ذو الملك والملكوت، والجبروت والكبرياء، والعظمة والجلال، والقدرة، اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق، ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد عليه السلام حق، اللهم لك

---

(١) سورة الروم: آية ٣١.

اسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت.

أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت، اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت.

أسالك مسألة البائس المسكين، وأدعوك دعاء الفقير الذليل، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا، وكن بى رءوفا رحيما، يا خير المسئولين ويا أكرم المعطين.

ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] الآية، وفى الثانية ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

ويستغفر بعد الركعتين مرات، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد يقرأ فيهما بآية الكرسى، وآمن الرسول، وإن أراد غير ذلك، ثم يصلى ركعتين طويلتين.

هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد هكذا، ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين، وهكذا يتدرج إلى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة، أو ثمان ركعات، أو يزيد على ذلك فضلا كثيرا والله أعلم.

---

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) سورة النساء: آية ١١٠.

الباب الثامن والأربعون
في تقسيم قيام الليل

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾[١].

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢]. كان عملهم قيام الليل.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[٣]. استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو. وفي الخبر: «عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم، وهو دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، وملغاة للوزر، ومذهب كيد الشيطان، ومطردة للداء عن الجسد».

وقد جمع من الصالحين يقومون الليل كله، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء، منهم سعيد بن المسيب، وفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار، وحبيب العجمي، وكهمس بن المنهال وأبو حازم، ومحمد بن المنكدر، وأبو حنيفة رحمه الله، وغيرهم.

عدهم وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب. فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه، وأقل الاستحباب سدس الليل.

فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه وينام السدس.

روي أن داود عليه السلام قال يارب إني أحب أن أتعبد لك، فأي وقت أقوم؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، فإنه من قام أوله نام

---

(١) سورة الفرقان: آية ٦٤.
(٢) سورة السجدة: آية ١٧.
(٣) سورة البقرة: آية ٤٥.

آخره، ومن قام آخره نام أوله، ولكن قم وسط الليل، حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إلي حوائجك.

ويكون القيام بين نومتين وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل، فإذا غلبه النوم ينام، فإذا انتبه يتوضأ، فيكون له قومتان ونومتان، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله، ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول.

وقد ورد: لا تكابدوا الليل.

وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال «ليصل أحدكم من الليل ما تيسر، فإذا غلبه النوم فلينم».

وقال عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإنه متين، فمن تشاد يغلبه».

ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، ولا يليق بالطالب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل.

ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة، وكلما يصلي بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين، ويسبح ويستغفر ويصلي على رسول الله ﷺ فإنه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام.

وقد كان بعض الصالحين يقول: هي أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عيني.

وحكى لى بعض الفقراء عن شيخ له انه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل، واكلة واحدة لليوم والليلة.

وقد جاء فى الخبر: قم من الليل ولو قدر حلب شاة. وقيل: يكون ذلك قدر اربع ركعات وقدر ركعتين.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[1]. هو قيام الليل. ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا فى العزيمة او تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك، او اغترارا بحاله، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير.

وقد يكون من ارباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب، ويجد من دعة القرب، ما يفتر عليه داعية الشوق، ويرى ان القيام وقوف فى مقام الشوق، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين.

والذى له ذلك ينبغى ان يعلم ان استمرار هذه الحالة متعذر، والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة. ولا حالة اجل من حال رسول الله ﷺ، وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه.

وقد يقول بعض من يحاج فى ذلك: إن رسول ﷺ فعل ذلك تشريعا، فنقول: ما بالنا نتبع تشريعه وهذه دقيقة فتعلم ان رؤية الفضيلة فى ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب، واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالى، وهو تقيد بالحال وتحكم للحال وتحكم من الحال فى العبد.

والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال، ويصرفون الحال فى صور الأعمال، فهم متصرفون فى الحال لا الحال متصرف فيهم، فليعلم ذلك فإنا رأينا من الأصحاب من كان فى ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى ان ذلك وقوف وقصور.

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

قيل للحسن: يا أبا سعيد إنى أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهورى فما بالى لا أقوم؟ قال: ذنوبك قيدتك. فليحذر العبد فى نهاره ذنوبا تقيده فى ليله.

وقال الثورى رحمه الله: حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبتُه، فقيل له: ما كان الذنب؟ قال: رأيت رجلا بكاء فقلت فى نفسى هذا مراء.

وقال بعضهم: دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت: ما بالك أتاك نعى بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد، فقلت: وما ذاك؟ قال: بابى مغلق، وسترى مسبل، ولم أقرأ حزبى البارحة، وما ذاك إلا بذنب أحدثته.

وقال بعضهم: الاحتلام عقوبة. وهذا صحيح، لأن المراعى المتحفظ بنية تحفظه علمه بحاله يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله، ومن كمل تحفظه ورعايته، وقيامه بأدب حاله.

قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام، ووضع الرأس على الوسادة، إذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة، وقد يتهمد للنوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه، وله فيه نية للعون على القيام، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس.

فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام، فقس على هذا ذنوب الأحوال، فإنها تختص بأربابها، ويعرفها أصحابها. وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطئ والوسادة ولا يعاقبُ بالاحتلام إذا كان عالما ذا نية يعرف مداخل الأمور ومخارجها، وكم من نائم يسبق القائم لوفر علمه وحسن نيته.

وفى الخبر: «إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة، وإن توضأ انحلت أخرى، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس».

وفى خبر آخر «إن من نام حتى يصبح بال الشيطان فى أذنه».

والذى يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بأمور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا، وإتعاب الجوارح، والامتلاء من الطعام، وكثرة الحديث، واللغو واللغط وإهمال القيلولة. والموفق من يغتنم وقته، ويعرف داءه ودواءه، ولا يهمل فيهمل.



الباب التاسع والأربعون
فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾[١] اجمع المفسرون على أن احد الطرفين أراد به الفجر، واختلفوا فى الطرف الآخر.

قال قوم: أراد به المغرب، وقال آخرون: صلاة العشاء. وقال قوم: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفا من الليل: صلاة العشاء.

ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها، وقال ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[٢] اى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر، فأتت امرأة تبتاع تمرا، فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه، فهل لك فيه رغبة؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، ثم أتى النبى عليه السلام وقال يا رسول الله ما تقول فى رجل رواد امرأة عن نفسها ولم يبق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها؟

قال عمر بن الخطاب: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك. ولم يرد رسول الله ﷺ عليه شيئا، وقال: انتظر أمر ربى، وحضرت صلاة العصر، وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر، فلما فرط أتاه جبريل بهذه الآية، فقال النبى عليه السلام: أين أبو اليسر؟ فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، قال «شهت معنا هذه

---

(١) سورة هود: آية ١١٤.
(٢) سورة هود: آية ١١٤.

الصلاة»؟ قال: نعم، قال: «اذهب فإنها كفارة لما عملت» فقال عمر: يا رسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل، ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن، ثم يصلى ركعتى الفجر، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وفى الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وإن أراد قرأ فى الأولى ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾[1] الآية فى سورة البقرة، وفى الأخرى ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾[2].

ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما تيسر له من العدد، وإن اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى، أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار.

ثم يقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعثى، وترد بها الفتن عنى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتلقنى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء.

اللهم أعطنى إيمانا صادقا، ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٣٦.
(٢) سورة آل عمران: آية ٥٣.

اللهم إنى أنزل بك حاجتى، وإن قصر رأيى، وضعف عملى، وافتقرت إلى رحمتك، وأسألك يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور.

اللهم ما قصر عنه رأيى، وضعف فيه عملى، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى، من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فأنا راغب إليك فيه، وأسألك إياه يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وسلما لأوليائك، نحب بحبك الناس، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء منى ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد.

أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، سبحان من تعطف بالعز وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحان ذى الفضل والنعم، سبحان ذى الجود والكرم.

سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه. اللهم اجعل لى نورا فى قلبى، ونورا فى قبرى، ونورا فى سمعى، ونورا فى بصرى، ونورا فى شعرى، ونورا فى بشرى، ونورا فى لحمى، ونورا فى دمى، ونورا فى عظامى، ونورا من بيدى ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى، ونورا من فوقى، ونورا من تحتى، اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا.

ولهذا الدعاء أثر كبير، وما رأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه

منقول عن رسول الله ﷺ انه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر، ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة.

ويقول عند خروجه من منزله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝﴾[1].

ويقول فى الطريق: ((اللهم إنى اسالك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاى هذا إليك، لم اخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، اسالك ان تنقذنى من النار، وأن تغفر لى ذنوبى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)).

وروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال ((من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين الف ملك يستغفرون له، واقبل الله تعالى عليه بوجه الكريم حتى يقضى صلاته)).

وإذا دخل المسجد، أو دخل سجادته للصلاة يقول: بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك، ويقدم رجله اليمنى فى الدخول، واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجاد. فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد.

ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة، فإذا سلم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن.

لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ويقرا هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها، فإذا فرط منها يقول: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم أنت

---

(١) سورة آل عمران: آية ٥٢.

السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، ولا تسئ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني.

اللهم هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني، وزكها وضعفها، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود. رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا.

اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق منك بخير يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وأعوذ بك أن أزل أو أزل، أو أضل أو أضل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي، عز جارك وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، وعظمت نعماؤك.

أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، أعوذ بك من حدة الحرص، وشدة الطمع، وسورة الغضب، وسنة الغفلة، وتعاطي الكلفة.

اللهم إني أعوذ من مباهاة المكثرين، والإزراء على المقلين، وأن أنصر ظالما، أو أخذ مظلوما، وأن أقول في العلم بغير علم، أو عمل في الدين بغير يقين.

اعوذ بك ان اشرك بك وانا اعلم، واستغفرك لما لا اعلم، اعوذ بعفوك من عقابك، واعوذ برضاك من سخطك، واعوذ بك منك، لا احصى ثناء عليك، انت كما اثنيت على نفسك.

اللهم انت ربى لا إله إلا انت، خلقتنى وانا عبدك وابن عبديك، وعلى عهدك ووعدك ما استطعت، اعوذ بك من شر ما صنعت، ابوء بنعمتك على، وابوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا انت.

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا، وآخرها نجاحا، واوسطه فلاحا. اللهم اجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة. اصبحنا واصبح الملك لله، والعظمة والكبرياء لله، والجبروت والسلطان لله، والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار، اصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وملة ابينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين.

اللهم إنا نسالك بأن لك الحمد لا إله إلا انت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، انت الأحد الصمد، الذى لم يلد لم يولد ولم يكن له كفوا احد، يا حى يا قيوم، يا حى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه.

يا حى محيى الموتى، يا حى مميت الأحياء، ووارث الأرض والسماء. اللهم إنى أسالك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم. اللهم إنى أسالك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم، الذى إذا دعيت به اجبت، وإذا سئلت به أعطيت، يا نور النور، يا مدبر الأمور، يا عالم ما فى الصدور، يا سميع يا قريب، يا مجيب الدعاء، يا لطيفا لما يشاء، يا رءوف يا رحيم.

يا كبير يا عظيم، يا الله يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام. الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم. وعنت الوجوه للحى القيوم. يا إلهى وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت.

اللهم إنى أسألك باسمك يا الله الله الله الله الذى لا إله إلا هو رب العَرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وسعت كل شيء رحمة وعلما. كهيعص، حم، عسق، الر، حم، ن، يا واحد يا قهار، يا عزيز يا جبار، يا أحد يا صمد، يا ودود يا غفور.

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين.

اللهم إنى أعوذ باسمك المكنون المخزون، المنزل السلام الطهر الطاهر القدوس المقدس، يا دهر يا ديهور، يا ديهار، يا أبد، يا أزال، يا من لم يزل ولا يزال ولا يزول، هويا هو لا إله إلا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبل كل كون، يا كائن بعد كل كون.

يا مكونا لكل كون أهيا أشراهيا أدوناى أصبؤت يا مجلى عظائم الأمور، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على ابراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينْفع، وقلبٍ لا يخشع، ودعاء لا يسمع، اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الدجال، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات.

اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت، وشر ما لم أعلم.

واعوذ بك من شر سمعي وبصري، ولساني وقلبي، اللهم إني اعوذ بك من القسوة والغفلة، والذل والمسكنة، واعوذ بك من الفقر والكفر، والفسوق والشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق، وضيق الأرزاق، والسمعة والرياء، واعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسائر الأسقام.

اللهم إني اعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحويل عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك. اللهم إني اسألك الصلاة على محمد وعلى آله، واسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم اعلم، واعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم اعلم، واسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، واعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، واسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ واستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ واسألك ما قضيت لي من امر ان تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا ارحم الراحمين يا قيوم برحمتك استغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، واصلح لي شأني كله.

يا نور السموات والأرض، يا جمال السموات والأرض، يا عماد السموات والأرض، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا صريخ المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا منتهى رغبة الراغبين، والمفرج عن المكروبين، والمروح عن المغمومين، ومجيب دعوة المضطرين، وكاشف السوء، وارحم الراحمين، وإله العالمين، منزول بك كل حاجة يا ارحم الراحمين.

اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واقلني عثراتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، واعوذ بك ان اغتال من تحتي.

اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي، وخذ إلى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضائي. اللهم إني ضعيف فقوني، اللهم إني ذليل فاعزني، اللهم إني فقير فاغنني برحمتك يا ارحم الراحمين.

اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى، فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى.

اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا، حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى، والرضا بما قسمت لى، يا ذا الجلال والإكرام.

الهم يا هادى الضلين، ويا راحم المذنبين، ومقيل عثرة العاثرين، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين آمين يا رب العالمين.

اللهم عالم الخفيات، رفيع الدرجات، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذا الطول، لتا إله إلا هو، أنت الوكيل وإليك المصير. يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات، ويا من لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك، وحلاوة رحمتك.

اللهم إنى أسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا، وعملا متقبلا، أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد، وأسألك حبك، وحب من أحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك.

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على خلقك، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى. أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة.

اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك، ومن طاعتك ما يدخلنى جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد، وسرور رجاء الموعود، حتى نجد لذة ما نطلب، وخوف ما منه نهرب.

اللهم البس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحا، واسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وداء الشكر بحسن العبادة.

اللهم إنى أسألك بركة الحياة، وخير الحياة، وأعوذ بك من شر الحياة، وشر الوفاة، وأسألك خير ما بينهما، أحينى حياة السعداء، حياة من تحب بقاءه، وتوفنى وفاة الشهداء، وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرازقين، وأحسن التوابين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، ورب العالمين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم ما خلقت، واغفر ما قدرت، وطيب ما رزقت، وتمم ما انعمت، وتقبل ما استعملت، واحفظ ما استحفظت، ولا تهتك ما سترت، فإنه لا إله إلا أنت، استغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومنك ل شغل بغير معاملتك.

اللهم إنى استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه. اللهم إنى استغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به.

اللهم إنى استغفرك من كل نعمة انعمت بها على فقويت بها على معصيتك.

اللهم إنى استغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك.

اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه.

اللهم احفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عما نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكر الذاكرين، ويا شاكر الشاكرين، بذكرك ذكروا، وبفضلك شكروا، يا غياث يا مغيث يا مستغاث، يا غياث المستغيثين لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فاهلك، ولا إلى أحد من خلقك فاضيع، أكلأني كلاءة الوليد، ولا تحل عني، وتولني بما تتولى به عبادك الصالحين.

أنا عبدك وابن عبدك، ناصيتي بيدك، جار في حكمك، عدل في قضاؤك، نافذ في مشيئتك، إن تعذب فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاي يا الله يا رب ما أنت له أهل، ولا تفعل اللهم يا رب يا الله ما أنا له أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك، يا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين والحقني بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة، والعصمة من المعصية، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإيذاع الشكر في النعمة، أسألك حسن الخاتمة.

وأسألك اليقين، وحسن المعرفة بك، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك، وأسألك حسن المنقلب إليك.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرج عن امة محمد فرجا عاجلا.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

اللهم اغفر لى ولوالدى ولمن تولدا وارحمهما كما ربيانى صغيرا، واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، يا أرحم الراحمين، يا خير الغافرين.

ولما كان الدعاء مخ العبادة، أحببنا أن نستوفى من ذلك قسما صالحا نرجو بركته.

وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتاب قوت القلوب، وعلى نقله كل الاعتماد، وفيه البركة.

فليدع بهذه الدعوات منفردا أو فى الجماعة إماما أو ماموما ويختصر منها ما يشاء.

الباب الخمسون
فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة، إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه، لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شئ. فإن السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب.

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك . ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون، والآيتين وإلهكم إله واحد، وآية الكرسى، والآيتين بعدها، وآمن الرسول، والآية قبلها، وشهد الله، وقل اللهم مالك الملك، وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض إلى المحسنين، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر.

وقل ادعوا الله الآيتين، وآخر الكهف من إن الذين آمنوا، وذا النون إذ ذهب مغاضباً إلى خير الوارثين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، سبحان ربك إلى آخر السورة.

ولقد صدق الله، وأول سورة الحديد إلى بذات الصدور، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين، وهكذا يحمد مثله، ويكبر مثله، ويتمها مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جداً، فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائماً مستقبل القبلة.

فإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة، يتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة، ففي إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة.

وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصي به الطالبين، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر .

وهذا الوقت أول النهار، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبنى أوقات النهار جميعاً على هذا البناء.

فإذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر، وهي من تعليم الخضر عليه السلام، علمها إبراهيم التيمي، و ذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ ، وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق في الأذكار والدعوات وهي عشرة أشياء، سبعة الفاتحة ، والمعوذتان، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والصلاة سبعاً.

اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم، جواد كريم، رءوف رحيم .

وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة.

وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم، وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة .

فإذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

روى عن رسول الله ﷺ انه قال « لأن اقعد فى مجلس اذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس احب إلى من ان اعتق أربع رقاب » .

ثم يصلى ركعتين قبل ان ينصرف من مجلسه، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يصلى الركعتين، وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت.

وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه اثرا ونورا وروحاً وانساً إذا كان صادقاً، والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا .

واحب ان يقرأ فى هاتين الركعتين فى الأولى آية الكرسى وفى الأخرى آمن الرسول، والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية، وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته.

ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيها فى كل ركعة سورة، وتكون صلاته هذه ليستعذ بالله تعالى من شر يومه وليلته، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك.

وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار، إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ويقول بعد الركعتين الأوليين : اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما اكره، ولا أملك نفع ما ارجو، واصبحت مرتهناً بعملى، واصبح امرى بيد غيرى، فلا فقير افقر منى، اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تسئ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى.

اللهم إنى اعوذ بك من الذنوب التى توبل النعم، واعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم .

ثم يصلى ركعتين اخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق، وإلا فالاستخارة التى وردت بها الأخبار هى التى يصليها اما كل أمر يريده.

ويقرأ فى هاتين الركعتين: "قل يا ايها الكافرون"، وقل هو الله أحد، ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره فى غير هذا الباب، ويقول فيه كل قول وعمل أريده فى هذا اليوم اجعل فيه الخيرة .

ثم يصلى ركعتين اخريين يقرأ فى الأولى سورة الواقعة، وفى الأخرى سورة الأعلى، ويقول بعدها: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك احب الأشياء إلى، وخشيتك أخوف الأشياء عندى، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك.

وإذا اقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فاقرر عينى بعبادتك، واجعل طاعتك فى كل شئ منى يا أرحم الراحمين .

ثم يصلى بعد ذلك ركعتين، يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن .

ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل فى الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى، وإن كان ممن له فى الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل، وهكذا ينبغى ان يفعل أبدا، لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد ان يصلى ركعتين لقيه الله سوء المخرج.

ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل، بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها، وإن لم يكن فى البيت أحد يسلم ايضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين .

وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله فى هذا الوقت إلى الصلاة صلاة الضحى، فإن كان عليه قضاء صلى صلاته يوم أو يومين أو أكثر، وإلا يصلى ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن.

فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١] وامثال هذه الاية يقرأ فى كل ركعة آية منها، إما مرة أو يكررها مهما شاء .

ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة، وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة ركعة.

ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى.

قال سهل بن عبد الله التسترى: لا يكمل شغل قلب عبد الله الكريم وله فى الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس، وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصل الضحى، فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى. قال رسول الله ﷺ« صلاة الضحى إذا رمضت الفصال، وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس.

وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بح الشمس. وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر.

---

(١) سورة الممتحنة: آية رقم : ٤ .

ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضي مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضي فيه، وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا وباطناً، وقلباً وقالباً، وإلا فباطناً. وترتيب ذلك انه يصلى ما دام منشرحاً ونفسه مجيبة.

فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة، فإن مجرد التلاوة اخف على النفس من الصلاة .

فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان، فهو اخف من القراءة .

فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة، والمراقبة علم القلب ينظر الله تعالى إليه، فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب، والمراقبة عين الذكر وافضله.

فإن عجز عن ذلك أيضاً وتملكه الوساوس وتزاحم في باطنه حديث النفس فلينم ففي النوم السلام، وإلا فكثرة حديث النفس تقسي القلب ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك .

قال سهل بن عبد الله : اسوأ المعاصي حديث النفس .

والطالب يريد ان يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى وراى وسمع كشخص آخر في باطنه، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية، كما يقيد الظاهر بالعمل وانواع الذكر .

ويمكن للطالب المجد ان يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة اخرى، واقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة، أو يقرأ في كل ركعتين جزءا من القرآن أو اقل او اكثر.

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن .

قال سفيان: كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة .

وهذا النوم فيه فوائد، منها أنه يعين على قيام الليل .

ومنها أن النفس تستريح ويصفو النهار لبقية النهار والعمل فيه، والنفس إذا استراحت عادت جديدة. فبعد الانتباه من نوم النهار تجد في الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار.

فيكون للصادق في النهار نهاران يختتمهما بخدمة الله تعالى و الدؤب في العمل .

وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أو مسبحاً أو تالياً.

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾[1] وقال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[2]

قيل : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾[3] أراد العشاء الأخير

« وأطراف النهار » أراد الظهر والمغرب، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب، فصار الظهر آخر الطرف الأول، والمغرب آخر الطرف الآخر،

---

(١) سورة هود : آية رقم : ١١٤ .
(٢) سورة طه : آية رقم : ١٣٠ .
(٣) سورة الأعراف: آية رقم : ١٥٥ .

فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول، وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل.

ويصلي في أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمه واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها، ويحتاج أن يراعي لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء، فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة.

ثم يستعد لصلاة الظهر، فإن وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه، ولا يشرع في صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حالة من الصفاء. والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس في الصلاة، يتكدرون بيسير من الاسترسال في المباح، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر.

وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة وا لمجالس مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى.

ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولدان أن يكون في مجالسته غير راكن إليهم كل الركون، بل يسترق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة إلا أن يكون قوي الحال لا يحجبه الخلق عن الحق، فلا ينعقد على باطنه عقدة، فهو كما يدخل في الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا بروح قلبه، لأنه يجالس

ويخالط، وعين ظاهرة ناظرة إلى الخلق، وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية، فلا ينعقد على باطنه عقدة .

وصلاة الزوال التى ذكرناها تحل العقد، وتهيئ الباطن لصلاة الظهر، فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة فى النهار الطويل، وفى القصير ما يتيسر من ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[1].

وهذا هو الإظهار، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن، وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر .

ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسى، ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثاً وثلاثين كما وصفنا، ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضاً كان ذلك خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً. ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئاً لله تعالى .

ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشائين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة.

ومن دام سهره ينام نومه خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر، ولو أحيه بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير.

وإن أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة فى كل ركعة خمسين، ويستاك قبل الزوال إذا كان صائماً، وإن لم يكن صائماً فأى وقت تغير فيه الفم .

---

(١) سورة الروم: آية رقم : ١٨ .

وفى الحديث «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» وعند القيام إلى الفرائض يستحب.

قيل: إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا.

وقيل : هو خبر، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ فى الركعة الأولى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ ﴾(١).

ثم فى الثانية ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ ﴾(٢).

ثم ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ ﴾(٣) إلى آخر السورة.

ثم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا ﴾ الآية، ثم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾(٤) الآية.

ثم ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ ﴾(٥)، ثم ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ﴾(٦).

ثم ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ ﴾(٧) .

ثم ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ ﴾(٨) الآية .

ثم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤ ﴾(٩).

---

(١) سورة البقرة: آية رقم : ٢٠١ .
(٢) سورة البقرة : آية رقم : ٢٥٠ .
(٣) سورة البقرة: آية رقم : ٢٨٦ .
(٤) سورة آل عمران : آية رقم : ١٩٣ .
(٥) سورة آل عمران: آية رقم : ٥٣ .
(٦) سورة الأعراف: آية رقم : ١٥٥ .
(٧) سورة يوسف : آية رقم : ١٠١ .
(٨) سورة إبراهيم : آية رقم : ٣٨ .
(٩) سورة طه : آية رقم : ١١٤ .

ثم ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾[1].

ثم ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾[2].

ثم ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[3].

ثم ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا ﴾[4].

ثم ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[5].

ثم ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[6].

ثم ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ الآية من سورة الأحقاف.

ثم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ ﴾[7] الآية.

ثم ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾[8].

ثم ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾[9].

مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواطئاً للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان. ولو ردد فرد آية

---

(١) سورة الأنبياء : آية رقم : ٨٧ .
(٢) سورة الأنبياء: آية رقم : ٨٩ .
(٣) سورة المؤمنون : آية رقم : ١١٨ .
(٤) سورة الفرقان : آية رقم : ٧٤ .
(٥) سورة النمل : آية رقم : ١٩ .
(٦) سورة غافر : آية رقم : ١٩ .
(٧) سورة الحشر: آية رقم : ١٠ .
(٨) سورة الممتحنة: آية رقم : ٤ .
(٩) سورة نوح : آية رقم : ٢٨ .

من هذه فى ركعتين من الظهر أو العصر كان فى جميع الوقت مناجياً لمولاه وداعياً وتالياً ومصلياً .

والدأب فى العمل واستيعاب أجراء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى، والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا، وانتزع منه متابعة الهوى.

ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه فى العمل، بل ينشط وقتاً ويسام وقتاً، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا.

وإذا صح فى الزهد والتقوى فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب، فمن رام دوام الروح و استحلاء الدؤب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى، والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعته. والنبى عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته، فقال: « أعوذ بك من هوى متبع »

ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس، ولكن استعاذ من طاعته فقال «وشح من طاع » .

ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال، فقد يكون متبعاً للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم.

وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والأكل وغير ذلك من اقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا..

ثم يصلى العبد قبل العصر اربع ركعات، فإن امكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل واتم، ولو اغتسل كان افضل.

فكذلك له اثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة..

ويقرأ فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والعاديات والقارعة والهاكم، ويصلى العصر، ويجعل من قراءته فى بعض الأيام والسماء ذات البروج، وسمعت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل، ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك.

فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة، وبقى الأذكار والتلاوة، وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المريدين.

فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار، وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتراوح بالتنفل فى أنواع الأذكار، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه فى أول النهار.

ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر و أجازه المشايخ والصالحون .

ويقول كلما خرج من منزله بسم الله حسبى الله لا قوة إلا بالله، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين، ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة، فإن القليل بحسن النية كثير .

وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبه واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير .

وجاء فى الخبر: كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته .

ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، فقد ورد عن رسول الله ﷺ ان من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب ،

وكتبتله مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت حد بافضل مما جاء إلا أحد عمل اكثر من ذلك .

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة: سبحان الله والحمد لله، الكلمات.

ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده استغفر الله.

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

ومائة مرة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد.

ومائة استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم واساله التوبة.

ومائة مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

ورايت بعض الفقهاء من المغرب بمكة وله سبحة فيها الف حبة فى كيس له ذكر أن ورده أن يديره كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة .

ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين الفا بين اليوم والليلة وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح: سبحان الله العلى الديان، سبحان الله شديد الأركان.

سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار، سبحان من لا يشغله شان عن شان، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال على شاطئ البحر فسمع فى هذه الليلة: هذا التسبيح فقال من الذى اسمع صوته ولا ارى شخصه؟

فقال: انا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر، اسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت.

فقلت: ما أسمك؟ فقال: مهليهيانيل، فقلت: ما ثواب هذا التسبيح؟

قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1].

فقال: سألتنى عن شئ عظيم ما سألنى غيرك، هو لا إله إلا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولاقوة إلا بالله، وأستغفر الله الأول والآخر الظاهر الباطن، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال.

فأول خصلة أن يحرس من إبليس وجنوده.

الثانية أن يعطى قنطارا من الأجر.

الثالثة يرفع له درجة فى الجنة.

الرابعة يزوجه الله من الحور العي.

الخامسة أثنا عشر ملكاً يستغفرون له.

السادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر.

---

(١) سورة الزمر: آية رقم: ٦٣.

ويقول أيضاً في هذا الوقت وفي أول النهار: اللهم انت خلقتني، وانت هديتني، وانت تطعمني، وانت تسقيني، وانت تميتني، وانت تحييني،انت ربي لا رب لي سواك، ولا إله إلا انت وحدك لا شريك لك، ويقول ما شاء الله لاقوة إلا بالله.

ما شاء الله كل نعمة من الله، ماشاء الله الخير كله بيد الله، ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ويقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة، ويقرا المسبعات قبل الغروب، ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو التسبيح والاستغفار.

ويقرا عند الغروب أيضاً والشمس والليل والمعوذتين، ويستقبل الليل كما استقبل النهار. قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾[1].

فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغي أ يكون العبد بين الذكر والشكر، يعقب أحدهما الآخر.

ولا يتخللها شئ، كما لا يتخلل بين الليل والنهار شئ. والذكر جميعه أعمال القلب، والشكر أعمال الجوارح. قال الله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[2] والله الموفق والمعين .

---

(١) سورة الفرقان ، آية رقم ٦٢.
(٢) سورة سبأ ، آية رقم : ١٣ .

الباب الحادي والخمسون
في آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب، وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾[1].

روى عن عبد الله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله ﷺ من بني تمتم، فقال أبو بكر: أمر القمقاع بن معبد، وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتها، فأنزل الله تعالى: : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما، لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه.

وقال جابر: كان ناس يضحون قبل رسول الله، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله ﷺ .

وقيل : كان قوم يقولون، لو أنزل في كذا وكذا، فكره الله ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها، أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم.

وقال الكلبي : لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به .

وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة .

---

(١) سورة الحجرات ، آية رقم ١ .

وقيل: لا تقدمكوا ولا تمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى ابو الدرداء قال: كنت امشى امام ابى بكر، فقال لى رسول الله ﷺ تمشى امام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟

وقيل : نزلت فى اقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شئ خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك .

وهكذا ادب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت، ولا يقول شيئاً بحضرته من كلام حسن إلا إذا استامر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له فى ذلك .

وشان المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقاً يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله.

وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب، والاستزادة إلى مقام إثبات شئ لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حالة يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد.

لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين برفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنكطق ماخوذين إلى مهم الوقت من احوال الطالبين المحتاجين الى ما يفتح به عليه.

لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله، والقول كالبذر يقع فى الأرض، فإذا كان البذر فاسداً لا ينبت، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها.

فالشيخ ينفى بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه إلى الله، ويسأل الله المعونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق .

فالشيخ للمريدين امين الإلهام كما أن جبريل أمين الوحى، فكما لا يخون جبريل فى الوحى لا يخون الشيخ فى الإلهام، وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ وظاهراً وباطناً، لا يتكلم بهوى النفس.

وهوى النفس فى القول بشيئين:

احدهما: طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه، وما هذا من شأن الشيوخ.

والثانى: ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب، وذلك خيانة عند المحققين. والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس، تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك، فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب.

فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعاً كاحد المستمعين

وكان الشيخ ابو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه، وكان يقول: انافى هذا الكلام مستمع كاحدكم، فاشكل ذلك على بعض الحاضرين.

وقال: إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه، فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام كأن قائلاً يقول له:

أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر ويجمع الصدف فى مخلاته والدر قد حصل معه، لكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل. ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك .

فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلاً .

وقيل أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[1] لاتطلبوا منزله وراء منزلته. وهذا من محاسن الآداب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية، ويتمنى للشيخ عزيز المنبح وغرائب المواهب.

وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة، وهذا يعز فى المريدين، فإرادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه، ويكون قائماً بآداب الإرادة .

قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل .

وقال أبو عبد الله بن حنيف: قال لى رويم: يا بنى اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً .

وقيل : التصوف كله أدب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول .

ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات : آية رقم ١ .

(٢) سورة الحجرات : آية رقم ٢ .

كان ثابت بن قيسبن شماس فى أذنه وقر، وكان جمهورى الصوت، فكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته.

وربما كان يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فيتاذذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

اخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبة الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن المثنى.

قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل قا حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجمحى قال حدثنى حايس بن أبى مليكة قال حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على ﷺ .

فقال أبو بكر استعمله على قومه، فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله فتكلما عند النبى ﷺ حتى علت أصواتهما.

فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى، وقال عمر ما أردت خلافك، فأنزل الله تعالى الاية، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبى ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم

وقيل : لما نزلت الاية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبى إلا كاخ السرار.

فكهذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ.

فرفع الصوت نتيجة جلبات القلب الوقار، والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول .

وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ. وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقاً.

وكنت أتمنى العرق لتخفف الحمى، فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي، ويكون في قدومه بركة وشفاء .

وكنت ذات يوم في البيت خالياً، وهناك منديل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به، فوقع قدمي على المنديل اتفاقاً، فتألم باطني من ذلك وهالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ، وانبعث من باطني من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾ زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة .

وقال سهل في ذلك : لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تبداوه الخطاب، ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة، ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[1]، أي لا تغلظوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن فخموه واحترموه، وقولوا له يا نبي الله ، يا رسول الله.

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب .

ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج، وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة، وهي تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها، فإذ امتلأ القلب حرمة ووقاراً يعلم اللسان العبارة .

---

(١) سورة الحجرات : آية رقم : ٢ .

وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى، فمر به عاصم بن عدة فقال: ما يبكيك يا ثابت؟

قال: هذه الآية اتخوف ان تكون نزلت فى ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [1] وانا رفيع الصوت على النبى ﷺ اخاف ان يحبط عملى واكون من اهل النار.

فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء، فاتى إمراته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول، فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفته.

وقال لا اخرج حتى يتوفانى الله او يرضى عنى رسول الله ﷺ ، فلما أتى عاصم النبى واخبره بخبره، فقال اذهب فادعه، فجاء عاصم إلى المكان الذى رآه فلم يجده، فجاء إلى اهله فوجده فى بيت الفرس، فقال له إن رسول الله يدعوك، فقال اكسر الضبة، فاتيا رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا ثابت؟

فقال: أنا صيت واخاف ان تكون هذه الآية نزلت فى ، فقال له رسول الله : اما ترضى أن تعيش عيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا ارفع صوتى ابداً على رسول الله، فأنزل الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [2].

قال أنس: كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين ايدينا، فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم، فقال اف لهؤلاء وما يصنعون.

---

(١) سورة الحجرات ، آية رقم ، ٢ .
(٢) سورة الحجرات ، آية رقم ، ٣ .

ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليه درع، فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام، فقال له أعلم ان فلاناً رجلاً من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيه وقد وضع على درعى برمة.

فات خالد بن الوليد فاخبره حتى يسترد درعى، وات ابا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له إن على ديناً حتى يقضى عنى، وفلان من عبيدى عتيق، فاخبر الرجل خالدا فوجد الدرع والفرس على ما وصفه، فاسترد الدرع، واخبر خالد ابا بكر بتلك الرؤيا فأجاز ابو بكر وصيته.

قال مالك بن أنس رضى الله عنهما: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه . فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم ان الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله، وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ، واعتمده مع رسول الله ﷺ.

فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1].

اى اختبر قلوبهم واخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصة، وكما ان اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب، فهكذا ينبغى ان يكون المريد مع الشيخ.

قال ابو عثمان: الأدب عند الأكابر، وفى مجالسة السادات من الأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير فى الأولى والعقبى، الا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات : آية رقم : ٣ .

(٢) سورة الحجرات : آية رقم : ٥ .

ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاؤا إلى رسول الله ﷺ فنادوا يا محمد اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين، قال فسمع رسول الله ﷺ فخرج إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى ذمه شين ومدحه زين، فى قصة طويلة.

وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم، فغلبهم حسان ابن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة.

وفى هذا تأدب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه، وتركه الاستعجال، وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته.

وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ، فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبيه، فتكتفى معه بموافقة القلوب وتقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر.

وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يعرف حقه من الظاهر اُستوحش، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ.

---

(١) سورة الحجرات : آية رقم : ٤ .

قيل لأبى منصور المغربى: كم صحبت ابا عثمان ؟ قال: خدمته لا صحبته، فالصحبة مع الإخوان والأقران، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى.

وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره . فما ينكره المريد لقلة علمه بقيقة ما يوجد من الشيخ، فللشيخ فى كل شئ عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد، فأجابه الجنيد، فعارضه فى ذلك، فقال الجنيد: (فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) .

وقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل: من قال لأستاذه لا ، لا يفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى.

قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ " اتركونى ما تركتم ، وإذا حدثتكم فخذوا منى، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " .

قال الجنيد رحمه الله: رأيت مع أبى حفص النيسا بورى إنساناً كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه: من هذا؟

فقيل لى: هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا، وقد أنفق عليه مائة الف درهم كانت له، واستدان مائة ألف اخرى انفقها عليه، ما يسوغ له ابو حفص ان يتكلم بكلمة واحدة.

وقال ابو يزيد البسطامى: صحبت ابا على السندى فكنت القنهُ ما يقيم فرضه، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفاً .

وقال أبو عثمان: صحبت أبا حفص وانا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى، فلم أجعل مكافاتى له على كلامه ان اولى ظهرى إليه، فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه.

واعتقدت أن أحفر لنفسى بئرا على بابه وأنزل واقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذن، فلما راى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى ان مات رحمه الله.

ومن آدابهم الظاهرة: أن المريد لا يبسط مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة، فإن المريد من شأنه التبتل لخدمة، وفى السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز .

ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز . وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقيده، واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب أن لا يكتم عن الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده، وما يظهرله من كرامة وإجابة، ويكْشف للشيخ عن حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحى من كشفه بذكره لإيماء وتعريضاً فإن المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعويضاً.

يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول . ومن الأدب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتاديبه وتهذيبه، وانه اقوم بالتاديب من غيره.

ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته، ولا ينفذ القول فيه، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته. والمحبة والتألف هو الواسطة بين المريد والشيخ.

وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال، لأن المحبة علامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال انا أبو الفضل حميد قال انا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا أنس بن أسلم قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ قال : " من علم عبداً آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لا يخذله ولا يستاثر عليه، فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام " .

ومن الأدب أن يراعى خطوات الشيخ فى جزئيات الأمور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته .

قال إبراهيم بن شيبان: كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات، وكان معه شيخ اسمه حسن، وقد صحبه سبعين سنه.

فكان إذا جرى من أحدنا خطأ، وتغير عليه حال الشيخ، نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان.

ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علمه أو سع وبابه المفتوح إلى الله أكبر، فإن كان واقعه المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له، وما كان من عند الله لا يختلف، وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ، ويكتسب المريد علماً بصحبة الوقائع والكشوف.

فالمريد لعله في واقعته يخامره كمون إرادة في النفس ، فيتشبك كمون الإرادة بالواقعة، مناماً كان ذلك أو يقظه، ولهذا سر عجيب، ولا يقوم المريد باستئصال شافة الكامن في النفس، وإذا ذكره للشيخ فما في المريد من كمون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ.

فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ، وإن كان ينزع واقعته إلى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد، ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق، وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شئ من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له، ولساع كلامه وقوله متفرغ.

فكما أن للدعاء أوقاتاً وآداباً وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعال، فللقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب.

وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ في مخاطبته فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾[1] يعني أمام مناجاتكم .

قال عبد الله بن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة ، فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك، وأمرهم أن لا ينتجوه حتى يقدموا صدقة .

---

(١) سورة المجادلة : آية رقم : ١٢ .

وقيل: كان الأغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم، فأمر الله تعالة بالصدقة عند المناجاة، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته.

فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئاً، وأما أهل اليسره فبخلوا ومنعوا، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺونزلت الرخصة، وقال تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾[1] .

وقيل: لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب فقدم ديناراً فتصدق به. وقال على : فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى .

وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية دعا علياً وقال ما ترى فى الصدقة كم تكون ؟ ديناراً قال على: لا يطيقونه، قال : كم ؟ قال على : تكون حبة أو شعيرة، فقال رسول الله ﷺ إنك لزهيد.

ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية . وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام ما نسخ والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا مطلب بن شعيب.

قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه".

فاحترام العلماء توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

---

(١) سورة المجادلة ، آية رقم : ١٣ .

الباب الثانى والخمسون
فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة

اهم الأدب أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام، محبة للاستتباع.

فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة بحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى، والنفوس محبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة، وفى الخمول السلامة.

فإذا بلغ الكتاب أجله، وتمكن العبد من حاله، وعلم بتعريف الله لإياه أنه مراد بالإرشاد والتعليم للمريدين، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه. وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه.

ويكثر اللجوء إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول: لا تكلم أحدا من الفقراء إلا فى أصفى أوقاتك، وهذه وصية نافعة.

لأن الكلمة تقع فى سمع المريد الصادق كالحبة تقع فى الأرض ، وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع، وفساد حبة الكلام بالهوى، وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم .

فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد، فيكون ناظرا إلى الله، مصغياً إليه، متلقياً ما يرد عليه، مؤدياً للأمانة فيه .

ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد، ويتفرس فيه بنور الإيمان، وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده. فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار.

ومن المريدين من يكون مستعدا صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية، ولكل من الأبرار والمقربين مباد ونهايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن، يعرف كل شخص وما يصلح له.

والعجب أن الصحراوى يعلم الأرضاى والغروس، ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعه يعلم منافع صنعته ومضارها.

حتى المرأة تعلم قطنها وما يأتى منه من الغزال ودقته وغلظته، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من كان يأمره بالاتفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة.

فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد، فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ أن يكون به خلوة خاصة، ووقت خاص، لا يسعه فيه معاناة الخلق، حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته، ولا تدعى نفسه قوة ظناً منها أن استدامه المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه، وأنه غير محتاج إلى الخلوة.

فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويداوم عليها، وأوقات يخلو فيها. فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة، قل ذلك أو أكثر ، لطف ذلك أو كثف.

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب، أتخذ ذلك رأس ماله، واغتر بطيبة قلبه، واسترسل فى المازحة والمخالطة، وجعل نفسه مناخاً للبطالين بلقمة نؤكل عنده، وبرفق يوجد منه، فيقصده من ليس قصده الدين، ولا بغيته سلوك طريق المتقين.

فافتتن وافتن، وبقى حطة القصور، ووقع فى دائرة الفتور، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى، والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه، فيكون له فى كل كلمة إلى الله رجوع، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس، واغترارهم بيسير من الموهبة، وقلة تأدبهم بالشيوخ.

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه: لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب،فتكون جلوته فى حماية خلوته، وجلوته مزيداً لخلوته.

وفى هذا سر، وذلك أن الآدمى ذو تركيب مختلف، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه متردداً بين السفلى والعلوى، ولما فيه من التغاير، له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق، ولهذا كان لكل عاقل فترة.

والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل، وتارة فى عدم الروح فى العمل، وإن لم تكن فى صورة العمل ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع

واسترواح للنفس، وركون إلى البطالة . فمن بلغ رتبة الميخة انصرف قسم فترته إلى الخلق، فافلح الخلق بقسم فترته.

وماضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين، فالمريد بعود من الفترة بقوة الشدةوحدة الطلب إلى الإقبال على الله، والشيخ بكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته. وبعود إلى اوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة، اكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته.

فيعود من الخلق إلى الخلوة، منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قادمة بحدة شغفها إلى دار القرار.

ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقى قال، كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من القراء جلوساً، فدخل الزقاق، فقام عند أسطوانه بركع، فقلنا يفرغ الشيخ منم صلاته ونقوم نسلم عليه.

فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا، فقلنا: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ، فقال: ما عذب الله قلبى بهذا قط، يعنى ما تقيدت بأن أحترم واقصد .

ومن آداب الشيوخ النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم.

قال بعضهم : إذا رأيت الفقير القه بالرفق ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه.

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركه ذلك إلى الانتفاع بالعلم، فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ التعطف على الأصحاب، وقضاء حقوقهم فـي الصحة والمرض، ولا يترك حقوقهم اعتمادا على آرائهم وصدقهم .

قال بعضهم: لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال: وافيـت مـن الحـج فـابتدأت بـالجنيد وسـلمت عليه وقلت حتى لا اشق عليه[1]، ثم أتيـت منـزلى، فلمـا صليـت الغـداة التفـت وإذا بالجنيد خلفى، فقلت يا سيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعب في المجيء إلى ههنا، فقال لى : يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلك .

ومـن آداب الشيـوخ انـهم إذا علمـوا مــن بعـض المسترشـدين ضعفـاً فـى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة أن يرفقوا به ويوقعوه على حد الرخصة.

ففى ذلك خير كثير، وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر، ثم إذا ثبت وخالط الفقراءوتدرب فى لزوم الرخصة يـدرج بـالرفق إلى أوطـان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى: كان شاب يعرف بإبراهيم الصائغ، وكان لأبيه نعمة، فانقطع إلى الصوفيـة وصحب أبا أحمد القرنسى، فربمـا كـان يقع بيد أبى أحمد شئ من الدراهم.

فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول: هذا خـرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره .

ومـن آداب الشـيوخ التـنزه عـن مـال المريـد وخدمتـه والارتفـاق مـن جانبهبوجه من الوجوه، لأنـه جاء الله تعـالى، فيجعـل نفعـه وإرشـاده خالصـاً لوجه الله تعالى، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات .

---

(١) عبارة في الأصل غير واضحة وما كتبناه يقتضيه السياق.

وقد ورد: ما تصدق متصدق بصدقة افضل من علم يبثه فى الناس .

وقد قال الله تعالى، تنبيهاً على خلوص ما لله وحراسته من الشوائب: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[1].

فلا ينبغى للشيخ ان يتطلب على صدقته جزاء إلا ان يظهر له فى شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه.

او صلاح يتراءى للشيخ فى حق المريد بذلك، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ .

قال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾[2] معنى يحفكم اى يجهدكم ويلح عليكم.

قال قتادة: علم الله تعالى ان فى خروج المال إخراج الأضغان. وهذا تاديب من الله الكريم، والأدب لله .

قال جعفر الخلدى: جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر.

فقال له الجنيد: لا تخرج من مالك كله احبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل، وتقوت بما حبست، واجتهد فى طلب الحلال، لا تخرج كل ما عندك، فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبى عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملاً تثبت .

---

(١) سورة الإنسان ، آية رقم : ٩ .
(٢) سورة محمد ، آية رقم : ٣٧ .

وقد يكون الشيخ بعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشئ يكسبه من الحال مالا يتطلع به إلى المال.

فحينئذ يجوز له ان يفسح لمريد فى الخروج من المال كما فسح رسول الله ﷺ لأبى بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ: إذا رأى من بعض المريدين مكروهاً أو علم من حاله اعوجاجاً، أو احسن منه بدعوى، أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم، وبكشف عن وجه المذمة مجملاً.

فتحصل بذلك الفائدة للكل، فهذا أقرب إلى المداورة وأكثر أثرا لتألف القلوب.

وإذا رأى من المريد تقصيرا فى خدمة ندبه إليها، تحمل تقصيره، ويعفو عنه، ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الكروخى قراءة عليه قال أنا أبو نصر الترياقى قال قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبه قال حدثنا رشدين بن سعد بن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر

قال: جاء إلى النبى عليه السلام فقال يا رسول الله: كم أعفو عن الخادم؟ قال: كل يوم سبعين مرة .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب، وأنكر وأوجب .

ومـن جملـة مـهام الآداب: حفـظ أسـرار المريديـن فيمـا يكاشـفون بـه ويمنحون من انواع المنح، فسر المريد لا يتعدى ربه وشـيخه، ثـم يحقـر الشـيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف او سماع خطاب.

او شئ من خوارق العادات، ويعرفه ان الوقـوف مع شئ مـن هـذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد، بل يعرفه ان هذه نعمـة تشـكر، ومن ورائـها نعـم لا تحصى، ويعرفـه أن شأن المريـد طلـب المنعـم لا النعمـة، حتـى يبقـى سـره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه، ولا يذيع سره.

فإذاعة الأسرار مـن ضيـق الصـدر، وضيـق الصـدر الموجب لإذاعـة السـر يوصف بـه النسـوان وضعفاء العقـول مـن الرجـال . وسـبب إذاعـة السـر أن للإنسان قوتين آخذ ومعطية.

وكلتاهمـا تتشوف إلى الفعـل المختص بـها، ولـولا ان الله تعـالى وكـل المهطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار. فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها، فيحل حال الشيوخ من إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم.

وينبغي للمريد أن يحفـظ سـره مـن بثـه، ففـي ذلـك صحتـه وسـلامته، وتـأييد الله سـبحانه وتعـالى لـه بتـدارك المريديـن الصـادقين فـى موردهـم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون
فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضى للصحبة وجود الجنسية، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف.

فالدعاء بأعم الأوصاف كميل جنس البش بعضهم إلى بعض.

والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض.

ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض .

فإذا علم هذا الأصل، وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى.

فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته، ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع.

فإن رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال.

وإن رأى أفعاله غير مسدودة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام، فقد لاح له مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد، فإنهما إذا اصطحبا ازداد ظلمة واعوجاجاً.

ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال، وحكم لنفسه بحسن الحال، طالع ذلك فى مرآة أخيه.

فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلته، والميل بطريقة واقع وله بحبه أحكام، وللنفس بسببه سكون وركون، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص.

ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية، وتلذذات جبلية، لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون .

وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية.

ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية، حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب عن بلوغ الأرب . فلينتبه الصادق لهذه الدقيقة، ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام، ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام.

قال بعضهم: هل رأيت شرا قط إلا ممن تعرف .

ولهذا المعنى: أنكر طائفة من السلف الصحبة، ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص .

وحكى عنه أنه قيل له: جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه؟ قال: لأن ألقى سبعاً ضارياً أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن أدهم.

قال: لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى، وأظهر نفسى بإظهار أحسن أحوالها، وفى ذلك الفتنة.

وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها، وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمه الله تعالى.

اخبرنا الشيخ الثقة ابو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال انا الحافظ ابو بكر محمد بن احمد قال انا ابو القاسم إسماعيل بن مسعده قال انا عمرو محمد بن عبد الله بن احمد قال انا ابو لسمان أحمد بن محمد الخطابى قال انا محمد ابن بكر بن عبد الرزاق.

قال حدثنا سليمان بن الأشعث قال حدثنا عبد الله ابن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن ابيه عن ابى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ " يوشك ان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن " .

قال الله تعالى: إخباراً عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾[1] ستظهر بالعزلة على قومه.

قيل: العزلة نوعان: فريضة وفضيلة.

فالفريضة العزلة عن الشر واهله، والفضيلة عزلة الفصول وأهله.

ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة، فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود.

قال ابو بكر الوراق: ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وما سلم إلا من جانب الخلطة .

وقيل : السلامة عشرة أجزاء، تسعة فى الصمت، وواحدة فى العزلة .

وقيل: الخلوة اصل والخلطة عارض، فليلزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة، وإذا خالط يلازم الصمت، فإنه أصل والكلام عارض.

---

(١) سورة مريم ، آية رقم ٤٨ .

ولا يتكلم إلا بحجة، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم.

والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة، والكتب بها مشحونة، واجمع الأخبار فى ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان قال حدثنا أحمد بن سلمان النجاد، قال حدثنا محمد بن يونس الكريمى، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمى، قال حدثنا مسلم ابن سالم.

قال حدثنا السرى بن يحيى، عن الحسن، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ "لتأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن حجر إلى حجر، كالثعلب الذى يروغ.

قالوا ومتى ذلك يا رسول الله؟

قال:إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزوج؟

قال: إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده.

فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته.

قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة ".

وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله، ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوناً ، فقال سبحانه وتعالى:

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد بن المسيب، وعبد الله ابن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض .

قيل: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ـ ويتصلب الباطن برزين العلم، ويتمكن الصدق بطريق هبوب الآفات، ثم التخلص منها بالإيمان.

ويقع بطريق الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب ، وتستروح الأرواح بالنشام، وتتفق فى التوجه إلى الرفيق الأعلى، وصير مثالها فى الساهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا نفردت قصرت عن بلوغ المرام .

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ "المؤمن كثير بأخيه" .

وقال الله تعالى: مخبرا عمن لا صديق له، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[3].

والحميم فى الأصل الهميم إلا أنه أبدلن الهاء بالحاء لقرب مخرجهما، إذ هما من حروف الحلق، والهميم مأخوذ من الاهتمام، أى يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بمهم الصديق حقيقة الصداقة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية رقم : ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية رقم : ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) سورة الشعراء ، آية رقم : ١٠٠ ، ١٠١ .

وقال عمر: إذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك.

وقد قال القائل:

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: يا داود مالي أراك منتبذاً وحدك؟

قال: إلهي قليت الخلق من أجلك.

فأوحى الله إليه يا داود كن يقظاناً، مرتاداً لنفسك إخواناً، وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو يقسي قلبك، ويباعدك مني.

وقد ورد في الخبر: إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، فالمؤمن آلف مألوف. وفي هذا دقيقة، وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف، فلا يكون آلفاً مألوفاً.

فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلي وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة ويقيناً، وأرزن عقلاً، وأتم أهلية واستعداداً، وكان أوفر الناس حظاً من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء، وأتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه.

وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة أكثر تبعاً، ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعاً وقال: "تناكحوا تكثروا فإني مكاثر بكم الأمم يوم الأمم".

وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ فقال "لو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ".

وإنما طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة فى أول أمره، وكان يخلو فى غار حراء، ويتحنث الليالى ذوات العدد.

وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفاً مألوفاً، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف، فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة، وهذا خطأ.

وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أول الباب أن فى الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف الأعم.

فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم، لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح، فإذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الأرواح.

إلى جنسها بالتألف الأصلى الأولى، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأروتح.

وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكملة آلفة مألوفة، فصارت العزلة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف .

ومن أدل الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة، فصارت العزلة مرغوباً فيها فى وقتها، والصحبة مرغوباً فيها فى وقتها.

قال محمد بن الحنيفة رحمه الله: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجاً .

وكان بشر بن الحارث يقول: إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه.

فالأنيس يهيئه الله للصادقين رفقاً من الله تعالى وثواباً للعبد معجلاً .

والأنيس قد يكون مفيداً يكون كالمشايخ، وقد يكون مستفيداً كالمريدين.

فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير انيس، فإن كان قاصراً يؤنسه الله بمن يتمم حاله به، وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين.

وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعمم، بل هو بالله ومن الله وفى الله . . .

روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال " المتحابون فى الله على عمود من ياقوته حمراء، فى رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضئ حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا.

فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل، فإذا أشرفوا عليهم اضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل " .

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنى أحبك فى الله، فقال له ابشر ثم ابشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: المتحابون فى الله عز وجل".

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال " يقول الله عز وجل: حقت محبتى للمتحابين فى، والمتبادلين فى، والمتصادقين فى " .

أخبرنا الشيخ ابو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قالأنا أحمد بن الحسين ابن خيرون قال انا ابو عبد الله احمد بن عبد الله المحاملى قال انا ابو القاسم عمر ابن جعفر بن محمد بن سلام قال انا ابو اسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى.

قال: حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال: "الا اخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: وما هو؟ قال: إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها هى الحالقة".

وبإسناد إبراهيم الحربى عن عبيد الله بن عمر عن ابى اسامة عن علد الله ابن الوليد عن عمران بن رباح قال: سمعت ابا مسلم يقول: سمعت ابا هريرة يقول الخبر، وفى الخبر تحذير عن البغضة، وهو أن يجفو المختلى مقتاً لهم وسوء ظن بهم، وهذا خطأ.

وإنما يريد ان يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما فى نفسه من الآفات وحذرا على نفسه من نفسه، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره.

فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد. والإشارة بالحالقة يعنى أن البغضة حالقة للدين، لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت.

واخبرنا الشيخ ابو الفتح بإسناده إلى إبراهيم الحربى، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال حدثنا ابو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان.

قال: إن لله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج، وإن من دعائه اللهم فكما الفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج الف بين قلوب بادلك الصالحين .

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ في وقته العزيز بقاب قوسين، في وقت لا يسعه فيه شئ ، للطف حال الصالحين وجدهم في ذلك المقام العزيز.

وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين، وصحبتهم لازمة، وعزيمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك .

اخبرنا رضي الدين احمدبن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعاً، قال انا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري.

قال سمعت ابا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت عبد الله بن المعلم يقول : سمعت ابا بكر التلمساني يقول: اصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

واخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب إجازة ، قال أنا عمر بن أحمد الصفار النيسابوري إجازة، قال أنا أبو بكر احمد بن خلف.

قال انا ابو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت ابا الأصفهاني يقول : سمعت أبا جعفر الحداد يقول : سمعت على بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية اله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وقد نبه القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعاني الصحبة والخلوة وفائدتها وما يحذر فيها بقوله :

وحدة الإنسان خير … من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير … من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون
فى أدب حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[١]

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٢]

وقال فى وصف اصحاب رسول الله ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٣]

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة. فمن اختار صحبة أو اخوة فادبه فى اول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع، ويسأل البركة فى الصحبة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من ابوب الجنة، وإما باباً من ابواب النار.

فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من ابواب الجنة .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤]

وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل اخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى اخوة مثل منزله، فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك.

فيقول إنى كنت أعمل لى وله، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته.

---

(١) سورة المائدة : آية رقم : ٢ .

(٢) سورة العصر: آية رقم : ٣ .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢٩.

(٤) سورة الزخرف : آية رقم : ٦٧ .

وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من أبواب النار .

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[1]

وإن كانت الآية وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقاً من غير نيه فى ذلك.

وتثبت فى أول الأمر شان ارباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار.

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس .

فالفساد بالصحبة متوقع، والصلاح متوقع، وما هذا سبيله كيف لا يحذر فى اوله، ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجوء إلى الله تعالى، وصدق الاختيار، وسؤال البركة والخيرة فى ذلك، وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل " سبعة يظلهم الله تعالى " فمنهم اثنان تحابا فى الله، فعاشا على ذلك، وماتا عليه، إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة، حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة. ومتى افسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فبها فسد العمل من الأول .

قيل: ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما .

---

(١) سورة الفرقان ، آية رقم : ٢٧ ، ٢٨ .

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة.

والأخوة في الله تعالى مواجهة، قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1]

ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءاً أو كره منه شيئاً ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه، فما واجهه بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله: ما تواخى اثنان في الله واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة في أحدهما.

فالمؤاخاة في الله أصفى من الماء الزلال، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام، والأصل في دوام صفائه عدم المخالفة .

قال رسول الله ﷺ "لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه"

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف.

فقيل له: وكيف ذلك؟

قال : لأني كنت معهم على نفسي.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي إجازة، قال أنا عمر بن أحمد الصفار، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف، قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي.

قال سمعت عبد الله الداراني قال سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل: على أي شرط أصحب الخلق؟ فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم .

---

(١) سورة الحجر: آية رقم : ٤٧ .

وبهذا الاسناد قال ابو عبد الله: لا تضيع حق اخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة: انه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر اخاه إلا بخير.

قيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكرهه، فكان يقال له استخبارا عن حالها، فيقول: لا ينبغي للرجل ان يقول في اهله إلا خيرا، ففارقها وطلقها.

فاستخبر عن ذلك فقال: إمرأة بعدت عني وليس مني في شئ كيف اذكرها؟

وهذا من التخلق باخلاق الله تعالى انه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من احدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه اولا؟

اختلف القول في ذلك .

كان ابو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه ابغضه من حيث أحببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله. قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] ولم يقل إني بريئ منكم.

وقيل: كان شاب يلازم مجالس ابي الدرداء، وكان أبو الدرداء يميزه على غيره، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه.

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٦.

فقيل له: لو ابعدته وهجرته؟ فقال: سبحان الله، لا يترك الصاحب بشئ كان منه.

قيل: الصداقة لحمة كلحمة النسب.

وقيل لحكيم مرة: ايما أحب إليك؟ اخوك او صديقك؟ فقال: إنما أحب اخى إذا كان صديقى.

وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرا وباطناً.

واما الملازمة باطناً إذا وقعت المباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل.

فمن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله، وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه.

ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده، فلا ينبغى أن يبغض، ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة، ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح.

فقد ورد أن النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال: مه، وزجرهم بقوله "ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم".

وقال إبراهيم النخعى: لا تقطع أخاك ولاتهجره عند الذنب يذنبه، فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا .

وفى الخبر: اتقوا زلة العلم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته.

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن اخ كان اخاه فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال مافعل أخى؟

فقال له: ذاك أخوه الشيطان، قال له: مه.

قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر، فقال إذا أردت الخروج فـآذنى، قـال فكتـب إليـه: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[1]

ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى، فقال صدق الله تعالى ونصح عمر، فتاب ورجع .

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يميناً وشمالاً فسأله، فقال يا رسول الله آخيت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه.

فقال يا عبد الله إذا آخيت أحداً فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولاً أعنته .

وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما: ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثاً من غير حاجة تكون له فعملت ما مكافأته فى الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص: الجليس على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له .

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان.

فإن ما كان معلولاً يزول بزوال علته، ومن لا يستند فى خلته إلى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب فى الله إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ

---

(١) سورة غافر: آية رقم ١، ٢، ٣.

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١] فقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾[٢].

اى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة، أحدهما انتزاع الحسد على شئ من أمر الدين والدنيا، والثانى: الإيثار بالمقدور.

وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلاة " المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه".

وكان يقول ابو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كلهم يرى لى الفضل عليه، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى.

ولبعضهم نظما :

تذلل لمن إن تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله

وجانب صداقة من لم يزل ... على الأصدقاء يرى الفضل له

---

(١) سورة الحشر، آية رقم : ٩.

(٢) سورة الحشر، آية رقم : ٩.

الباب الخامس والخمسون
فى آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة، فقال: حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم التغافل عن زلل الإخوان، والنصح فيما يجب فيه النصيحة، وكتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان، قال لى ميمون بن مهران: قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، فإن الصادق يحب من يصدقه، والكاذب لا يحب الناصح. قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (١) والنصيحة ما كانت فى السر .

ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان، واحتمال الأذى منهم، فبذلك يظهر جوهر الفقير .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس ابن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة.

فقال له العباس، قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده، فقال إذا لا يرده إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه.

---

(١) سورة الأعراف : آية رقم : ٧٩ .

ومن ادبهم: أن لا يرون لنفسهم ملكاً يختصون به.

قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول نعلى.

اخبرنا بذلك رضى الدين عن ابى المظفر عن والده ابى القاسم القشيرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت ابا نصر السراج يقول ذلك.

وقال احمد بن التسلانسى: دخلت على قوم من الفقراء يوماً بالبصرة فاكرمونى وبجلونى، فقلت يوماً لبعضهم: أين إزارى؟ فسقطت من أعينهم.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء:

أن تكون الخدمة والأذان له.

وان تكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده.

فقال رجل من أصحابه: انا لا اقدر على هذا.

فقال: أعجبنى صدقك.

وكان إبراهيم بن ادهم ينظر البساتين، ويعمل فى الحصاد، وينفق على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف ان كل من احتاج إلى شئ من مال اخيه استعمله من غير مؤامرة. قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [1] اى مشاع هم فيه سواء.

ومن ادبهم انهم إذا استثقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم، ويتسببون فى إزالة ذلك من مواطنهم، لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة فى الصحبة.

---

(١) سورة الشورى : آية رقم : ٣٨ .

قال ابو بكر الكتانى: صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلاً، فوهبت له شيئاً بنية ان يزول ثقله من قلبى، فلم يـزل ، فخلوت بـه يومـاً وقلت لـه: ضع رجلك على خدى، فأبى، فقلت له: لا بد مـن ذلك، ففعل ذلك، فزال ما كنت اجده فى باطنى .

قال الرقى: قصدت من الشام إلى الحجاز حتـى سالت الكتانى عن هذه الحكاية .

ومن أدبهم: تقديم من يعرفون فضله، والتوسع له فى المجلس والإيثار بالموضع .

روى ان رسول الله ﷺ كان جالساً فى صفة ضيقة، فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فأقام رسول الله ﷺ من لم يكن من أهل بدر، فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾[1] الآية.

وحكى أن على بن بندار الصوفى ورد على أبى عبد الله بن خفيف زائراً، فتماشيا، فقال له أبو عبد الله : تقدم، فقال: بأى عذر؟ فقال: بأنك لقيت الجنيد وما لقيته .

ومن أدبهم: ترك صحبة من همة شئ من فضول الدنيا. قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[2] .

ومن أدبهم: بذل الإنصاف للإخوان، وترك مطالبة الإنصاف.

قال ابو عثمان عثمان الحيرى: حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك، ولا تطمع فى ماله، وتنصفه من نفسك، ولا تطلب منه الإنصاف منه،

---

(١) سورة المجادلة : آية رقم : ١١ .

(٢) سورة النجم : آية رقم : ٢٩.

وتكون تبعاً لـه، ولا تطمع ان يكون تبعاً لك، وتسكثر ما يصل إليك منـه، وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن ادبهم في الصحبة: لين الجانب، وترك ظهور النفس بالصولة .

قال ابو على الروذبارى: الصولة على من فوقك قحة، وعلى من مثلك سوء ادب، وعلى من دونك عجز .

ومن ادبهم: أن يجرى فى كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا، وليت كان كذا، وعسى أن يكون كذا، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضاً .

ومن ادبهم فى الصحبة : حذر المفارقة، والحرص على الملازمة .

قيل: صحب رجل رجلاً ثم اراد المفارقة، فاستأذن صاحبه، فقال: بشرط أن لا تصحب احداً إلا إذا كان فوقنا، وإن كان فوقنا ايضاً فلا تصحبه، لأنك صحبتنا اولاً. فقال الرجل: زال عن قلبى نية المفارقة.

ومن ادبهم : التعطف على الأصاغر .

قيل: كان إبراهيم بن ادهم يعمل فى الحصاد، ويطعم الأصحاب، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربما كا، يتاخر فى بعض الأيام فى العمل، فقالوت ليلة: تعالوا ناكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع، فافطروا وناموا.

فرجع إبراهيم فوجدهم نياماً، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام، فعمد إلى شئ من الدقيق فعجنه، فانتبهوا وهو ينفخ فى النار واضعاً محاسنه على التراب، فقالوا له فى ذلك، فقال: لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم، فقالوا: انظروابأى شئ عاملناه، وبأى شئ يعاملنا.

ومن ادبهم: أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين؟ ولم؟ وبأى سبب؟

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال إلى أين، فلا تصحبه.

وقال آخر: من قال لأخيه اعطنى من مالك، فقال كم تريد، ما قام بحق الإخاء .

وقد قال الشاعر:

لا يسالون اخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا للإخوان .

قيل: لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال: صير أصحابى مثل المخانيث يقدم لهم الألوان.

والفتوة عندنا ترك التكلف، وإحضار ما حضر، فإن التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف، وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه.

ومن أدبهم فى الصحبة: المداراة، وترك المداهنة، وتشبه المداراة بالمداهنة، والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك، فداريته لرجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره، والمداهنة ما قصدت به شيئاً من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم فى الصحبة: رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط.

نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم: ستر عورات الإخوان .

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشف الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه.

فقال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟

قال: احدكم يسمع فى اخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها باعظم منها.

ومن ادبهم: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب، والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم .

حكى ان اخوين ابتلى أحدهما بهوى، فاظهر عليه أخاه، فقال: إنى ابتليت بهوى فإن شئت ان لا تعقد على محبتى له فافعل.

فقال: ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا ياكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه، وطوى اربعين يوماً كلما يساله عن هواه يقول: ما زال، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال، فاكل وشرب .

ومن أدبهم: أن لا يحوجوا صاحبهم إلى المداراة، ولا يلجئوه إلى الاعتذار، ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم .

قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه: شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة، او الجاك إلى اعتذار ، وتكلف له .

وقال جعفر الصادق: أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه، واخفهم على قلبى من اكون معه كما اكون وحدى .

فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة، والحكايات فى ذلك يطول نقلها.

وقد رأيت فى كتاب الشيخ ابى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئاً كثيراً، فقد أودع كتابة كل شئ حسن من ذلك .

وحاصل الجميع، أن العبد ينبغي له ان يكون لمولاه، ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه، وإذا صاحب شخصاً تكون صحبته إياه لله تعالى.

وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له في كل شئ يزيده عند الله زلفى، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علماً بمعرفة النفس وعيوبها، ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة، ويفقهه في ذلك كله.

ولا يفوته شئ مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

لكل تقصير وجد، من خبث النفس وعدم تزكيتها، وبقاء صفاتها عليه، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة، وبالتفريط أخرى، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير، ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به.

وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياء، وتفقهت وعلمت، وادت الحقوق، وقامت بواجب الآداب ، بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون
فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينبى، قال أنا كريمة المروزية، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى.

قال أخبرنا أبو عبد الله الفريرى، قال أنا أبو عبد الله البخارى، قال حدثنا عمر بن حفص، قال حدثنا أبى، قال حدثنا الأعمش قال حدثنا زيد بن وهب.

قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله، ورزقه، وشقى أم سعيد، ثم ينفتح فيه الروح، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسلق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار".

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[1].

أى حريز، لا ستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها. ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[2] قبل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه.

---

(١) سورة المؤمنون، آية رقم: ١٢، ١٣.
(٢) سورة المؤمنون، آية رقم: ١٤.

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام، والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام. وقد عظم الله تعالى شأن الروح، وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[2].

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته.

قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة.

فقال: وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان.

فمع هذه الكرامة، واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة، لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[3] الخ.

قال ابن عباس: قال اليهود للنبى عليه السلام: أخبرنا ما الروح، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد، وإنما الروح من أمر الله، ولم يكن نزل إليه فيه شئ، فلم يجبهم، فأتاه جبرائيل بهذه الآية.

وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة.

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم: ٨٥.

(٢) سورة الإسراء: آية رقم: ٧٠.

(٣) سورة الإسراء: آية رقم: ٣٥.

فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه، لا جرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطالعة إلى الفضول المتشوفة إلى المعقول، المتحركة بوضعها بالسكون فيه، والمنسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه.

وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح، تاهت فى التيه، وتنوعت أراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شئ كالاختلاف فى ما هية الروح .

ولو لزمت النفوس حدها، معترفة بعجزها، كان ذلك أجدر بها وأولى.

فأما أقاويل من ليس متمسكاً بالشرائع، فتنزه الكتاب عن ذكرها، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد، وطبعت على الفساد، ولم يصبهانور الاهتداء، ببركة متابعة الأنبياء، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[1].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[2] فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا، فأصروا على الجالات، وحجبوا بالمعقول عن المأمول.

والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوماً ويضل به قوماً آخرين، فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه. وأما المستمسكون بالشرائع، الذين تكلموا فى الروح، فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر، حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضاً، وكان الأولى الإمساك عن ذلك، والتأدب بأدب النبى عليه السلام.

وقد قال الجنيد: الروح شئ استأثر الله بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود .

---

(١) سورة الكهف : آية رقم : ١٠١ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٥.

ولكن نجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم، ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله، إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى، من غير القطع بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال ابو عبد الله النباحى: الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

وهو وإن منع عن العبارة، فقد حكم بأنه جسم، فكأنه عبر عنه.

وقال ابن عطاء: خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى: : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعنى الأرواح ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ يعنى الأجساد .

وقال بعضهم: الروح لطيف قائم فى كثيف، كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف .

وفى هذا القول نظر .

وقال بعضهم: الروح عبارة، والقائم بالأشياء هو الحق .

وهذا فيه نظر أيضاً، إلا ان يحمل على معنى الإحياء، فقد قال بعضهم: الإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخالق، وقال: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ وأمره كلامه، وكلامه ليس بمخلوق.

اى صار الحى حياً بقوله كن حياً، وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد .

فمن الأقوال مايدل على أن قائلة يعتقد قدم الروح، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه.

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله ﷺ عنه، فقال قوم: هو جبرائيل.

ونقل عن أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون الف وجه، ولكل وجه منه سبعون الف لسان، ولكل لسان منه سبعون الف لغة.

يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: أن الروح خلق من خلق الله، صورهم على صورة بنى آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح :

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان وليسوا بناس.

وقال مجاهد: الروح على صورة بني آدم لهم ايد وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة .

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى أعظم من الروح غير العرش، ولوشاء ان يبلغ السموات والأرضيين السبع فى لقمة لفعل.

صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد، وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لأحرق أهل السموات من نوره .

فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلاً وسماعاً، بلغهم عن رسول الله ﷺ ذلك.

وإذا كان الروح المسئول عنه شيئاً من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد.

فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً .

وقال بعضهم: الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الذل .

قيل : فمن أى شئ خرج؟

قال: من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه، فهى معتقة من ذل كن .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هى؟

قال: نعم. ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية حيث قالت: «بلى» والروح هى التى قام بها البدن، واستحق بها اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلاً لا حجة عليه ولا له .

وقيل: إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات، وأصفى الجواهر وأنورها، وبها تتراءى المغيبات، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق. وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار، وقابض ونازع .

وقيل: الدنيا والآخرة عند الأورواح سواء .

وقيل: الأرواح أقسام: أرواح تجول فى البرزخ، وتبصر أحوال الدنيا والملائكة، وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين، وأرواح تحت العرش، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدرها من السعى إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال: أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها إلى جسدها.

وقيل : إذا ورد على الأروح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء.

حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهرا عنه، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

وقد ورد فى الخبر عن النبى ﷺ "تعرض الأعمال يوم الأثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم".

وفى خبر آخر "إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان حسناً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا".

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان فى الجسد، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطى: لأى علة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق؟ قال: لأنه خلق روحه أولاً، فوقع له صحبة التمكن والاستقرار.

الا تراه يقول " كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد" اى لم يكن روحاً ولا جسداً .

وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة، وإبليس من نار العزة، ولهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1] ولم يدر ان النور خير من النار .

قال بعضهم: قرن الله تعالى العلم بالروح، فهي، للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء، وهذا في علم الله، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك.

والمختار عند أكثر متكلمي الإسلام: أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان، والموت بعد مهما، وأن الروح هي الحياة بعينها، صار البدن بوجودها حياً، وبالإعادة إليه في القيامة يصير حياً .

وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه: جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة، لاشتباك الماء بالعود الأخضر، وهو اختيار أبي المعالي الجويني.

وكثير منهم مال إلى أنه عرض، إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ، فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم.

لأن العرض لا يوصف بأوصاف، إذ الوصف معنى ، والمعنى لا يقوم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما. قيل: اين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال: اين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان؟

قيل له: فأين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف.

---

(١) سورة ص ، آية رقم : ٧٦ .

وقال بعضهم: إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات، لأن تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن.

وهي عند الموت شاعرة بالموت، وبعد الموت منخلية بنفسها مقهُورة، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة، وتحس بالثواب والعقاب في القبر.

وقال بعضهم: أسلم المقالات أن يقال: الروح شئ مخلوق، أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن ما دام متصلاً به، وأنه أشرف من الجسد، يذوق الموت بمفارقة الجسد، كما أن الجسد بمارقته يذوق الموت، فإن الكيفية والماهية يتماشى العقل فيهما كما يتماشى البصر في شعاع الشمس.

ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم: الموجودات محصورة: قديم وجسم وجوهر وعرض، فالروح أى هؤلاء؟

فاختار قوم منهم: أنه عرض.

وقوم منهم: أنه جسم لطيف كما ذكرنا.

واختار قوم: أنه قديم، لأنه أمر، والأمر كلام، والكلام قديم.

فما أحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله .

وكلام الشيخ أبى طالب المكى في كتابه: يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد، وهكذا النفوس، لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير، ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك، وتتحرك للشر.

ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول :

ماعندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به، إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك فأقول، والله أعلم :

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر.

والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق.

والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده.

والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب، أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر فى تجاريف العروق الضوارب.

وهذه الروح لسائر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذى قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالباً، ويتصرف بعلم الطلب فيه باعتدال مزاج الأخلاط.

ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى، وباين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلاً للنطق والإلهام.

قال الله تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[1] فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى.

وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق.

---

(١) سورة الشمس : آية رقم : ٧ ، ٨ .

وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1] فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفساً.

وتكون من سكون الروح إلى نفس القلب وعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطفية من عالم الأمر.

وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب.

فمن القلوب قلب مطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال "القلوب أربعة:

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر.

وقلب مربوط على غلافة فذلك قلب المنافق.

وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق.

فمثل الإيمن فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد. فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها".

---

(١) سورة الأعراف ، آية رقم : ١٨٩ .

والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء. ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعاد والشقاوة. والعقل جوهر الروح العلوي ولانه ولدال عليه، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد المولد البار، والزوج للزوجة الصالحة.

وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة، فمنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه إذ لا بد له منهما.

وقول القائلين وختلافهم في محل العقل، فمن قائل إن محله الدماغ.

ومن قائل إن محله القلب، كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك. وختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى. وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق.

فإذا رؤى في تدبير العاقل قيل مسكنه الدماغ.

وإذا رؤى في تدبير البار قيل مسكنه القلب. فالروح العلوي يهم بارتفاع إلى مولاه شوقا وحنونا وتنزها عن الأكوان.

ومن الأكوان القلب والنفس، فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها. وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة في العالم السفلي، وانطوى هواها، وانحسمت مادته، وزهدت في الدنيا، وتجافت عن دار الغرور، وانابت إلى دار الخلود .

وقد تخلد النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجبلي، لتكونها من الروح الحيواني الجنس، ومستندها في ركونها إلى الطبائع التي هي أركان

العالم السفلى. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[1]

فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض، انجذب إليها القلب المنكوس، انجذب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة، دون الوالد الكامل المستقيم، وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب.

لما جبل عليه من اجذب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه، وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2].

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام: أنه سأل ابنه سيمان: أين موضع العقل منك؟ قال: القلب، لأنه قلب الروح، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشى: الروح روحان، روح الحياة وروح الممات، فإذا اجتمعا عقل الجسم. وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتاً. وروح الحية مابه مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما.

وقال بعضهم: الروح نسيم طيب تكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون منها الحركة المذمومة والشهوات، ويقال: فلان حار الرأس .

وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهرمن آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها، وتبديلها، والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل.

---

(١) سورة الأعراف : آية رقم : ١٧٦ .

(٢) سورة يس : آية رقم : ٣٨ .

اخبرنا الشيخ العالم رضى الدين احمد بن إسماعيل القزوينى قال انا إجازة ابو سعيد محمد بن ابى العباس الخليلى، قال انا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال انا ابو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم.

قال انا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى، قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطينى، قال حدثنا احمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن ريد عن سعيد بن ابى هلال ان رسول الله ﷺ كان إذا قرا هذه الاية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾[1] وقف ثم قال "اللهم ات نفسى تقواها، انت وليها ومولاها، وزكها انت خير من زكاها".

وقيل: النفس لطيفة مودعة فى القالب، منها الأخلاق والصفات المذمومة، كما أن الروح لطيفة مودعة فى القلب منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما ان العين محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق.

وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة، والروح محل الأوصاف المحمودة، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين.

أحدهما: الطيش.

والثانى: الشره، وطيشها من جهلها، وشرهها من حرصها، وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال متحركة بجلتها ووضعها، وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه.

---

(١) سورة الشمس : آية رقم : ٩ .

فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر، والصبر جوهر العقل، والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر.

إذ العقل يقمع الهوى، ومن الشره يظهر الطمع والحرص، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود، فحرص على أكل الشجرة.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها بحسبه وصف .

وقيل: وصف الضعف فى الآدمى من التراب، ووصف البخل فيه من الطين، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون، ووصف الجهل فيه من الصلصال.

وقيل : قوله كالفخار، فهذا الوصف فيه شئ من الشيطنة لدخول النار فى الفخار، فمن ذلك الخداع والحيل والحسد.

فمن عرف أصول النفس وجبلاتها، عرف أن لاقدرة له عليها بالاستعانة ببارئها وفاطرها، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل.

وهو رعاية طرفى الإفرط والتفريط، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه، ويدرك صفات الشيطنة فيه، والأخلاق المذمومةوكمال إنسانيته، ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تتكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك.

فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية، والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف:

بالطمأنينة قال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة الفجر، آية رقم : ٢٧ .

وسماها لوامه قال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (١)

وسماها امارة فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (٢)

وهى نفس واحدة، ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع الطمانينة، لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح، لما منح من حظ اليقين، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب، وهى ذلك طمانينتها.

وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمانينة فهى لوامة، لأنها تعود باللائمة على نفسها، ولنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة، ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه امارة بالسوء، وإذا اقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم فهى على ظلمتها امارة بالسوء.

فالنفس والروح يتطاردان، فتارة يملك القلب دواعى الروح، وتارة يملكه دواعى النفس.

وما السر فقد شار القوم إليه، ووجدت فى كلام القوم:

أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح.

ومنهم من جعله بعد الروح واعلى منها والطف، وقلوا السر محل المشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة.

والسر لذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله، وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها، والقلب والفؤاد والعقل.

---

(١) سورة القيامة: اية رقم: ١، ٢.

(٢) سوزة يوسف: اية رقم: ٥٣.

وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف فى القول فيه.

واشار قوم إلى أنه دون الروح، وقوم إلى أنه لطف من الروح فنقول والله أعلم:

الذى سموه سرا ليس هو بشئ مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس، وإنما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس، فاخذ فى العروج إلى أوطان القرب، وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعاً إلى الروح.

فاكتسب وصفاً زائدً على وصفه، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا .

ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح، اكتسب الروح وصفاً زائدا فى عروجه، وانعجم على الواجدين فسموه سرا. والذى زعموا أنه الطف من الروح، روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه، والذى سموه قبل الروح سرا هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه.

وفى مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب، وتنخلع من وصفها، فتصير نفساً مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل، إذا صار القلب يريد ما يريده مولاه، متبرئاً عن الحول والقوة والإرادة والاختيار.

وعندها ذاق طعم صرف العبودية، حيث صار حرا عن إرادته واختياراته. وأما العقل فهو لسان الرُوح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان .

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ انه قال " اول ما خلق الله العقل، فقال له اقبل فاقبل، ثم قال له ادبر فادبر، ثم قال له اقعد فقعد، ثم قال له انطق فنطق، ثم قال له اصمت فصمت.

فقال وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ما خلقت خلقاً أحب إلى منك ولا اكرم على منك، بك اعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك اعطى، وإياك أعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب، وما اكرمتك بشئ أفضل من الصبر".

وقال عليه السلام: "لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله".

وسألت عائشة رضى الله عنها النبى ﷺ قالت: قلت يا رسول الله بأى شئ يتفاضل الناس؟ قال : بالعقل فى الدنيا والآخرة.

قالت : قلت : أليس يجزى الناس بأعمالهم؟ قال: يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل، فبقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون".

وقال عليه السلام " إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل احد إذا كان احسنها عقلاً.

قيل: وكيف يكون احسنها عقلاً؟ قال: اورعها عن محارم الله، وأحرصها على أسباب الخير، وإن كان دونه فى العمل والتطوع" .

وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتاً،فإن الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد " .

وروى عن وهب بن منبه انه قال: إنى اجد فى سبعين كتاباً أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعهما من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس فى ماهية العقل، والكلام فى ذلك يكثر، ولا نؤثر نَقل الأقاويل، وليس ذلك من غرضنا .

فقال قوم، العقل من العلوم، فإن الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل، وليس العقل جميع العلوم، فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل .

وقالوا: ليس من العلوم النظرية، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل، فهو إذا من العلوم الضرورية وليس هو جميعها، فإن صاحب الحواس المختلطة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية.

وقل بعضهم: العقل ليس من أقسام العلوم، لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلاً، ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلاً .

وقالوا: هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم.

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشيخ انه قال: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم .

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل: أنه لسان الروح، لأن الروح من امر الله، وهى المتحملة للأمانة التى ابت السموات والأرضون أن يحملنها.

ومنها يفيض نور العقل، وفى نور العقل تتشكل العلوم. فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة، ومنتصب مستقيم تارة.

فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقة فى أجزاء الكون، وعدم حسن الاعتدال بذلك، وأخطأ طريق الاهتداء.

ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب، واهتدى إلى المكون، ثم عرف الكون بالمكون مستوفي أقسام المعرفة بالمكون والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية.

فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله فى أمر دله على الإدبار عنه، فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه، وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى .

قال بعضهم: العقل على ضربين، ضرب يبصر به أمر دنياه، وضرب يبصر به أمر آخرته .

وذكر: أن العقل الأول من نور الروح، والعقل الثانى من نور الهداية.

فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم، والعقل الثانى موجود فى الموحدين، مفقود من المشركين .

وقيل: إنما سمى العقل عقلا. لأن الجهل ظلمة، فإذا غاب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا للجهل .

وقيل: عقل الإيمان مسكنه فى القلب، ومتحمله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين.

ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل، ووضع الأشياء فى مواضعها. وهذا العقل هو العقل المستضئ بنور الشرع.

لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية، ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته، واستقامة عقله بتأييد البصيرة .

فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل، والتى يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها.

والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه، ويستأثر ببعضه دون اللسان .

ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملك، والملك ظاهر الكائنات.

ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت، والملكوت باطن الكائنات، اختص بمكاشفة أرباب البصائر والعقول، دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر .

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان، عقل للهداية مسكنه فى القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد، فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثانى يدبر أمر الدنيا.

والذى ذكرناه: أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين، وإذا تفرد دبر أمرا واحدا وهو واضح وأبين .

وقد ذكرنا فى أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والأمارة ما يتنبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة، ومنفردا بوصفه تارة.

والله الملهم للصواب.



الباب السابع والخمسون
فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

اخبرنا شيخنا ابو النجيب السهروردى، قال أخبرنا ابو الفتح الهروى، قال انا أبو نصر الترياقى، قال انا ابو محمد الجراحى، قال أنا أبو العبس المحبوبى، قال انا ابو عيسى الترمذى، قال أنا ابو هناد.

قال انا ابو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمدانى، عن عبد الله بن معود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان" ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾(١).

وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء، لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه، وصلاحه وفساده، ويكون ذلك عبدا مرادا بالخطوة بصفو اليقين ومنح الموقنين.

واكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم، ومن اخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف.

لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر .

---

(١) سورة البقرة : اية رقم : ٢٦٨

ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم: لى قلب إن عصيته عصيت الله، وهذا حال عبد استقام قلبه، واستقامة القلب لطمأنينة النفس، وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب.

وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه، لأن صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية، وللذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار.

وقد ورد فى الخبر " إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تولى وخنس، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه".

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[2]

فالتقوى وجود خالص الذكر، وبها ينفتح بابه، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره، ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه.

فتصير أقواله وأفعاله ضرورة، ثم تنتقل إلى باطنه، ويظهر الباطن ويقيده عن المكاره، ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس.

قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس، ويرى الإصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه، ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء، ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر.

---

(١) سورة الزخرف: آية رقم: ٣٦ .
(٢) سورة الأعراف: آية رقم: ٢٠١ .

فإذا صار كذلك بعد الشيطان، ومثل هذا العبد يندر في حقه الخواطر الشيطانية، ولما ويكون له خواطر النفس، ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم، لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها، كمطالبات النفس بحاجاتها، وحاجاتهاتنقسم إلى الحقوق والحظوظ، ويتعين التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1] أي فتثبتوا .

وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة، حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق، فكذب عليهم ونبهم إلى الكفر والعصيان، حتى هم رسول الله ﷺ بقتالهم، ثم بعث خالداً إليهم، فسمع أذن المغرب والعشاء، ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة. فانزل الله الآية في ذلك. فظاهرالآية وسبب نزولها ظاهر، وصار ذلك تنبيهاً من الله عباده على التثبت في الأمور.

قال سهل: في هذا الآية: الفاسق الكذاب، والكذب صفة النفس، لأنها تملي أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها، فتعين التثبت عند خاطرها والقائها.

فيجعل العبد خاطر النفس نبا يوجب التثبت، ولا يستفزه الطبع، ولا يتعجله الهوى، فقد قال بعضهم: أدنى الأدب ان تقف عند الجهل، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة. ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها، وإظهار الفقر والفاقة إليه، والاعتراف بالجهل، وطلب المعرفة والمعونة منه.

فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ او طلب حق، فإن كان للحق امضاه، وإن كان للحظ نفاه.

---

(١) سورة الحجرات، آية رقم : ٦.

وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم، لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم. ثم من الناس من لايسعه فى صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ، وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله، فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب.

ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ، ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله، وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة، عالم بالإذن، فيمضى خاطر الحظ.

والمراد بذلك على بصيرة من أمره، يحسن به ذلك ويليق به، عالم بزيادته ونقصانه، عالم بحاله، محكم لعلم الحال وعلم القيم، لا يقاس على حاله، ولا يدخل فيه بالتقليد، لأنه أمر خاص لعبد خاص.

وإذا كان شان العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلصه من لمات الشيطان، تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك، وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثا، ويسقط خطر الشيطان إلا نادرا لضيق مكانه من النفس.

لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس، واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد إلى الأرض، ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه، وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه.

ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر، يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات.

وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة، وتبعد عنه خواطرها، حتى يجاوز السموات بعروج باطنه.

كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظاهره وقلبه، فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس، لتستره بأموار القرب، وبعد النفس عنه، وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا.

لأن الخاطر رسول، والرسلة إلى من بعد، وهذا قريب، وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم، بل يعود فى هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره، فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك.

وذلك أن الخواطر تستدعى وجودا، وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب، وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ حيث قال: لو دنوت أنملة لاحترقت.

قال محمد بن على الترمذى: المحدث والمكلم: إذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس.

فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان، كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء لنفس وفتنتها، ومحروس بالحق والسكينة، لأن السكينة حجاب المكلم والمحدث مع نفسه.

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى بالبصرة يقول: الخواطر أربعة: خاطر من النفس، وخاطر من الحق، وخاطر من الشيطان ، وخاطر من الملك، فأما الذى من النفس فيحس به من أرض القلب، والذى من الحق من فوق القلب، والذى من الملك عن يمين القلب، والذى من الشيطان عن يسر القلب.

والذى ذكرناه إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد، وتصفى وجوده وستقام ظاهره وبطنه، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا يأتيه

الشيطان من ناحية إلا ويبصره، فإذ اسود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان.

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ "إن العبد إذا اذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه" قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال: الحديث فى باطن الإنسان، والخيال الذى تراءى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو من القلب وليس هو من النفس.

وهذا بخلاف ما قرر، فسألته عن ذلك، فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات، وتألف وتودد، وكلما انطلقت النفس فى شئ يهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر.

فإذا عاد العبد من مواطن النفس، وقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى، أقبل القلب بالمعاتبة للنفس، وذكر النفس شيئا شيئا من فعلها وقولها، كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك، فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمعرفته من هم شان العبد، لأن لأفعال من الخواطر تنشأ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم " هو علم الخواطر، قال، لأنها أول الفعل، وبفسادها فساد فعل، وهذا لعمرى لا يتوجه، لأن رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

---

(١) سورة المطففين: آية رقم : ١٤ .

وسبب اشتباه الخواطر احد اربعة اشياء لا خامس لها.

إمـا ضعـف اليقـين، او قلـة العلـم بمعرفـة صفـات لنفـس وأخلاقـها، ومتابعـة الهـوى بخـرم قـوعـد التقـوى، أو محبـة الدنيـا جاهها ومالها، وطلـب الرفعة ومنزلة عند الناس، فمن عصم عن هـذه لأربعـة يفـرق بـين لـة ألملك ولة الشيطن، ومن ابتلـى بها لا يعلمها ولا يطلبها. وانكشاف بعض الخوطـر دون البعـض لوجـود بعض هـذه الأربعـة دون البعـض. وأقـوم النـس بتميـيز الخوطر اقومهم بمعرفـة النفس، ومعرفتها صعبـة المنـال، لا تكـاد تتيسـر إلا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على أن مـن كـان أكلـه مـن الحـرام لايفـرق بـين الإلهام والوسوسة .

وقـال ابـو علـى الدقـاق: مـن كـان قوتـه معلـوم لا يفـرق بـين الإلهـام والوسوسة.

وهـذا لا يصـح علـى الإطلاق إلا بقيـد، وذلـك أن مـن المعلـوم مـا يقسـمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه فى لأخذ منه والتقوت بـه. ومثـل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر، إنما ذلـك يقـال فـى حـق مـن دخـل فى معلوم باختيار منـه وإيثـار، لأنـه ينحجب لموضـع اختيـاره، والـذى أشـرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم .

وفرقـوا بـين هواجـس النفـس ووسوسـة الشـيطان، وقـالوا إن النفـس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتـى تصـل إلى مرادهـا، والشيطان إذا دعـا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى، إذ لاغرض له فى تخصيص بل مراده الإغـوء كيفما امكنه .

وتكلم الشيوخ فى الخاطرين إذا كانا من الحق ايهما يتبع .

قال الجنيد: الخاطر الأول لأنـه إذا بقي رجع صاحبـه إلى التـأمل، وهـذا شرط العلم .

وقال بن عطاء: الثانى أقوى لأنه ازداد قوة بالأول.

وقل أبو عبد الله بن خفيف: هما سوء، لأنهما من الحق، فلا مزيـة لأحدهما على الآخر.

قالوا: الواردات أعم من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنـوع خطاب و مطالبة، والواردات تكون تـارة خوطر، وتـارة تكون وارد سرور، ووارد حـزن، ووارد قبض، ووارد بسط.

وقيل: بنور التوحيد يقبل الخاطر من لله تعالى، وبنـور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى لنفس، وبنور الإسلام يرد على العدو.

ومن قصر عن درك حقائق الزهد، وتطلع إلى تمييز الخوطر، يـزن الخاطر أولا بميزان الشرع، فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه، وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه، فإن استوى الخاطر ان فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن من أحدهما، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون .

وقد يلم الخاطر بنشاط لنفس، والعبد يظن انـه بنهوض القلب، وقـد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس .

يقول بعضهم: منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة .

فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطرا الحق على مـن يكـون ضعيف العلم، فلا يـدرك نفـاق القلـب والخواطـر المتولـدة منـه إلا العلمـاء الراسخون، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين

واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل، وذلك لقلقة العلم بالنفس والقلب، وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقي عليه أثر من الهوى وإن دق وقل، يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر . ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم، ولا يؤاخذ بذلك، مالم يكن عليه من الشرع مطالبة، وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت.

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تنكت في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغوء والوسوسة.

وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي، أو دعوى حركة أو سكون، وهي آفة العقل ومحنة القلب، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة: جهل، أو غفلة، أو طلب فضول، ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه، فإنها ترد بخلاف مأمور، أو على وفق منهي. ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات.

وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع، يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة:إما بفرض أمر به، أو بفضل ندب إليه، وإما بمباح يعود صلاحه إليه .

وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الموجبتان للمتين.

وعندي والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس، فحركة الروح من لمة الملك، والهمة العالية من حركة الروح، وهذه

الحركة من الروح ببركة لمة الملك، وحركة النفس من لمة الشيطان، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة، وهى من شؤم لمة الشيطان.

فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم. وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحى اثر احدهما بالأخرى والمتفطن للتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب انس، ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار اللمتين.

وذكر خاطر خامس وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز واثبات الحجة على العبد، ليدخل العبد فى الشئ بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب. وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزيد العلم، ولا يبعد ان يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق. وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك، وتارة من خاطر النفس، وليس من العقل خاطر على الاستقلال، لأن العقلَ كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم، ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعى النفس تارة، وإلى دواعى الملك تارة، وإلى دواعى الروح تارة، وإلى دواعى الشيطان تارة، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة. ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمتين.

وهاتان اللمتان هما الأصل، والخاطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح، واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق. وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما

ذكرناه قبل لموضع قربه، فيكون اصل خواطر الحق لمة الملك، ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطبع، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها، فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان، فاصلها لمتان وينتجان آخرين، وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما والله أعلم .



الباب الثامن والخمسون
فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر اشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك، ووجود الاستباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشئ حالا، تراءى للبعض مقاما، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق، فالحال سمى حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته وستقراره.

وقد يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الدعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال، ثم يحول بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة، وتنقهر النفس، وتنضبط، وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة .

ثم ينازله حال المراقبة، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال.

ثم يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة، ويتدارك الله عبده بالمعونة، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المرقبة، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه، ونزل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار، ويظهر بالتجلى، ثم يصير مقاما، وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار.

ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه، كالتحقق بالفناء، والتخلص إلى البقاء، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب، وذلك أعلى فروع المشاهدة .

وقد قال رسول الله ﷺ " اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى " .

قال سهل بن عبد الله: للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهوقلب القلب وسويداؤه، والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين، وهو صقال لموضع مخصوص فيه، بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات، وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها، ونسبة هذه الحال من المشهادة كنسبة الأجر من لثوب، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا .

فالمشاهدة هى الأول والأصل يكون منه الفناء كالطين، ثم البقاء كاللبن، ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع .

ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى شرف الأحوال، وهى محض موهبة لا تكتسب، سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه، فأطلقوا القول، وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب، والأحوال السموات ومتنزل البركات، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى .

قال بعضهم: الحال هو الذكر الخفى. وهذا إشارة إلى شئ مما ذكرناه.

وسمعت المشايخ بالعراق يقولون: الحال ما من الله ، فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما من العبد، فإذا لاح للمريد شئ

من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله، وسموه حالا، إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خرسان: الأحوال مواريث الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبروق، فإن بقى فحديث النفس.

وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق، وإنما مواهب. وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب، والمواهب محفوفة بالمكاسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب، وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرقها .

وقول امير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه : سلونى عن طريق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض، إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق يكون ذلك فى بعض الأحوال، فإنها تطرق ثم تستلبها النفس، فأما على الإطلاق فلا، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء.

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت، فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر، وهى مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلفت المشايخ فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحكم حكم مقامه؟

قال بعضهم: لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه.

وقال بعضهم: لا يكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه، فينظر من مقامه العالى إلى ما دونه من المقام فيحكم أمر مقامه. والأولى أن يقال والله علم: الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه ، فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلك، ولا يضاف الشئ إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات، والأحوال مواهب يرقى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال ، فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام، وفى الزهد حال ومقام، وفى التوكل حال ومقام، وفى الرضى حال ومقام .

قال أبو عثمان الحيرى: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته. أشار إلى الرضى. ويكون منه حللا ثم يصير مقاما، والمحبة حال ومقام، ولا يزال العبد يتتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا.

قال بعضهم: الزجر هيجان فى القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة، فإذ تيقظ بصر الصواب من الخطأ .

وقال بعضهم: الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده

والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه: زجر من طريق العلم، وزجر من طريق العقل، وزجر من طريق الإيمان، فيتنازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة، فلا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما.

وهكذا فى الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا، وتقبح له الإقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة، حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده، ويصير الزهد مقامه. ولا تزال حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل، وهكذا حال الرضى حتى يطمئن على الرضى، ويصير ذلك مقامه .

وههنا لطيفة، وذلك أن مقام الرضى والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع، ولا يحكم ببقاء حال الرضى مع وجود داعية الطبع، وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع، ولكن علمه بمقام الرضى يغمر حكم الطبع، وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضى، ولكن يفقد حال الرضى، لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع، فيقال كيف يكون صاحب مقام فى الرضى ولا يكون صاحب حال فيه، والحال مقدمه المقام، والمقام أثبت ؟

نقول: لأن المقام لما كان مشوباً بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع، فحال الرضى أصلف، ومقام الرضى أمكن، ولا بد للمقامات من زائد الأحوال، فلا مقام إلا بعد سابقة حال، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال، فمنها ما يصير مقاماً، ومنها مالا يصير مقاماً، والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب فى المقام ظهر، والموهبة بطنت، وفى الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن.

فلما كان فى الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الأحوال إلى مالا نهاية لها، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاماً، ومقدورت الحق غير متناهية، ومواهبه غير متناهية، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى، ومكالمة موسى، وخلة إبراهيم عليه السلام، لطلبت ما وراء ذلك، لأن مواهب الله لا تنحصر، وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء، ولكن هذه

إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه، وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى، لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة، وقرع باب الطلب، واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام : " كل يوم لم أزدد فيه علما فلا بورك لى فى صبيحة ذلك اليوم " .

وفى دعائه ﷺ " اللهم ما قصر عنه رأيى، وضعف فيه عملى، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى، من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فأنا أرغب إليك وأسألك إياه " .

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر، والأحوال مواهب، وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها، وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها.

والله المنعم المعطى .



الباب التاسع والخمسون
فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله، قال أنا أبو منصور بن خيرون إجازة، قال أنا أبو محمد الحسن ابن على بن محمد الجوهرى إجازة، قال أنا أبو عمرو محمد بن عباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد، قال أنا الحسين بن الحسن المروزى، قال أنا عبد الله بن المبارك، قال أنا الهيثم ابن حميل قال أنا كثير بن سليم المدائنى، قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى، فقال له رسول الله ﷺ " أين أنت من الاستغفار، فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة " .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر " فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة " .

وروى أبو بردة قال: قال رسول الله ﷺ " إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة " .

وقال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[3]

---

(١) سورة النور : آية رقم : ٣١ .
(٢) سورة البقرة : آية رقم : ٢٢٢ .
(٣) سورة التحريم : آية رقم : ٨ .

التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهى أول المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء، فمن لا ارض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له .

وانى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرايتها يجمعها ثلاثة اشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان اربعة، ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقة بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سننه مفيدة للولادة الطبيعية .

ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلجملكوت السموات، ويكاشف بالقدروالآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت.

فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح، والثانى الزهد فى الدنيا، والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور .

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة باربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس. واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات، وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالا، بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه.

ونبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها .

أولها بعد الإيمان التوبة، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، ولا بد فى ابتدائها من وجود زاجر،

ووجدان الزاجر حال، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافى: مالى أراك مهموما ؟ قال: لأنى ضال ومطلوب ضللت الطريق والقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت، ولكن سنة الغفلة أدركتنى، وليس لى منها خلاص إلا أن ازجر فانزجر .

وقال الأصمعى: رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء، فقلت له، ألا تمسح عينيك؟ فقال: لا لأن الطبيب زجرنى، ولا خير فيمن لا ينزجر .

فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى، ولا بد من وجودها للتائب. ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه .

قال بعضهم : من لزم مطالعة الطوارق انتبه .

وقال أبو يزيد: علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى اقشعر.

وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير، وإذا انتبه العبد من رقدةغفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ، فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب، وإذا طلب عرف انه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى باتباعه حال التيقظ .

قال فارس: أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار .

وقيل: التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة .

وقيل: إذا صحت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة .

فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة .

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبة بالا بالمحاسبة.

نقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه انه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنزها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله . ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [1]

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات .

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده، واستيلاء الغفلة عليه، كى لا يستعبده الهوى، وتسترقه الدنيا. فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة اخرى، وبسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية، ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار، لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء، وتعقد عليه عقدة .

والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على اجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته، ووقته منورا معمورا بنور صلاته .

---

(١) سورة الحاقة : آية رقم : ١٨.

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة او امر آخر خط خطأ ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعينه نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعينه، لتضيق المحاسبة مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، لموضع صدقه فى حسن الاقتداء، وحرصه على تحقيق مقام العباد، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته .

وسئل الواسطى: اى الأعمال افضل ؟ قال : مراعاة السر، والمحاسبة فى الظاهر، والمراقبة فى الباطن، ويكمل احدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى، قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول: سمعت الحسن الفارسى يقول: سمعت الجريرى يقول: امرنا هذا مبنى على فصلين، وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائما .

قال المرتعش: المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة .

قال الله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (١) .

وهذا هو علم القيام، وبذلك يتم علم الحال .

---

(١) سورة الرعد : آية رقم : ٣٣.

ومعرفة الزيادة والنقصان هو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله، وكل هذا ملازم لصحة التوبة، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات العزائم، والعزائم مقدمات الأعمال، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح، ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالإرادة، وبالمراقبة ، حسم مواد الخواطر الرديئة، فصار من تمام المراقبة تمام التوبة، لأن من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكاره من القلب، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول : أفضل ما يلزم الإنسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة، وسياسة العمل بالعلم ، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة .

قال إبراهيم بن أدهم : إذا صدق العبد فى توبته صار منيبا. لأن الإنابة ثانى درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشى: المنيب الراجع عن كل شئ يشغله عن الله إلى الله .

وقال بعضهم: الإنابة الرجوع منه إليه لا من شئ غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفى الإنابة، والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدى الحق، مستغرقا فى عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال، والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان: ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبه .

وقال أبو عبد الله السجزى: من استحسن شيئا من أحواله فى حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا، ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال. ورؤية

عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وهو فى تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " المجاهد من جاهد نفسه " ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وافضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه، وصدق المراقبة له بالقلب، وحسم مواد الخواطر .

والصبر ينقسم إلى فرض وفضل، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات. ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، وكتما المصائب والأوجاع، وترك الشكوى، والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنح والكرامات ، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر، فإذا حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة، والصبر من اعز مقامات الموقنين، وهو داخل فى حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء: اى شئ افضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا ، وما ذكر شيئا بهذا العدد .

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر ومع شرفه .

ومن الصبر الصبر على النعمة، وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى، وهذا ايضا داخل فى صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر .

ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضى والغضب، والصبر عن محمدة الناس ، والصبر على الخمول والتواضع . والذى داخل فى الزهد وإن لم يكُن داخلا فى التوبة. وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد، وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس، وطمأنينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة. فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها. والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين، لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضى ومقامه، وتطمئن فى مجارى الأقدار .

قال أبو عبد الله النباجى: لله عباد يستحيون من الصبر، ويتلقفون مواضع أقداره بالرضى تلقفا .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالى سرور إلا مواقع القضاء .

قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين وصاه " اعمل لله باليقين فى الرضى، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيرا كثيرا " .

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ " من خير ما أعطى الرجل الرضى بما قسم الله تعالى له " .

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضى وشرفه أكثر من أن تحصى، والرضى ثمرة التوبة النصوح، وما تخلف عبد عن الرضى إلا بتخلفه عن التوبة النصوح، فإذا تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر، وحال

الرضى ومقام الرضى، والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح، لأن خوفه حمله على التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف ، فالرجاء والخوف يتلامان فى قلب المؤمن، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال " كيف تجدك؟ قال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال : ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف " .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1]. هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعنى عمل .

فالتائب خاف : فتاب ورجا المغفرة، ولا يكون التائب تائبا إلا وهو راج خائف .

ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره، واستعان بنعم الله على طاعة الله ، فقد شكر النعم، لأن كل جارحة من الجوارح نعمة، وشكرها قيدها عن المعصية، واستعمالها فى الطاعة . وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم .

فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة حال الزجر، وحال الانتباه، وحال التيقظ ومخالفة النفس، والتقوى، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة، والصبر، والرضى، والمحاسبة، والمراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف، والرجاء.

وإذا صحت التوبة النصوح وتركت النفس، وانجلت مرآة القب، وبان قبح الدنيا فيها، فيحصل الزهد، والزاهد يتحقق فيه التوكل، لأنه لا يزهد في الموجود إلا لاعتماد على الموعود، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين

---

(١) سورة البقرة : آية رقم : ١٩٥.

التوكل، وكلما بقى على العقد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده في الدنيا، وهو ثالث الأربعة.

اخبرنا شيخنا قال أنا ابو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، قال أنا ابو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا ابو عمرو محمد بن العباس قال أنا ابو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر فبدا بفاطمة رضي الله عنها فرآها قد احدثت في البيت سترا وزوائد في يديها، فلما راى ذلك رجع ولم يدخل، ثم جلس، فجعل ينكت في الأرض ويقول: مالى وللدنيا، مالى وللدنيا، فرات فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر.

فاخذت الستر والزوائد وارسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب إلى النبي ﷺ فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت، فاتى بلال إلى النبي ﷺ فقال: قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت، فقال النبي ﷺ بأبي وامي قد فعلت بابي وأمي قد فعلت اذهب فبعه.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١) قيل الزهد في الدنيا.

سئل امير المؤمنين على بن ابي طالب رضي الله عنه عن الزهد فقال: هو ان لا تبالي بمن اكل الدنيا مؤمن أو كافر.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: ويلكم اي مقدار لجناح بعوضة ان يزهد فيها.

وقال ابو بكر الواسطى: إلى متى تصول بترك كنيف، وإلى متى تصول باعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة.

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧.

فإذا صح زهد العبد صح توكله ايضا، لأن صدق توكله مكنه من زهده في الموجود، فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين، استوفي سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها.

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى ان يتوب العبد ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا، ثم يرتق من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعني، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن، وتستولى المراقبة على الباطن، وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفصول، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ...﴾[1] امره الله تعالى بالاستقامة في التوبة امرا له ولأتباعه وامته.

وقيل: لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة. ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب في النادر إذا ابتلى بذنب ينمحي اثر الذنب من باطنه في الطف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك، والندم توبة، فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا.

فإذا تاب توبة نصوحا ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غذائه لعشائه، ولا في عشائه لغذائه، ولا يرى الادخار، ولا يكون له تعلق هم بغد، فقد جمع في هذا الزهد والفقر، والزهد افضل من الفقر، وهو فقر وزيادة، لأن الفقير عادم للشيء اضطرارا، والزاهد تارك للشيء اختيارا، وزهد يحقق توكله، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، ، وحبس النفس لله يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه، ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢.

والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها، وهو دوام العمل، لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل.

وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع، ولا يراد الزهد في الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى، والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذاكرا أو تاليا أو مصليا أو مراقبا لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى، أو مهم لا بد منه طبيعى، فإذا استولى العمل على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل، فإذا كان مع الزهد والتوقى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا في العبودية.

قال أبو بكر الوراق: من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق.

وسئل سهل بن عبد الله التسترى: أى منزلة إذا قام العبد بها مقام العبودية؟ قال: إذا ترك التدبير والاختيار.

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختيار الله تعالى لزوال هواه، ووفور علمه، وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

قال يحيى بن معاذ الرازي: ما دام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار، فإنك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها، لأن ترك التدبير فناء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده، ورده إلى الاختيار تصرف بالحق، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق، وهذا العبد ما بقى عليه من الإعوجاج ذرة، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل، متمسكة بالاستكانة والافتقار، متحققة بقول رسول الله ﷺ : «لا تكلني إلى نفسى طرفة عين فاهلك، ولا إلى أحد من خلقك فاضيع، اكلأني كلاءة الوليد ولا تخل عني».



الباب الستون
في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب

قولهم في التوبة:

قال رويم: معنى التوبة أن يتوب من التوبة.

قيل معناه قول رابعة: استغفر الله العظيم من قلة صدقي في قولي: استغفر الله.

وسئل الحسن المغازلى عن التسوية؟ فقال: تسالنى عن توبة الإنابة أو عن توبة الأستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ فقال: أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحى من الله لقربه منك.

وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه. وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

قال ذو النون: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجدُ حلاوته، فقال: الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.

قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره.

وهذا الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته.

والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه، ويسهل عليه ذلك.

وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف. ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فاى حلاوة تبقى في قلبه، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله.

وسئل السوسي عن التوبة فقال: التوبة من كل شيء ذمة العلم إلى ما مدحه العلم.

وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس. وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام.

وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال ابو الحسن النورى: التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى:

قولهم في الورع:

قال رسول الله ﷺ ((ملاك دينكم الورع)).

اخبرنا ابو زرعة إجازة عن ابي بكر بن خلف عن ابي عبد الرحمن السلمي إجازة قال انا ابو سعيد الخلاف قال حدثنى ابن قتيبه قال حدثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن ابي بكر بن ابي مريم عن حبيب بن

عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر، فلما فرغ من وضوئه افرغ فضله في النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم.

قال عمر بن الخطاب: لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا.

قال معروف الكرخي: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف اصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

سئل الشبلي عن الورع، فقال: الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك من الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضي.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

سئل الخواص عن الورع، فقال: أن لا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضى، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال: سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول: اعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه، ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا.

وقال الخواص: الورع دليل الخوف، والخوف دليل المعرفة، والمعرفة دليل القربة.

قولهم في الزهد:

قال الجنيد: الزهد خلو الأيدى من الأملاك، والقلوب من التتبع.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، او بزهد فيما هوله فيكف زهد فيه وهو معه وعنده، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة. يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام، وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولكن مقصود الشبلي ان يقلل الزهد في عين المعتد بالزهد لئلا يغتر به.

قال رسول الله ﷺ: ((إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة)).

وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء في قصة قارون، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ...﴾[1] قيل: هم الزاهدون.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...﴾[2] قبل عن الدنيا.

وفى الخبر: العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم.

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٠.

(٢) سوزة الأنبياء: الآية ٧٣.

وجاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين.

وقال سهل: أعمال البر كلها في موازين الزهاد، وثواب زهدهم زيادة لهم.

وقيل: من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود، ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم.

قال السري: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، وبجميع هذا الخطوط المالية والجاهية، وحب المنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة.

وقال بعضهم: لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم.

وعندى أن الزهد في الزهد غير هذا، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد، لأن الزاهد اختار الزهد وأراده وإرادته تستند إلى علمه، وعلمه قاصر، فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ، أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشيء من الدنيا، فما يدخل بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهده، فيكون دخوله في الشيء من الدنيا بالله وبإذن منه زهدا في الزهد.

والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها، إن تركها تركها بالله، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد في الزهد. وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام.

وفوق هذا مقام آخر في الزهد، وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام آخر في الزهد، فيزهد زهدا ثالثا، ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها، وأعيدت عليه موهوبة، ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق، فقد يختار تركها حينا تأسيا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها في مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختباره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم.

وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين، زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا ثانيا بالله، كما زهدوا أولا لله.

قولهم في الصبر:

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله، وهو أفضل الخدمة وأعلاها.

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر في الصبر، أي لا تطالع فيه الفرج.

قال الله تعالى: ﴿... وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.[1]

وقيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، فالصبر عرك النفس، وبالعرك تلين، والصبر جار في الصابر مجرى الأنفاس، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهي ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا، والعلم يدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر، ومن كان العلم

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

سائسه في الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه.

والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل احدهما بدون الآخر، ومصدرهما الغريزة العقلية، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما، وبالصبر يتحامل على النفس، وبالعلم يترقى الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس، ليستقر كل واحد منهما في مستقره، وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال، وبانفصال احدهما عن الآخر اعنى العلم والصبر ميل احدهما على الآخر، أعنى النفس والروح، وبيان ذلك يدق.

وناهيك بشرف الضمير قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] كل اجير اجره بحساب، واجر الصابرين بغير حساب.

وقال الله تعالى لنبيه ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ...﴾[2] اضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به.

قيل: وقف رجل على الشبلي، فقال: اى صبر اشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فغضب الشبلي وقال: ويحك اي شيء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ الشبلي صرخة كاد ان تتلف روحه.

وعندى في معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه، وذاك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقدمات المشاهدة، يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا، وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا، ويتغيب في مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم امر التجلى، وهذا من أشد الصبر، لأنه يود استدامة هذه الحال، تأدية لحق الجلال.

---

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.
(٢) سورة النحل، الآية ١٢٧.

والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال. وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال ابو الحسن بن سالم: هم ثلاثة، متصبر، وصابر، وصبار، فالمتصبر من صبر في الله، فمرة يصبر، ومرة يجزع. والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع، ولكن يتوقع منه الشكوى، وقد يمكن منه الجزع. وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

وكان الشبلي يتمثل بهذين البيتين:

إن صوت المحب من ألم الشو ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى للرسول ﷺ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ...﴾.(١)

وسئل السري عن الصبر فتكلم فيه، فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته، فقيل له: لم لا تدفعه؟ قال: استحي من الله تعالى أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه.

اخبرنا ابو زرعة إجازة عن ابي بكر بن خلف إجازة عن أبي عبد الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الرغاني يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى اكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

بالعقل، وأكرم العقل بالصبر، فالإيمان زين المؤمن، والعقل زين الإيمان، والصبر زين العقل.

وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله:

صبرت على بعض الأذى خوف كله ... ودافعت عن نفسي لنفسي فعزت

وجرعتها المكروه حتى تدربت ... ولو لم أجرعها إذا لأشمأزت

ألا رب ذل ساق للنفس عزة ... ويا رب نفس بالتذلل عزت

إذا ما مددت الكف التمس الغنى ... إلى غير من قال اسألوني فشلت

ساصبر جهدي إن في الصبر عزة ... وأرضى بدنياي وإن هي قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما عاضه خيرا مما انتزعه منه. وأنشد لسمنون:

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسا ... زمانا إذا أجرى عز إليه احتسى

فكم غمرة قد جرعتني كؤسها ... فجرعتها من بحر صبر أكؤسا

تدرعت صبري والتحفت صروفه ... وقلت لنفسي الصبر أو فاهلكي أسى

خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها ... لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

قولهم في الفقر:

قال ابن الجلاء: الفقر أن لا يكون لك، فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر.

وقال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وقال النوري: نعت الفقراء السكون عند العدم، والبذل عند الوجود.

وقال غيره: والاضطراب عند الوجود.

وقال الدراج: فتشت كنف استاذي اريد مكحلة، فوجدت فيها قطعة فتحيرت، فلما جاء قلت له: إنى وجدت في كنفك هذه القطعة، قال: قد رايتها ردها، ثم قال: خذها واشتر بها شيئا، فقلت: ما كان امر هذه القطعة بحق معبودك؟ فقال: ما رزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها، فاردت أن أوصى ان تشد في كنفي فاردها إلى الله.

وقال إبراهيم الخواص: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق، فقال: لا يسأل، ولا يرد، ولا يحبس.

وقال ابو على الروذبارى رحمه الله: سألني الزقاق فقال: يا ابا على لم ترك الفقراء اخذ البلغة في وقت الحاجة؟ قال: قلت: لأنهم مستغنون بالمعطى عن العطاء، قال: نعم ولكن لي شيء آخر، فقلت: هات افدنى ما وقع لك، قال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود، إذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة، إذ لله وجودهم.

قال بعضهم: الفقر وقوف الحاجة على القلب، ومحوها عما سوى الرب.

وقال السوحى: الفقير الذى لا تغنيه النعم، ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة الفقر ان لا يستغني إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها.

وقال ابو بكر الطوسي: بقيت مدة أسأل من معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الاشياء، فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى، حتى سألت نصر ابن الحمامى فقال له: لأنه اول منزل من منازل التوحيد، فقنعت بذلك.

وسئل ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى، ثم ذهب ورجع ثم قال إنى لم اسكت إلا درهم كان عندى فذهب فاخرجته واستحيت من الله تعالى أن أتكلم في الفقر وعندى ذلك، ثم جلس وتكلم.

قال ابو بكر بن طاهر: من حكم الفقير ان لا يكون له رغبة، فإن كان ولا بد لا تجاوز رغبته كفايته.

قال فارس: قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر: لم لا تسأل فيطعموك؟ فقال: إنى أخاف أن أسألهم فيمنعونى، فلا يفلحون. وانشد لبعضهم:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما ... قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
احرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور في الثوب الذى خلعا
الدهر لى ما تم إن غبت يا املى ... والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا

قولهم في الشكر:

قال بعضهم: الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لست بشاكر ما دمت تشكر، وغاية الشكر التحير، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها.

وفي أخبار داود عليه السلام: إلهى كيف أشكرك وأنا لا استطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك، فأوحى الله إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتنى.

ومعنى الشكر في اللغة هو الكشف والإظهار، يقال شكر وكشر إذا كشف عن ثغره وأظهره.

فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر، وباطن الشكر ان تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية، فهو شكر النعمة.

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم:

اوليتني نعما ابوح بشكرها | وكفيتني كل الأمور باسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن امت | فتشكرنك اعظمي في قبرها

قال رسول الله ﷺ: ((اول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء)).

وقال رسول الله ﷺ: ((من ابتلي فصبر، واعطى فشكر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر، قيل فما باله؟ قال: اولئك لهم الأمن وهم مهتدون)).

قال الجنيد: فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وفي الحديث: ((افضل الذكر لا إله إلا الله، وافضل الدعاء الحمد لله)).

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿...وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾[1]

قال: الظاهرة العوافي والغنى، والباطنة البلاوى والفقر، فإن هذه نعم اخروية لما يستوجب بها من الجزاء.

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعما غير ما يضره في دينه، لأن الله تعالى لا يقضي للعبد المؤمن شيئا إلا وهو نعمة في حقه، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها، وإما آجلة بما يقضى له من المكاره، فإما أن تكون درجة له او تمحصيا أو تكفيرا. فإذا علم أن مولاه انصح له من نفسه، واعلم بمصالحه، وأن كل ما منه نعم فقد شكر.

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

قولهم في الخوف :

قال رسول الله ﷺ: ((رأس الحكمة مخافة الله)).

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((كان داود النبي عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه)).

قال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقيل: الخائف الذي لا يخاف غير الله. قيل: أي لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلا له، والخوف للنفس خوف العقوبة.

وقال سهل: الخوف ذكر والرجاء أنثى، أي منهما تتولد حقائق الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾[1]

قيل: هذه الآية قطب القرآن، لأن مدار الأمر كله على هذا.

وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، فقال تعالى: ﴿... هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[2]، وقال: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ...﴾[3]

---

(١) سورة النسا: الآية ١٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

وقال: ﴿... رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[١]

وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف.

وقال ايضا: العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة.

وقال ذو النون: لا يسقى المحب كاس المحبة إلا من بعد ان ينضج الخوف قلبه.

وقال فضيل بن عياض: إذ قيل لك تخاف الله اسكت فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم كذبت، فليس وصفك وصف من يخاف.

قولهم في الرجاء:

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان، ثم يقول: وعزتي وجلالي لا اجعل من آمن بي في ساعة من ليل او نهار كمن لم يؤمن بي».

قيل: جاء اعرابي إلى رسول الله ﷺ: فقال من يلي حساب الخلق؟ فقال: الله تبارك وتعالى. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ مم ضحكت يا اعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح».

وقال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة.

وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال.

وقيل: قرب القلب من ملاطفة الرب.

قال ابو على الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه.

قال ابو عبد الله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو.

---

(١) سورة البينة: الآية ٨.

قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين: ولا يكون خائفا إلا وهو راج، ولا راجيا إلا وهو خائف، لأن موجب الخوف الإيمان، وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف، ولهذا المعنى روى عن لقمان انه قال لابنه: خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره، وارجه اشد من خوفك.

قال: فكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: اما علمت ان المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

قولهم في التوكل:

قال السري: التوكل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال الجنيد: التوكل أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل: كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا.

قال بعضهم: يريد توكل العناية لا توكل الكفاية.

والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال: ﴿...وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]

وقال: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2]

وقال لنبيه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ...﴾[3]

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥١.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٥٨.

وقال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال ابو بكر الدقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد.

وقال ابو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار، وأن لا يفارق التوكل في امانيه، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره.

وقال بعضهم: من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه، وينس الدنيا وأهلها، لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله.

وقال سهل: أول مقامات التوكل ان يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل بقلبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال حمدون القصار: التوكل هو الاعتصام بالله.

وقال سهل ايضا: العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

وقال: التقوى واليقين مثل كفتي الميزان، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان.

ويقع لي ان التوكل على قدر العلم بالوكيل، فكل من كان أتم معرفة كان اتم توكلا، ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله.

ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة، وإن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلا وموازنة، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس، وكل ما أحس بشيء يقدح في توكله يراه من منبع النفس،

فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس، وكماله يثبت بغيبة النفس، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم، وإنما شغلهم في تغييب النفس بتقوية مواد القلب، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل، فصح التوكل، والعبد غير ناظر إليه، وكلما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ...﴾ [1] فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه، ويصير التوكل حينئذ اضطرارا، ولا يقدح في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط، لأنه يرى الأسباب مواتا لا حياة لها إلا بالتوكل، وهذا توكل خواص خواص أهل المعرفة.

قولهم في الرضى:

قال الحارث: الرضى سكون القلب تحت جريان الحكم .

وقال ذو النون: الرضى سرور القلب بمر القضاء.

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عنا، فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضى من لست عنه براض؟ فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة.

وقال سهل: إذا اتصل الرضى بالرضوان اتصلت بالطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وقال رسول الله ﷺ: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا)).

وقال عليه السلام: ((إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)).

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٢.

وقال الجنيد: الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلوب.

فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداة إلى الرضى، وليس الرضى والمحبة كالخوف والرجاء، فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة، لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضى والمحبة.

وقال ابن عطاء: الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، أنه اختار له الأفضل فيرضى له، وهو ترك السخط.

وقال ابو ترلب: ليس ينال الرضى من الله من للدنيا في قلبه مقدار.

وقال السرى: خمس من أخلاق المقربين: الرضى عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحبب إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال الفضيل: الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئا.

وقال ابن شمعون: الرضى بالحق، والرضى له، والرضى عنه، فالرضى به مدبرا ومختارا، والرضى عنه قاسما ومعطيا، وارضى له إلها وربا.

سئل ابو سعيد: هل يجوز ان يكون العبد راضيا ساخطا؟ قال: نعم يجوز ان يكون راضيا عن ربه، ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله.

وقيل للحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما: إن أبا ذر يقول: الفقر احب إلى من الغنى، والسقم احب إلى من الصحة، قال: رحم الله أبا ذر، اما انا فاقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التى اختار الله له.

وقال على رضى الله عنه: من جلس على بساط الرضى، لم ينله من الله مكروه أبدا، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال.

وقال يحيى: يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى بما عمل، وتخلص فيما تعمل.

وقال بعضهم: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، بقولك إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

قال الشبلي رحمه الله بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. قال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر. فقال: صدقت. قال: فضيق الصدر ترك الرضى بالقضاء.

وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضى، وذلك أن الرضى يحصل لإنشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾[1]

فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر، وانفتحت عين البصيرة، وعاين حسن تدبير الله تعالى، فينتزع السخط والتضجر، لأن اتساع القدرة يتضمن حلاوة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضى عن المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه، كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٢.

الباب الحادي والستون
في ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردي رحمه الله قال: أنا أبو طالب الزيني قال: أخبرتنا كريمة المروزية، قالت انا أبو الهيثم الكشمهيني، قال أنا ابو عبد الله الفربرى، قال أنا ابو عبد الله البخارى، قال حدثنا سليمان بن حرب، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: ‹‹ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن احب عبدا لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار››.

واخبرنا شيخنا ابو زرعة طاهر بن أبي الفضل، قال: انا أبو بكر بن خلف، قال انا أبو عبد الرحمن، قال أنا ابو عمر بن حيوة، قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه، قال حدثنى بشر بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن عبلة عن العرباض بن سارية قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: ‹‹اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وسمعى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد››.

فكان رسول الله ﷺ طلب خالص الحب، وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى، بكليته، وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم، والجلبة تتقاضاه بضد العلم، مثل أن يكون راضيا، والجبلة قد تكره، ويكون النظر إلى الانقياد لا إلى الاستعصاء بالجبلة، فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان، ويحب الاهل والولد بحكم الطبع.

وللمحبه وجوه وبواعث، المحبة في الإنسان متنوعة.

فمنها محبة الروح، ومحبة القلب، ومحبة النفس، ومحبة العقل.

فقول رسول الله ﷺ وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد، معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى، حتى يكون حب الله تعالى غالبا، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته، حتى يكون حب الله تعالى أغلب في الطبع ايضا والجبلة من حب الماء البارد، وهذا يكون حبا صافيا لخواص تنغمر به وبنوره نار الطبع والجبلة، وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ كما انه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فالهاء راجعه إلى الذات دون النعوت والصفات.

وقال بعضهم: المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة.

فإذا الحب حبان: حب عام، وحب خاص، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء، وهذا الحب مخرجه من المصفات. وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد في مدخل.

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح، وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه، وهذا الحب يكون من الأحوال، لانه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم في قول النبي ﷺ: «أحب إلى من الماء البارد» لأنه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات.

وهذا الحب روح، والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح. ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾[1]

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

لأن المحب يدل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه، وينشد:

لعين تفدى ألف عين وتتقي ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات، من الزهد والرضى والتوكل على ما شرحناه أولا، ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك.

والتوبة لهذا الحب بمثابة الجسمان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة النصوح، وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات، لأن التقلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين، ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا...﴾[1]، ومن قوله تعالى: ﴿...وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[2] أثبت كون الإنابة سببا للهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب، فقال تعالى: ﴿...ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ...﴾[3].

فمن أخذ في طريق المحبوبين، يطوى بساط أطوار المقامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأتم وصفها، والمقامات لا تقيده ولا تحبسه بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها، لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها، والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية، فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قلة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣.

الاعتماد المتولد عن جهل النفس، والرضى يصفيه عن ضربان، عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جمود النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة، فبقى ظلمتها وجمودها.

فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبة، ورغبة الحب احرقت رغبته، وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته، وماذا يسكن فيه الرضى من عروق المنازعة، والمنازعة ممن لم تسلم كلية.

قال الروذبارى: ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة.

وقال ابو يزيد : من قتلته محبته فديته رؤيته، ومن قتله عشقه فديته منادمته.

اخبرنا بذلك ابو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت احمد ابن على بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علوية يقول: قال ابو زيد ذلك، فإذا التقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون، تخلف عن هممهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات، وهى مواطن من يتعثر في أذيال بقاياه.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلى ماذا ادى بك التصوف؟ قال: إلى التوكل. فقال: تسعى في عمران باطنك اين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل.

فالنفس إذا تحركت بصفتها متلفتة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهده، فالمتوكل إذا تحركت نفسه يزدها بتوكله، والراضى يردها برضاه، وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم، وفي ذلك تنسم روح القرب من بعيد، وهو اداء حق العبودية مبلغ العلم، وبحسبه الاجتهاد والكسب.

ومن اخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بانوار فضل الحق، ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف، لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب، فالزهد والتوكل والرضى كائن فيه وهو غير كائن فيها، على معنى انه كيف تقلب كان زاهدا وان رغب، لأنه بالحق لا بنفسه، وان رؤي منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل، وان وجد منه الكراهه فهو راض، لأن كراهته لنفسه، ونفسه للحق، وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها، صار عين الداء دواءه، وصار الإعلال شفاءه، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضى، أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضى.

قالت رابعة: محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه.

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك، ولا يبقى لك منك شيء.

وقال ابو الحسين الوراق: السرور بالله من شدة المحبة له، والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجبا كيف يصبر الإنسان عن حبيبه.

وقال بعضهم: من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادعى حب رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب. وكانت رابعة تنشد:

تعصى الإله وانت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات، فمن ادعى حالا يعتبر حبه، ومن ادعى محبة تعتبر توبته، فإن التوبة قالب روح الحب، وهذا الروح قيامه بهذا القلب، والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبيَ ﷺ قال: «المرء مع من أحب» فهو مع الله تعالى.

وقال ابو يعقوب السوسى: لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب، بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة.

سئل الجنيد عن المحبة قال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب.

قيل: هذا على معنى قوله تعالى: ﴿فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا﴾ وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت، والرابطة متاصلة متأكدة، وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق الحب، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاذ جهده، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يزكى نفوس أحبانه بحسن توفيقه وتأييده، وإذا منح نزاهة للنفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب

المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك، لكون عطايا الله غير متناهية، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه، وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه.

ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت.

وإشارات الشيوخ في الاستغفارق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا، وأمنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس، وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها.

سئل الشبلي عن المحبة فقال: كاس لها وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت.

وقيل: للمحبة ظاهر وباطن، ظاهرها اتباع رضى المحبوب، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء، ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه.

فمن الاحوال السنية في المحبة الشوق، ولا يكون المحب إلا مشتاقا ابدا، ان امر الحق تعالى لا نهاية له، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أو في منها وأتم.

حزني كحسنك لا لذا امد　　　ينهي إليه ولا لذا امد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه، وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين.

قال أحمد بن ابي الحواري: دخلت على أبي سليمان الداراني فرايته يبكي، فقلت ما يبكيك رحمك الله ؟ قال: ويحك يا احمد، إذا جن هذا اللّيل افترشت أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، واشرف الجليل جل جلالة عليهم يقول: بعينى من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي، وانى مطلع عليهم في خلواتهم، اسمع أنينهم، وارى بكاءهم، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم، هل اخبركم مخبر أن حبيبا يعذب احبابه بالنار، كيف يجمل بي أن اعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلى، فبي حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهى وأبيحهم رياض قدسى.

وهذه أحوال قوم من المحبين اقيموا مقام الشوق، والشوق في المحبة كالزهد من التوبة، إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

قال الواسطى في قوله تعالى: ﴿...وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1]. قال شوقا واستهانة بمن وراءه ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ...﴾[2] من شوقه إلى مكالمة الله، ورمى بالألواح لما فاته من وقته.

وقال ابو عثمان: الشوق ثمرة المحبة، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه.

وقال ايضا في قوله تعالى: ﴿...فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ...﴾[3] تقربه للمشتاقين معناه إنى اعلم ان شوقكم إلى غالب، وانا اجلت للقائكم اجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه.

---

(١) سورة طه: الآية ٨٤.

(٢) سورة طه: الآية ٨٤.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥.

وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه، ورجاء للقائه والنظر إليه.

وعندى ان الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت، والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما، ويطلبونها ذوقا، فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء للموت، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.[1]

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة، فتمتلئ عينه من النقد، ثم يكاشفه من المنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت.

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال إنما يكون الشوق لغائب، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق؟

ولهذا سئل الأنطاكى عن الشوق فقال: إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته.

وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجها، لان رتب العطايا والمنح من انصبة القرب إذا كانت غير متناهية. كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من انصبة القرب، فكيف يمنح حال الشوق والأمر هكذا.

ووجه آخر، أن الإنسان لا بد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته، وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق، ولا نعنى بالشوق إلى مطالبة تنبعث من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

الباطن إلى الأولى والأعلى من انصبة القرب، هذه المطالبة كائنة في المحبين، فالشوق إذا كائن لا وجه لإنكاره، وقد قال قوم: شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة، فيكون في حال الغيبوبة مشتاقا إلى اللقاء، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وأفضاله، وهذا هو الذي أراه واختاره.

وقال فارس: قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إلى اشهدكم أني إليهم أشوق.

وقال أبو يزيد: لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث اهل النار من النار.

سئل ابن عطاء عن الشوق فقال: هو احتراق الحشا، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب.

سئل بعضهم: هل الشوق أعلى أم المحبة، فقال: المحبة، لان الشوق يتولد منها، فلا مشتاق إلا من غلبة الحب، فالحب اصل، والشوق فرع.

وقال النصر أبادى: للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له اثر ولا قرار.

ومنها الأنس، وقد سئل الجنيد عن الأنس فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وسئل ذو النون عن الانس فقال: هو انبساط المحب إلى المحبوب.

قيل: معناه قول الخليل (ارني كيف تحيي الموتى) وقول موسى (أرني انظر إليك) وأنشد لرويم:

شغلت قلبي بما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر

آنستني منك بالوداد فقد اوحشتني من جميع ذا البشر

ذكرك لى مؤنس يعارضني يوعدني عنك منك بالظفر

وحيثما كنت يا مدى همسى فأنت منى بموضع النظر

وروى ان مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز: ليكن أنسك بالله، وانقطاعك إليه، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا في وحدتهم اشد استئناسا من الناس في كثرتهم، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون.

قال الواسطي: لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها.

وقال ابو الحسين الوراق: لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فإنك لا تتزايد به أنسا إلا ازددت منه هيبة وتعظيما.

قالت رابعة: كل مطيع مستانس، وانشدت:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقال مالك بن دينا (من لم يانس، بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه، وعمى قلبه، وضيع عمره).

قيل لبعضهم: من معك في الدار؟ قال: الله تعالى معى، ولا يستوحش من أنس بربه.

وقال الخراز: الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب.

ووصف بعض العارفين صفة اهل المحبة الواصلين فقال: جدد لهم الود في كل طرفة بدوام الاتصال، وآواهم في كنفه بحقائق السكون إليه، حتى انت قلوبهم، وحنت أرواحهم شوقا، وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله، فذهبت مناهم، وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم.

ولو ان الحق تعالى امر جميع الانبياء يسالون لهم ما سالوه عن بعض ما اعد لهم من قديم وحدانيته ودوام ازليته، وسابق علمه، وكان نصيبهم معرفتهم به، وفراغ هممهم عليه، واجتماع اهوائهم فيه، فصار يحسدهم من عبيدهم العموم ان رفع عن قلوبهم جميع الهموم.

وانشد في معناه:

كانت لقلبي اهواء مفرقة	فاستجمعت إذ رآتك النفس اهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده	وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم	شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

وقد يكون من الانس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه، وسائر أبواب القربات، وهذا القدر من الانس نعمة من الله تعالى ومنحه منه، ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين.

والانس حال شريف يكون عند طهارة الباطن، وكنسه بصدق الزهد، وكمال التقوى، وقطع الأسباب والعلائق، ومحو الخواطر والهواجس، وحقيقته عندي كنس الوجود بثقل لانح العظمة، وانتشار الروح في ميادين الفتوح، وله استقلال بنفسهُ يشتملُ على القلب، فيجمعه به عن الهيبة، وفي الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس.

وهذا الذي وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات كون في مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود

الفناء، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال، وذلك مقام التلوين، وما ذكرناه بعد الفناء في مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات. ومن الأنس خضوع النفس المطمئنة، ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح.

ومنها القرب. قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿واسجد واقترب﴾.

وقد ورد «اقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده» فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب، لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب.

قال بعضهم: إنى لا أجد الحضور فأقول يا الله أو يا رب فأجد ذلك على أثقل من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه، وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات.

وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب، ولكنه مشعر بمحو، ومؤذن بسكر، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه، لغلبة سكره، وقوة محوه، فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس، والنفس من الروح، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه، فيقول يا الله ويا رب بلسان النفس المطمئنة، العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها.

والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الاول، لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتوح، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار، وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

وقال الجنيد: إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

وقال ابو يعقوب السوسي: ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقُرب فذلك قرب. وقد قال قائلهم:

قد تحققتك في السر	فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان	وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم	عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد	من الأحشاء داني

قال ذو النون: ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة.

وقال سهل: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء.

وقال النصر اباذي: باتباع السنة تنال المعرفة، وباداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة.

ومنها الحياء، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص، فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله ﷺ في قوله: ((استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)).

وهذا الحياء من المقامات .

واما الحياء الخاص فمن الأحوال، وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه انه قال: إنى أغتسل في البيت المظلم فانطوى حياء من الله.

اخبرنا ابو زرعة عن ابن خلف عن ابي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي بن صالح يقول سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت ابا العباس المؤدب يقول: قال لي سري: احفظ عني ما أقول لك: عن الحياء والأنس يطوفان بالقلب، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا، وإلا رحلا.

والحياء إطراق الروح إجلالاً لعظم الجلال، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، فإذا اجتمعنا فهو الغاية في المنى والنهاية في العطاء.

وأنشد شيخ الإسلام:

اشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

الموت في إدباره، والعيش في إقباله واصد عنه إذا بدا، واروم طيف خياله

قال بعض الحكماء: من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج.

وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبقِ منك إلى ربك.

وقال ابن عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإن ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه.

وقال ابو سليمان: إن العباد عملوا على أربع درجات: على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، واشرفهم منزلة من عمل على الحياء، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته اكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم.

وقال بعضهم: الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله إليهم.

ومنها الاتصال.

قال النورى: الاتصال مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار.

وقال بعضهم: الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول.

وقال بعضهم: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

وقال سهل بن عبد الله : حركوا بالبلاء فتحركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العمال أربعة: تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل، فالتائب محجوب بتوبته، والزاهد محجوب بزهده، والمشتاق محجوب بحاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

وقال أبو سعيد القرشي: الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا، المتصل الذي بجهده يتصل، وكلما دنا انقطع. وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد، لكون أحدهما مبادأ بالكشوف، وكون الآخر مردود إلى الاجتهاد.

وقال ابو يزيد: الواصلون في ثلاثة أحرف: همهم لله، وشغلهم في الله، ورجوعهم إلى الله.

وقال السيارى: الوصول مقام جليل، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق، وقرب إليه البعيد.

وقال الجنيد: الواصل هو الحاصل عند ربه.

وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبدا.

وقال ذو النون: ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد فرجع عنه.

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ. وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلى، فيفنى فعله وفعل غيره، لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال، وهذا تجلى طريق الصفات، وهو رتبة في الوصول.

ومنهم من ترقى لمقام الفناء، مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبا في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذا المقام رتبة في الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون ذلك في الدنيا للخواص لمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد، حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل، فأين الوصول، هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبدا الآباد في عمر الآخرة الأبدى، فكيف في العمر القصير الدنيوى.

ومنها القبض والبسط، وهما حالان شريفان. قال الله تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ...﴾[1] وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

والإشارة تقنع الأهل. وأحببت أن أشبع الكلام فيها لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم، لا يكونان قبله ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة. فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك، وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضا، واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا.

والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، وما دامت صفة الإمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز، والنشاط والهم وهج ساجور النفس، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطي: يقبضك عما لك ويبسطك فيما له.

وقال النوري: يقبضك بإياك ويبسطك لإياه.

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته، والنفس ما دامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف

فيه، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط ما دام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب، ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النوراني الذي هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

قال فارس: أولا القبض ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقع في الوجود، فأما مع الفناء والبقاء فلا.

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط، وذلك أن الوارد من الله تعالى، يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا، فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطبعها، وافرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا، فتقابل بالقبض عقوبة، وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها، ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى، ما وجد صاحب القلب القبض، وما دام روحه وانسه ورعاية الاعتدال الذي يسد باب القبض ملتقى من قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ... ﴾.(١)

فوارد الفرح ما دام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض، لا سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله، وإذا لم يلتج بالإيواء إلى الله تعالى، تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح، وهو الفرح بما أتى المنوع منه، فمن ذلك القبض في بعض الأحايين، وهذا من الطف الذنوب الموجبة للقبض، وفي النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض، ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط، ولا صاحب الانس والهيبة، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٣.

واما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب. وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف بسببهما، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام.

ومن احكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط، كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة، لا تنقدح من جوهرها نار توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط، وربما صار لمثل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط في نفسه المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط، لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح، مستقر في دعة القرب، فلا قبض ولا بسط.

ومنها الفناء والبقاء.

قد قيل: الفناء ان يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه.

وقد قال عامربن عبد الله : لا ابالى امراة رايت ام حائطا.

ويكون محفوظا فيما لله عليه، مصروفا عن جميع المخالفات، والبقاء يعقبه، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى.

وقيل: الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فيكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفته، فكان فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات. وعندى ان هذا الذي ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح، وليس من الفناء والبقاء في شيء.

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عبد الله بن عمر انه سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نتراءى الله في ذلك المكان.

وقيل: الفناء وهو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل.

وقال الخراز: الفناء هو التلاشي بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.

وقال الجنيد: الفناء استعجام الكل عن اوصافك، واشتغال الكل منك بكليته.

وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة.

وسئل الخراز: ما علامة الفاني؟ قال: علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء، وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.

واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وهذا تقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد، وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة، وهذا يقتضيه تزكية النفس.

وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من امر الحق سبحانه

وتعالى على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن.

فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيه فعلا إلا بالحق، ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه، ويقيض الله تعالى له من يطعمه، ومن يسقيه كيف شاء وأحب، ولهذا لعمرى فناء، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير، نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله.

والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولى على باطنه أمر الحق، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس. وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى وقلت له: هل يكون بقاء المتخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفي؟ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى، فقال لى: هذا يكون في مقام الفناء، ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا.

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار انه كان في الصلاة فوقعت اسطوانة فى الجامع فانزعج لهدتها اهل السوق، فدخلوا المسجد فراوه فى الصلاة ولم يحس بالاسطوانة ووقوعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا.

ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل، ويكون من أقسام

الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن في كليات اموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه.

فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان، وصاحب الانتظار لإذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله بباطنه في جزئياتها فان، ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن، هو باق، والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، والفاني محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال، وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه.



الباب الثاني والستون
في شرح كلمات مشيرة
إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة قال: أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال: حدثنا محمد ابن إبراهيم قال: حدثنا ابو مسلم الكشي قال: حدثنا مسور بن عيسى قال: حدثنا القاسم بن يحيى قال: حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم ما لم تعلم، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه».

وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم. فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى، وتعلموا العلم لله تعالى، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم، فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار، وترسخ قدمهم في العلم.

قال أبو سعيد الخراز: أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1].

وقال أبو بكر الواسطي: الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سر السر، فعرفهم ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص، فاستخرجوا الدرر والجواهر، وانطقوا الحكمة.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٧.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سفيان بن عيينه عن ابن جريج عن عطاء عن ابي هريرة أنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله.

أخبرنا أبو زرعة قال: أنا أبو بكر بن خلف قال: حدثنا ابو عبد الرحمن قال: سمعت النصراباذى يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول: هي أسرار الله تعالى يبديها إلى امناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص.

وقال ابو سعيد الخراز: للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية، وهي من العلم بالمجهول.

فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون.

وقال قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: «بي ينطق» وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر ﴿...ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.[1]

فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض، وإشارة منهم أحوال يجدونها، ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم: الجمع والتفرقة.

قيل: أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾[2] فهذا جمع، ثم فرق فقال ﴿...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ...﴾.[3]

---

(١) سورة الكهف، الآية ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٣)سورة آل عمران، الآية ١٨.

وقوله تعالى: ﴿آمنا بالله﴾ جمع، ثم فرق بقوله ﴿وما انزل الينا﴾ والجمع أصل والتفرقة فرع، فكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد: القرب بالوجد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة.

وقيل: جمعهم في المعرفة وفرقهم في الاحوال. والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة. وعباراتهم في ذلك كثيرة.

والمقصود انهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، واشاروا إلى الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة.

ويقولون: فلان في عين الجمع، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة، فصحة الجمع بالتفرقة، وصحة التفرقة بالجمع. فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله، والتفرقة من العلم بأمر الله ولا بد منهما جميعا.

قال المزين: الجمع عين الفناء بالله، والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض.

وقد غلط قوم وادعوا انهم في عين الجمع، واشاروا إلى صرف التوحيد، وعطلوا الاكتساب، فتزندقوا، وإنما الجمع حكم الروح، والتفرقة حكم القالب، وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة.

وقيل: جمعهم بذاته، وفرقهم في صفاته.

وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظر إلى أعماله فهو في التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع.

ومجموع الإشارات ينبئ أن الكون يفرق، والمكون يجمع، فمن أفرد المكون جمع، ومن نظر إلى الكون فرق، فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد، فإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال، رؤية الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى، فلم يكن لموسى خبر من موسى، ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع. ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع. ثم أنشد القائل متمثلا.

وبدا لـه من بعدما اندمل الهوى	برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه	صعب الذرى متمتع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق	نظرا إليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه	والماء ما سمحت به أجفانه

ومنها قولهم: التجلى والاستتار.

قال الجنيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلى، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة. وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس، ومنها الاستتار، وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب.

ومنها التجلى، ثم التجلي قد يكون طريق الأفعال، وقد يكون بطريق الصفات، وقد يكون بطريق الذات، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع

الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم، فأما لهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس، وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقه في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم: علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال.

وقال بعضهم: التجلي رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب.

ومنها التجريد والتفريد. الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله، لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقياداً، والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به، بل يرى منة الله عليه.

فالتجريد ينفي الأغيار، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه.

ومنها الوجد والتواجد والوجود. فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه، ينظر منها إلى الله تعالى.

والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر. والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان، فلا وجد مع الوجدان، ولا خبر مع العيان، فالوجد بعرضية الزوال، والوجود ثابت بثبوت الجبال. وقد قيل:

قد كان يطربني وجدي فأقعدني ... عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

والوجد يطرب من في الوجد راحته ... والوجد عن حضور الحق مفقود

ومنها الغلبة. الغلبة وجد متلاحق، فالوجد كالبرق يبدو، والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز، فالوجد ينطفئ سريعا، والغلبة تبقى للأسرار حرازا منيعا.

ومنها المسامرة، وهي تفرد الأرواح بخفى مناجاتها ولطيف مناغاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها، فتلتذ بها دون القلب.

ومنها السكر والصحو، فالسكر استيلاء سلطان الحال، والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال.

قال محمد بن خفيف: السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب.

وقال الواسطى: مقامات الوجد اربعة: الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم الصحو، كمن سمع بالبحر ثم دنا منه، ثم دخل فيه، ثم أخذته الأمواج، فعلى هذا من بقى عليه اثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

ومنها المحو والإثبات. المحو بإزالة أوصاف النفوس، والإثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس. أو المحو محو رسوم الاعمال بنظر الفناء إلى نفسه وما منه، والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به، فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن اوصافه.

قال ابن عطاء: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

ومنها علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال، وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال، وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال.

قال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه، وعلم اليقين هو العلم الذى اودعه الله الأسرار، والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة، فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة، وحق اليقين هو حقيقة ما اشار إليه علم اليقين، وعين اليقين.

وقال الجنيد: حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله ﷺ: «ماذا ابقيت لعيالك». قال: الله ورسوله.

وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد.

وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق، فالاسم والرسم للعوام، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ.

ومنها الوقت، والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد، واغلب ما على العبد وقته، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع، وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا يكسبه فيتصرف يه فيكون بحكمه، يقال فلان بحكم الوقت يعنى مأخوذا عما منه بما للحق.

ومنها الغيبة والشهود. فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة، ووقتا بوصف المشاهدة، فما دام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غاضب، وقد يعنون بالغيبة عن الاشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء.

ومنها الذوق والشرب والرى. فالذوق إيمان، والشرب علم، والرى حال. فالذوق لأرباب البوادر، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع، والرى لأرباب الأحوال، وذلك أن الأحوال هى التى تستقر، فما لم يستقر فليس بحال، وإنما هى لوامع وطوالع. وقيل الحال لا تستقر لانها تحول، فإذا استقرت تكون مقاما.

ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة. فالمحاضرة لأرباب التلوين، والمشاهدة لأرباب التمكين، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر. فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم، والمكاشفة لأهل العين، والمشاهدة لأهل الحق أى حق اليقين.

ومنها الطوارق والبوادى والبادة والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى، ويمكن بسط القول فيها، ويكون حاصل ذلك راجعا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة يه. والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها.

ومنها التلوين والتمكين. فالتلوين لأرباب القلوب، لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلص إلى الصفات، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات.

وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرقوا حجب القلوب، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات، إذاجلب ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين.

فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم، لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها. والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكن، لأن جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الإنسانية، وثبوت القدم في التمكين كشف حق الحقيقة، وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر، وإنما المعنى فيه أن ما كوشف من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد، وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان، وتلوينه في زوائد الأحوال.

ومنها النفس. ويقال النفس للمنتهى، والوقت للمبتدى، والحال للمتوسط، فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه، والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال، لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه، مقيمة لا تتناوب عليه، وهذه كلها أحوال لأربابها، ولهم منها ذوق وشرب، والله ينفع ببركتهم آمين.

الباب الثالث والستون
في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب السهروردي قال انا الشريف ابو طالب الحسين بن محمد الزينى قال اخبرتنا كريمة المروزية قالت اخبرنا ابو الهيثم محمد بن مكى الكشمهيني قال انا ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال اخبرنى محمد بن إبراهيم التيمي انه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها او إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

النية اول العمل، وبحسبها يكون العمل، وأهم ما للمريد في ابتداء أمره في طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية، ويتزيا بزيهم، ويجالس طائفتهم لله تعالى، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله ووقته.

وقد ورد «المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه».

وقد قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ (١).

فالمريد ينبغي ان يخرج إلى طريق القوم لله تعالى، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فاجره على الله، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٠.

اخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدى قال سمعت الجنيد يقول: أكثر العوائق الحوائل والموانع من فساد الابتداء.

فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية، وإحكام النية تنزيهها من دواعى الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك.

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: اخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل.

ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية.

قال سهل بن عبد الله التسترى: أول ما يؤمر به المريد المبتدئ التبرى من الحركات المذمومة، ثم النقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرد لأمر الله تعالى، ثم التوقف فى الرشاد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ويكون الرضا والتسليم مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة، وهذا مقام حملة العرش، وليس بعده مقام.

هذا من كلام سهل جمع فيه ما في البداية والنهاية.

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع، وقطع النظر عن الخلق. فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر)) إشارة إلى قطع النظر عن الخلق، والخروج منهم، وترك التقيد بعاداتهم.

قال احمد بن خضرويه: من احب ان يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق، فإن الله تعالى مع الصادقين.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: ((الصدق يهدي إلى البر)).

ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى ان يحكم أساسه، فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس.

وانفع شيء للمريد معرفة النفس، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات، أو عليه من الهوى بقية.

قال زيد بن اسلم: خصلتان هما كمال أمرك: تصبح لا تهم لله بمعصية، وتمسى ولا تهم لله بمعصية. فإذا احكم الزهد والتقوى، انكشفت له النفس، وخرجت من حجبها، وعلم طريق حركتها، وخفى شهواتها، ودسائسها وتلبيساتها. ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى.

قال ذو النون: لله تعالى في أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصدق.

ونقل في معنى الصدق أن عابدا من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه، فقال اجعلوا لي ماء في الخلاء اتنظف به، ثم صعد على موضع في القصر فرمى بنفسه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى، قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان على من خالف هواه، وبذل نفسه لله تعالى.

وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى، حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله، ولا يأكل إلا لله، ولا يشرب إلا لله، ولا ينام إلا له، لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس كانت لله لا تستعصي النفس، وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص، وإذا دخل في شيء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه.

وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الإذفر، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة».

وقيل: كان أنس يقول: طيبوا كفي بمسك فإن ثابتا يصافحني ويقبل يدي.

وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم.

فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى. وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى.

ولا ينفع القول إذا لم تكن النية في القلب، لأن النية عمل القلب، وإنما اللسان ترجمان، فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لا تكون نية.

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال: هات المدرى، أراد الميل ليفرق شعره، فقالت له امرأته: أجئ بالمدرى والمرآة؟ فسكت ثم قال: نعم، فقال له من سمعه: سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم، فقال: إني قلت لها هات المدرى بنية، فلما قالت والمرآة لم يكن لي في المرآة نية فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لي نية فقلت نعم.

وكل مبتدئ لا يحكم اساس بدايته، بمهاجرة الإلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته. وقد قيل: من قلة الصدق كثرت الخلطاء، وأنفع ماله لزوم الصمت، وأن لا يطرق سمعه كلام الناس، فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة.

وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدا، فإن عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا. وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش.

وربما استضر المبتدى بمجرد النظر إلى الناس، ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشي، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة، فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره، ثم يتقي موضع نظر الناس إليه واحساسهم منه بالرعاية والاحتراز، فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله. ولا يستحقر فضول المشى، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول، ثم يجر إلى تضييع الأصول.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول.

فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه، وانحلت شيئا بعد شيء.

قال سهل بن عبد الله : من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخالق اضطرارا.

وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع، ويهلك مع الهالكين.

ولا ينبغي للمتبدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا، فإن معرفته لهم سم قاتل. وقد ورد «الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى

النار»، وما حبل من حبالها إلا كأبنائها والطالبين لها والمحبين، فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى.

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار، فإنه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة ابناء الدّنيا، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل المتعبدين، وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك.

وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب، ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا، فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين، ورأينا الذين يقولون هذا القول، ويرون الفرائض دون الزيادات، والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء في أحوالهم. فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته.

ويراعي يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه ومآربها، ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة، وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن.

قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة اغتسل للجمعة، ولو اشتريت الماء بعشائك».

وما من نبي إلا وقد أمره الله أن يغتسل للجمعة، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين، ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلي الجمعة، ويجلس معتكفا في الجامع إلى أن يصلي فرض العصر، وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع، حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة.

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق، ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذي مضى، فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات، وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح، فلما ضيع في الأسبوع، يعرف ذلك ويعتبره.

ويتقى جدا أن يلبس للناس المرتفع من الثياب او ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد، ففي لبس المرتفع للناس هوى، وفي لبس الخشن رياء، فلا يلبس إلا لله.

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا اغيره فالبسه بنية للناس.

فليعلم العبد ذلك وليعتبره.

ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل او اكثر كيف أمكن، ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد افضل من تلاوة القرآن، فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى.

وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه. ومن لازم التلاوة في الخلوة، وتمسك بالوحدة، تفيده التلاوة والصلاة أو في ما يفيده الذكر الواحد، فإذا سئم في بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة، وينزل من التلاوة إلى الذكر، فإنه أخف على النفس.

وينبغي ان يعلم أن الاعتبار بالقلب، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد، فإنه عمل

ناقص، ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال، فيطالب نفسه أن تصير في تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه.

فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس. وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه، فيشتغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس، فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة.

قال مالك: قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة.

فليتمسك المريد بهذه الأصول، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله، فبذلك ثبات قدمه.

قال سهل: على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقار إلى الله.

فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير، ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم، وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا يتشبث بحركة، ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا، علمنا ذلك وتحققناه.

وقال سهل: من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه.

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم: لمن هذه الدار؟ ثم رجع إلى نفسه وقال: مالي وهذا السؤال، وهل هذه إلا كلمة لا تعنيني، وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها، وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة.

فبالصدق نالوا ما نالوا، وبقوة العزائم، عزائم الرجال، بلغوا ما بلغوا.

اخبرنا ابو زرعة إجازة قال انا ابو بكر بن خلف قال انا ابو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت ابا عمرو الانماطى يقول سمعت الجنيد يقول: لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله.

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها، والمنتهى عالم بها عامل بحقائقها. فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق.

قال أبو سعيد القرشي: الصادق الذى ظاهره مستقيم، وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس، وعلامته ان يجد الحلاوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار.

والصديق الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الاحوال لا يحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام. والصديق يريد نفسه لله، وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية.

وقال أبو يزيد: آخر نهايات الصديقين أول درجات الأنبياء.

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس، ووطئت بساط القلوب، ونفوسهم منقادة مطاوعة صالحة مع القلب، مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى، انطفأت فيهم نيران الهوى، وتخمر في بواطنهم صريح العلم، وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله ﷺ في حق ابي بكر رضى الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر الى ابي بكر» إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم

الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.[1]

فأرباب النهايات ماتت أهويتهم، وخلصت أرواحهم.

قال يحيى بن معاذ، وقد سئل عن وصف العارف فقال: رجل معهم بائن منهم. وقال مرة: عبد كان فبان.

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم، معوقين بتوقيت الاجل، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه، بهم يهدى، وبهم يرشد، وبهم يجذب أهل الإرادة، كلامهم دواء، ونظرهم دواء، ظاهرهم محفوظ بالحكم، وباطنهم معمور بالعلم.

قال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا يجعله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله.

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا دينا ازدادوا قربا، وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[2]

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس، لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشيء، ويهدي له شيء، لأنه مقهور تحت السياسة، مرحوم ملطوف به.

وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء، واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية.

---

(١) سورة ق : الآية ٢٢.
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطلبها ماشطتها، والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده، ولا يلتفت إليها.

واعلم ان المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى ايضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات، وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر.

وقد غلط في هذا خلق، وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات، وهذا خطأ لا من حيث انه يحجب العارف عن معرفته، ولكن يوقف مقام المزيد.

وقوم لما راوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا إليها واسترسلوا فيها، وقنعوا بأداء الفرائض، واتسعوا في المأكل والمشرب، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال، وتقيد بنور الحال، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق.

ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر، ويوقف نفسه مقام العبيد، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وانواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة، فيتناول الشهوات وقتا، رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لأنها أسيرته، ويمنعها الشهوات وقتا، لأن في ذلك صلاحها.

واعبر هذا سواء بحال الصبي، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا، انفسد طبعه، لأن الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم، وما دامت الجبلة باقية لا بد من سياسة العلم، وهذا باب غامض دخله في النهايات على المنتهى من ذلك دواخل، ووقع الركون، وانسد به باب المزيد.

فالمنتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك، ولا بد له من أخذ وترك في الاعمال والحظوظ. ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك، فتارة يأتي الأعمال كآحاد الصادقين، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس، وتارة يتركها افتقادا للنفس بحسن السياسة، فيكون في ذلك كله مختارا.

فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية، ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكلية. والمنتهى شمل الطرفين، فإنه على غاية الاعتدال، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط.

فمن ردت إليه الأقسام في النهاية فأخذها زاهدا في الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار، وتارك الاختيار، الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال.

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار، فكذلك الزاهد في الزهد الآخذ من الدنيا ما سبق إليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا، واختياره من اختيار الله ويأخذه وقتا، واختياره من اختيار الله، وهكذا صومه النافلة، وصلاته النافلة، يأتي بها وقتا ويسمح للنفس وقتا، لأنه مختار صحيح في الاختيار في الحالتين، وهذا هو الصحيح. ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ.

وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان، ويتناول الشهوات.

ولما قال الرجل إنني عزمت أن لا آكل اللحم قال: «فإني آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لأطعمني» وذلك يدلك على أن

رسول الله ﷺ كان مختارا في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وكان يترك الأكل اختيارا.

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله ﷺ فعل كذا يقولون كان رسول الله ﷺ مشرعا، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض، فإن الرخصة الوقوف على حد قوله، والعزيمة التأسي بفعله، وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص، وفعله لأرباب العزائم.

ثم إن المنتهي يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحلق، فكل ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغي أن يعتمده، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقتدى به، وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك، فإن كان ليقتدى به فالمنتهي أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك، والصحيح الحق أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء، بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة.

قال الله تعالى خطابا له: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1] لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية، وقرع باب الكرم.

والنبي ﷺ مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى، غير مستغن عن ذلك.

ثم في ذلك سر غريب، وذلك أن رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به. وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف، أن النفوس ألفت آنفا كما أن الأرواح ألفت أولا،

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

ولكل روح مع نفسه تاليف خاص، والسكون والتاليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس.

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل لتصفية نفسه ونفس الاتباع، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الامة.

وهكذا المنتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المعنى ، فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل، ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتاييد الله تعالى ونور الحكمة.

وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق، حتى تكون جلوته في حماية خلوته. ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة، وأنه لا يحجبه شيء، وأن أوقاته بالله ولله، ولا يرى نقصانا، لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح في حاله غير ابه تحت قصور، لأنه ما نبه لسياسة الجبلة، وما عرف سر تمليك الاختيار، وما وقف من البيان على البيضاء النقية.

وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها، والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى في أي كلمة يسمعها، حتى يسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم انه سئل عن كمال المعرفة فقال: إذا اجتمعت المتفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز.

ومثل هذا القول يوهم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة، وبين القيام بصور الاعمال وبين تركها، ولم يفهم منه ان القائل اراد بذلك معنى خاصا، يعنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال، وهذا صحيح، لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز، وتستوى الاحوال فيه، ولكن حظ

المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز، وليس في هذا الكلام وأمثاله ما ينافي ما ذكرناه.

قيل لمحمد بن الفضل: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها الا وهى الاستقامة.

وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة، فاستقامة ارباب النهاية على التمام. والعبد في ابتداء مأخوذ في الأعمال محجوب بها عن الأحوال، وفي التوسط محفوظ بالأحوال، فقد يحجب عن الاعمال.

وفى الانتهاء لا تحجبه الأعمال عن الأحوال، ولا الأحوال عن الأعمال، وذلك هو الفضل العظيم.

سئل الجنيد عن النهاية فقال: هي الرجوع إلى البداية.

وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال: معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم رد إلى التحير والجهل، وهو كالطفولية يكون جهل، ثم علم، ثم جهل. قال الله تعالى: ﴿...لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا...﴾[1].

وقال بعضهم: اعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه.

ويجوز ان يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادئ الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال، ثم يجمع له بين الأعمال والاحوال، وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ في طريق المحبوبين، تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية، وتستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس، والنفس تستتبع القالب، فيكون بكليته قائما بالله، ساجدا بين يدى الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ: «سجد لك سوادى وخيالى».

---

(١) سورة النحل، الآية ٧٠ .

وقـال الله تعـالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[1] والظـلال والقوالـب تسـجد بسـجود الأرواح، عند ذلك تسرى روح المحبة في جميع اجزائهم وابعاضهم، فيتلذذون ويتنعمون بذكـر الله تعـالى وتـلاوة كلامـه محبـة وودا، فيحبـهم الله تعـالى، ويحببهم إلى خلقه، نعمة منه عليهم وفضلا، على ما اخبرنـا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزيـني قال أخبرتنـا كريمة المرزوية قالت انا ابو الهيثم الكشميهني قال أنا عبد الله الفربـرى قـال انـا ابو عبـد الله البخارى قـال حدثنـى اسحاق قـال حدثنـا عبـد الصمـد قـال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينـار عـن أبيـه عـن ابي صـالح عـن أبي هريرة رضـى الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن الله تعـالى إذا أحـب عبـدا نادى جبريل إن الله تعـالى قـد أحـب فلانـا فاحبـه، فيحبـه جبريل، ثـم ينـادى جبريل في السماء إن الله قد احب فلانا فاحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضـع لـه القبول في الأرض».

وبالله العون والعصمة والتوفيق.

★ ★ ★ ★

تم بحمد الله وعونه

كتاب عوارف المعارف للأمام السهروردى

وفى الختام نقول:

إننـا فـى كـل مـاتحقق مـن كتـب الـتراث نضـع نصـب أعيننـا كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ فما وافقهما أخذنا به وما خالفهما علقنا عليه ورددناه.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٥.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**